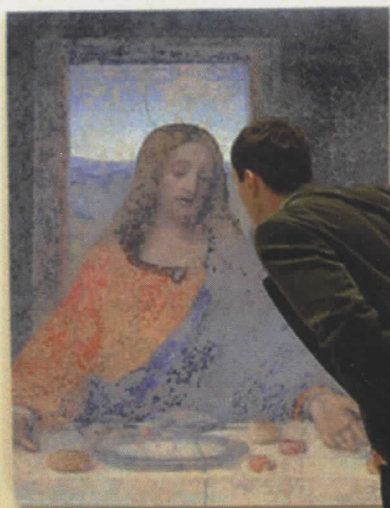
الطبعة الثانية

فيليب يانسي



يسوع

الذي لم أكن أعرفه

فيليب يانسي

ترجمة: سليم اسكندر

مراجعة: د. فنيس نيقولا

يسوع الذي لم أكن أعرفه

مكتبة دار الكلمة
LOGOS
نشر - توزيع
لدينا حلم

يُسعدنا أن نسمع منك. رجاءً أرسل تعليقاتك حول هذا الكتاب والتي ستنال كل عناية على info@el-kalema.com شكرًا لك

مكتبة دار الكلمة LOGOS للنشر والتوزيع

٠٢٠٢٥٧٩٨٤١٤ ☎ ٠٢٠١٢٧٧٩٢٨٩٨١
٠٢٠١٢٨٦٥٤٨٣٨٨ ٠٢٠١٢٨٢٤٥٦٦٤٤

sales@el-kalema.com www.el-kalema.com

Originally published in the U.S.A. under the title: **The Jesus I never Knew**

Translated by [Seleim Iskaner] Published by permission of Zondervan, Grand Rapids, Michigan

الطبعة الرابعة ٢٠١٣

الطباعة والتنضيد: دار يوسف كمال للطباعة
☎ ٠٢ ٢٤٨٢٧٠٧٤

الفهرسة بدار الكتب المصرية

يانسي، فيليب.
يسوع الذي لم أكن أعرفه/ فيليب يانسي؛ ترجمة: سليم اسكندر؛ مراجعة د. فنيس نيقولا.- ط٢ - القاهرة: مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٠
٣٠٠ ص؛ ١٢× ٢٢سم
تدمك ٥ ٢٠٥ ٣٨٤ ٩٧٧ ٩٧٨
١. يسوع الذي لم أكن أعرفه ٢٧٣,٢
أ. اسكندر، سليم (مترجم)
ب. نيقولا، فينيس (مراجع)
أ. العنوان

رقم الإيداع : ٢١٥٨٦ / ٢٠١٠
ISBN : 978-977- 384 -205-5

المحتويات

قالوا عن هذا الكتاب

من خلال معرفتي الشخصية بفيليب، لمست فيه شخصًا وديعًا، ومبدعًا، ومحبًا لمنطقة الشرق الأوسط. كما أن له قدرة غير عادية للتعبير بصراحة عن المشاكل التي يواجهها كل باحث ومفكر في الأمور الإيمانية.

لقد تأثرت كثيرًا فيما كنت أقرأ هذا الكتاب، خصوصًا بالكم الهائل من الكتب والمراجع التي قرأها الكاتب، والأفلام التي شاهدها حتى يستطيع أن يدرس ويفهم شخصية المسيح بأكثر تدقيق، فكان نتاج هذه الدراسة نظره جديدة ومختلفة لشخصية المسيح عن تلك التي رُسمت في أذهاننا منذ الطفولة.

كما درس الكاتب بعمق تعاليم المسيح، وخصوصًا الموعظة على الجبل، فقدم لنا بُعدًا جديدًا عن الحياة التي يجب أن نعيشها، حياه محورها "أن من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلى يجدها". أنصح بقراءته، فهو كتاب رائع يقودنا فيه الكاتب "لحياه أفضل" محورها محبة أعمق للرب يسوع والحياة بموجب مبادئه.

رامز عطاالله ـــ مدير دار الكتاب المقدس- مصر

من يا ترى هذا الإنسان الغريب الذي شطر التاريخ إلى شطرين : ما قبل الميلاد وما بعد الميلاد؟...

هذا هو السؤال الذي طرحه على نفسه فليب يانسي في بداية مسيرته الروحية بقوله: "إن الميلاد كان بالغ الأهمية لدرجة أنه قسم التاريخ إلي جزئين ... إن كل شيء يحدث على هذا الكوكب يمكن تقسيمه إلي قبل المسيح وبعد المسيح " ... كيف أن هذا النجار البسيط

الذي عاش ثلاثين سنة في قرية بسيطة ولم تتجاوز مدة رسالته ثلاث سنوات .. كيف أن هذا الإنسان الحافي الرجلين الذي لم يملك قصورا ولا جيوشا و لا قدرة ولا سلطة إلا تلك القدرة الفوقية التي كانت تملئه وتملأ كل من يسمعه ويتبعه ... وتلك السلطة الروحية التي جعلته يطيء تحت قدميه قوى الشر والجحيم ويجذب إلى ذاته الشعوب والجماهير .. من ضعفاء وأقوياء .. وكبار وصغار .. وبسطاء وعلماء ؟ ...

هذا هو السؤال الملح المضني الذي طرحه فليب يانسي على نفسه والذي قلب حياته رأسا على عقب وجعله يكتب هذه الشهادة النابضة بالصدق والحب والحياة.

الأب هنري بولاد اليسوعي

كلما دققنا النظر في كلمة الله (الكتاب المقدس)، فإننا نتعلم دائمًا شيئًا جديدًا عن يسوع. "شكرًا لك" فيليب يانسي؛ لأنك لفتَّ نظرنا إلى الطريق من خلال كتابك الجديد....

(جوني إيركسون. رئيسة منظمة J.A.F)

عرفت فيلبي يانسي لما يزيد عن عشرين عامًا، أظهر خلالها حبًا عميقًا وجوعًا شديدًا نحو المسيح. وأفضل أن أقرأ كلماته عن يسوع قراءة كلمات أي كاتب معاصر آخر، لأنني أعرف أنه يتحدث عن معرفة عميقة، ومشاعر جياشه.

(تيم ستافورد)

هذا أفضل كتاب قرأته عن يسوع حتى الآن، بل لربما يكون أفضل كتاب عن يسوع في هذا القرن. لقد ساعدني "فيليب" في إزاحة الغمامة التي كانت على عيني، بسبب مخاوفي المثيرة للشك حتى رأيت المخلص بطريقة جديدة، وأعتقد أنني سمعته يسألني: "والآن من تقول أني أنا..؟" وفهمت الموضوع كما لم أفهمه من قبل.

(لويس سميذر – أستاذ بمعهد فوللر اللاهوتي)

في هذا الكتاب، تحدث فيليب يانسي عن نفسه، وركز على شخص المسيح، ربما أكثر من ذي قبل. لقد تذكر خبرات طفولته بكنيسته كتابي وتاريخي صادق عن "من كان يسوع ... هذا في الماضي، ومن هو الآن؟. ومن خلال نظرته الأمينة يصبح يسوع إنسانًا وإلهًا، وحاضرًا بقوة في الكتاب المقدس وفي حياتنا. إن هذا التسلسل—من نظرة للرب كانت ضيقة للغاية، إلى المواعيد الموجودة في الإنجيل وإلى حضوره الواضح والمبارك—الذي هو الهدية الحقيقية بكتاب يانسي. كم أنا مدين له بسبب هذه الهدية.

(والتر وانجرين)

فيليب يانسي لا يُعتبر أنه يقول الحقيقة دائمًا فقط، ولكنه يتتبعها بولع شديد.

(فيرجينيا ستم أوينز – كلية كانسس نيومان)

يأخذ يانسي القارئ معه في رحلته الشخصية إلى يسوع. وبعد قراءتي للكتاب، اقتنعت أن يسوع الذي التقيت به كان يعرفني على الدوام. إنني أنصح بقراءة هذا الكتاب القيم لكل من يبحث عن المسيح، وبعد أن يقرأه يعطيه لمن تقابلوا معه، ولكنهم يشتاقون لكي يعرفوه أكثر.

(اليزا مورجان – رئيسة MOPS الدولية)

يعلم يانسي في هذا الكتاب، القارئ ويحثه على أن يدقق النظر أكثر في يسوع الموجود في الإنجيل، وفي حبه لنا. وهو بذلك يساعدنا لأن نكتسب نظرة جديدة لما تعنيه العبارة: أن نكون "تابعين للمسيح". حتى أولئك الذين يعتقدون أنهم يعرفون المسيح جيدًا سيجدون معلوماتٍ ومعانٍ جديدةً في هذا الكتاب الرائع.

(ديل هانسون بورك)

بأسلوبه الفريد، والذي يتسم بالتحدي، يخترق فيليب يانسي الآراء المقلوبة التافهة لكي يعطينا تريًّا * قويًا ليسوع المفترى عليه، وللصور غير الملائمة عنه، لكي يكشف لنا عن الحقيقة المعقدة وتأثير يسوع الناصري في الحياة. إنه كتاب جديد ومفيد.

(روبرتا هيستنيز – رئيسة كلية إيسترن)

إن ميل يانسي للأمانة في كتابة الحقائق العميقة والحيوية والكاملة عن الأرضيات، يعطى قوة فائقة لتلك الحقائق الروحية الإنجيلية عن يسوع المسيح. فعندما كانت الحقائق الأدبية عن يسوع تحوي الكثير من البدع، كانت كتابات يانسي تُعطي معونة كبيرة لرؤية المخلص كما هو حقيقة.

(جيمس أ. بيكر – كلية ريجنت)

لا يوجد كاتب في عالم الكنيسة الإنجيلية، أعجب به وأقدره أكثر من يانسي.

(بيللي جراهام)

* التريق: شربة أو أكلة على الريق (المعجم الوجيز).

القسم الأول

من كان هو...؟



يسوع الذي اعتقدت أني أعرفه.. !

"لنفترض أننا سمعنا عن شخص غير معروف يتحدث عنه الكثير من الناس.. ولنفترض أننا وقعنا في حيرة عندما سمعنا أن بعض الناس قالوا أنه كان طويلاً جدًا، والبعض الآخر قالوا أنه قصيرًا جدًا. ويعترض البعض على بدانته، ويرثي البعض الآخر على نحافته.. ظن البعض أنه أسمر، والبعض الآخر أنه أشقر. هناك تفسير يقول: أنه قد يكون غريب الشكل، ولكن هناك تفسير آخر يقول: أن شكله مناسب.. باختصار، لربما يكون هذا الشيء الذي تراه غير عادي، وهو في الحقيقة قد يكون شيئًا عاديًا، على الأقل الشيء الطبيعي من وجهة نظر الكثيرين"

ج. ك. شيسترون



يسوع الذي اعتقدت أني أعرفه!

تعرفت على يسوع عندما كنت طفلاً، حينما كنت أرنم: "يسوع يحبني" في مدرسة الأحد. وعندما كنت أصلي قبل النوم قائلاً: "ربي يسوع العزيز"، وعندما كنت أشاهد مدرسي نادي الكتاب المقدس، وهم يحركون صور القصص الكتابية على اللوحة الوبرية. كما صادفته أيضًا وأنا آخذ الحلوى والنجوم الذهبية، كمكافأة على حضوري المنتظم.

وأتذكر صورة زيتية في مدارس الأحد كانت معلقة على حائط أسمنتي. كانت ليسوع بشعر طويل منساب يختلف عن شعر أي رجل آخر عرفته. وكان وجهه نحيلاً ووسيمًا، وبشرته كانت بيضاء لامعة. وكان يرتدي ثوبًا قرمزيًا، وقد بذل الفنان جهدًا واضحًا ليُظهر أثر الضوء على ثناياه. وكان يحتضن على صدره حملاً صغيرًا نائمًا، وكنت أتخيل نفسي مكان هذا الحمل، فكنت أشعر بسعادة لا يُعبّر عنها أي كلام.

وفي الفترة الأخيرة قرأت كتابًا لتشارلز ديكنز يلخص فيه حياة يسوع المسيح للأطفال. وفي هذا الكتاب تظهر للعيان صورة لمربية رائعة من العصر الفيكتوري، وهي

تربت على رؤوس الأولاد والبنات وهي تنصحهم قائلة: "والآن، يا أولاد يجب أن تكونوا لطفاء مع ماما وبابا". وبدأت أستعيد صورة مدارس الأحد عن المسيح والتي كبرت مع تلك الصورة التي في مخيلتي، صورة شخص عطوف يُعيد طمأنينتنا، ولا ينفعل مطلقًا—مثل مستر روجرز قبل برامج الأطفال في التلفزيون.

وفيما بعد، وعندما انتظمت للدراسة بكلية اللاهوت، واجهتني صورة مختلفة—وهي صورة شائعة في تلك الأيام—رسمت يسوع ويداه ممدوتان، وهي معلقة فوق مبنى الأمم المتحدة بمدينة نيويورك. وهنا رأيت يسوع الذي يحتضن الكون، ويحتضن كل شئ، فهو المركز الذي يدور حوله كل العالم. هذه الصورة العالمية جاءت عبر طريق طويل إلى مخيلتي من أيام طفولتي، عن يسوع الراعي، الذي كان يحتضن الحمل.

ومازال الطلبة يتحدثون عن يسوع الذي يحتضن الكون كله بمودته المؤثرة. لقد شجعتنا الكلية لأن ننمي في داخلنا علاقة شخصية مع الرب يسوع. وفي خدمات كنيسة الكلية رنمنا عن محبتنا له بعبارات مألوفة. كانت إحداها تعبر عن المسير بجواره في حديقة حيث قطرات الندى مازالت على الورود. وكان الطلبة يشهدون عن إيمانهم يتحدثون مصادفة بعبارات مثل "أخبرني الرب ..." وفي ذلك الحين كان إيماني يتسم بنوع من الشك أثناء إقامتي فى الكلية فكنت حذرًا ومتحيرًا ومتسائلاً.

وحين أستعيد سنوات الدراسة بكلية دراسة الكتاب المقدس؛ أرى أنني—بالرغم من كل فترات التكريس التي تتسم بالألفة—فإن يسوع ظل بعيدًا عني هناك. لذا؛ فقد أصبح موضوعًا للفحص والتفكير. وتذكرت قائمة الأربع والثلاثون معجزة بالأناجيل، ورغم ذلك لم أتذكر تأثير آية واحدة منها عليّ. لقد حفظت التطويبات عن ظهر قلب، ولكني لم أواجه حقيقة أنه لا يوجد أحد منا—وأنا أول الجميع—يستطيع أن يفهم هذه الأقوال المكتنفة بالأسرار،

ناهيك عن أن يعيش بمقتضاها.

وبعد فترة وجيزة ــ في العشر سنوات ما بين ١٩٦٠- ١٩٧٠ ــ بدأت أتساءل عن كل شئ. فيسوع هذا الشخص، غير العادي ــ والذي لم يكن يثير انتباهي قبل الآن ــ بدأ يظهر لي فجأة في المشهد، فلم يعد أتباع يسوع هم الطائفة المستضعفة من الطبقة المتوسطة، فقد بدأ اللاهوتيون المتحررون يضعون صورة يسوع على ملصقات عرباتهم، جنبًا إلى جنب مع صورة "فيدل كاسترو" و "شي جيفارا".

واتضح لي واقعيًا أن صور يسوع بما فيها صورة الراعي الصالح بمدارس الأحد، أو صورة يسوع على مبنى الأمم المتحدة، أو صورة يسوع بكلية دراسة الكتاب المقدس التي كانوا يرسمونها بشارب ولحية ــ وهذا ما كان ممنوعًا تمامًا بالكلية. وبدأ سيل من الأسئلة التي لم أكن أفكر فيها في طفولتي مثل: كيف صلب الناس الرجل الذي يطلب منهم أن يلتزموا بالسلوك الشريف؟ أيَّة حكومة تنفذ حكم الإعدام في مستر روجرز، أو كابتن كنجارو؟ لقد قال توماس باين: "لا يمكن أن تكون هناك ديانة إلهية حقيقية تحتوي على أي مبدأ يسيء لمشاعر وأحاسيس طفل صغير". هل يُفوض الصليب بعمل مثل هذا؟

في عام ١٩٧١ شاهدت لأول مرة فيلم "الإنجيل بحسب القديس متى" أخرجه المخرج الإيطالي بييرباولو باسوليني Pier Paolo Pasolini. وتسبب الإذن بعرضه في فضيحة. ليس فقط للمؤسسة الدينية التي شاهدت يسوع على الشاشة، ولكن أيضًا لمجتمع السينما، الذي يعرف أن باسوليني شيوعي وشاذ جنسيًا. لقد أهدى باسوليني الفيلم للبابا يوحنا الثالث والعشرين، الرجل الذي كان مسئولا بطريقة غير مباشرة عن إنتاجه. وفي إحدى المرات حبس باسوليني، أثناء زيارته لفلورنسا، بسبب زحام مروري شديد، أثناء زيارة البابا لفلورنسا، مما ألجاه إلى البحث عن غرفة في فندق قريب، وهناك وجد نسخة من العهد الجديد على منضدة بجوار السرير، وقرأ الإنجيل بحسب البشير

متى. إن الذي اكتشفه في هذه الصفحات أدهشه، حتى أنه قرر إخراج فيلم جديد دون الاستعانة بأي نصر آخر، غير الكلمات المذكورة في إنجيل متى.

لقد أعاد فيلم باسوليني الجديد تقديم صورة يسوع التي ظهرت في الفيلم السابق، في الستينيات. وقام بتصوير الفيلم في جنوب إيطاليا—بميزانية مضغوطة إلى أبعد حد—حيث تتشابه البيئة هناك مع تلك التي عاش فيها المسيح بفلسطين. وفي الفيلم ارتدى الفريسيون غطاء رؤوسهم العالي، وكان جنود هيرودس يشبهون فرقة من الفاشيين. ومثَّل التلاميذ مثل الجنود الجدد قليلي الخبرة. أما يسوع نفسه فكان شجاعًا ذو نظرات ثابتة وحادة. وكان ينطق الأمثال والأقوال في جمل قوية وهو ينتقل من مكان لآخر.

يمكن فهم مدى تأثير فيلم باسوليني من خلال شخص اجتاز مرحلة المراهقة التي تتسم بالاضطراب النفسي. فلقد كان للفيلم قدرة على تهدئة الجمهور المستهزئ في مسارح الفن. وأدرك الطلبة التقدميين أنهم ليسوا أول من أعلن رسالة ضد المادية، والنفاق، وتأييد السلام والحب.

بالنسبة لي، لقد كان للفيلم قوة، جعلتني أعيد تقييم صورة المسيح في نظري. لقد أحب كل الذين طردتهم كلية اللاهوت، ورفضتهم معظم الكنائس مظهر يسوع الجسماني. أما بين معاصريه فقد اشتهر بأنه يعاقر الخمر، أولئك الذين كانوا في السلطة، سواء كانت دينية أو سياسية، فإنهم اعتبروا يسوع كإنسان مثير للمشاكل، ومقلقل للسلام. لقد كان يسير ويتحدث كثوري ساخرًا من الشهرة والعائلة، والملكية الخاصة، ومقاييس أخرى تقليدية للنجاح. لا أستطيع أن أتفادى حقيقة أن كلمات فيلم باسوليني قد أخذت تمامًا من إنجيل متى، ورغم هذا فإن رسالتها لم تناسب فكرتي السابقة عن المسيح.

في نفس الوقت، كتب بيل ميليكان Bill Milliken كتابًا بعنوان "وداعًا يا يسوع الحلو" ولقد غيرت كلمات عنوان هذا الكتاب أشياء بداخلي. وفي ذلك الحين عملت محررًا

لمجلة "الحياة الجامعية" life Campus وهي الإصدار الرسمي "لشباب من أجل المسيح". وبدأت أتساءل: **"من يكون يسوع؟"، ولأنني كنت أكتب وأحرر ما كتبه الآخرين، بدأ نوع من الشك يحيط بحياتي. هل تصدق ما تكتبه؟ أم أنك تفعل هذا لأنك تأخذ أجرك؟**

وبدأت أتجنب الكتابة مباشرة عن يسوع.

عندما فتحت الكمبيوتر في الصباح، قرأت ما يلي: "مهما كان اعتقادك في يسوع، فإن ميلاده كان بالغ الأهمية لدرجة أنه شطر التاريخ إلى جزأين. إن كل شئ يحدث على هذا الكوكب يمكن تقسيمه إلى ما قبل المسيح أو ما بعد المسيح.

وفي عام ١٩٦٩ امتلأ الرئيس الأمريكي نيكسون بالإثارة عندما نزل رواد الفضاء بالمركبة أبوللو على سطح القمر ــــ صاح الرئيس قائلاً: "إن هذا هو أعظم يوم منذ بدء الخليقة". ولكن الواعظ الشهير بيلي جراهام ذكره بعيد الميلاد وعيد القيامة. لقد كان بيلي جراهام محقًا بكل المقاييس التاريخية، فهذا الجليلي أدخل مجال القوة في التاريخ، والآن فإن ثلثي سكان الأرض يدينون له بالولاء.

الآن يستخدم الناس اسم يسوع في الاستغاثة*، فهل يستغيث رجل أعمال حين يفقد عصاة الجولف الخاصة قائلاً: "آه، يا توماس جيفرسون"، أو حين يصاب سباك صحي في إصبعه من جراء جرح في أثناء عمله فيصرخ قائلاً: "آه يا مهاتما غاندي". فهذا يعني بأننا لا نستطيع أن نتجاهل هذا الإنسان الذي يستغيث باسمه الناس، وبمختلف طبقاتهم، والذي يدعى يسوع.

****

منذ أكثر من ١٩٠٠ سنة قال المؤرخ هـ. ج ويلز: "إن مؤرخًا مثلي، لا يسمي نفسه مسيحيًا، يجد أن كل التركيز، وبشكل لا يُقاوم، موجه إلى حياة شخصية أهم إنسان. إن المؤرخ يقيس عظمة الأشخاص بما تركوه لينمو

* يستخدم الناس في الغرب اسم يسوع- حتى غير المسيحيين في الاستغاثة، أو في عبارات التعجب، والدهشة.

ويكبر؟، هل جعل الناس يفكرون فيه بحماس أو بالقدر الذي يُتذكرون بعد موتهم؟ وبهذا المقياس يكون يسوع في المقدمة". ويمكنك قياس حجم السفينة التي عبرت عندما ترى قدر المياه والأمواج الذي تحركها خلفها.

وبالرغم من ذلك؛ فأنا لا أكتب كتابًا عن يسوع لأنه رجل عظيم، غيَّر التاريخ. فليست لدى أي رغبة للكتابة عن يوليوس قيصر، أو إمبراطور الصين الذي بنى السور العظيم. ولكنني منجذب إلى يسوع بطريقة لا تقاوم لأنه هو الذي أحدث نقطة التحول في حياتي. قال يسوع: "إن من يعترف بي أمام الناس سوف يعترف ابن الإنسان به أمام ملائكة الله الذي في السموات". وطبقًا لذلك؛ فإن اعتقادي عنه، وكيفية تجاوبي معه، سوف يقرران مصيري الأبدي.

أحيانًا أقبل أقوال يسوع الجريئة بدون تساؤل. وأحيانًا أخرى أعترف أنني متعجب: **ما الفرق الذي سيحدث في حياتي عند تعرفي على رجل عاش منذ ألفي عام في مدينة الجليل؟ هل في استطاعتي أن أجد حلاً لهذا التوتر الداخلي بين الشك والحب؟**

إنني أميل للكتابة كوسيلة لمواجهة شكوكي الخاصة. فعناوين كتبي هي: "أين الله في وقت الألم"، و"خيبة الأمل مع الله" تكشفني، وأعود مرة أخرى لنفس الأسئلة كما لو أني أشير إلى جرح قديم لم يندمل بعد. هل الله يهتم بالبؤس الحادث اليوم؟ هل لنا أهمية عند الله؟

في إحدى المرات، ولمدة أسبوعين، حوصرت بالثلوج في كابينة على جبل بولاية كولورادو. فقد أغلقت العاصفة الثلجية كل الطرق ولم يكن أمامي ـــ مثل باسوليني ـــ إلا قراءة الكتاب المقدس. وقرأت ببطء الصفحة تلو الأخرى. وفي العهد القديم وجدت نفسي أمام أولئك الشجعان الذين وقفوا أمام الرب: موسى، وأيوب، وإرميا، وحبقوق، وكتّاب المزامير. وأثناء استرسالي في القراءة تملكني شعور بأنني أشاهد مسرحية يمثل فيها أناس انتصروا قليلاً وعانوا كثيرًا ولا يمكنك رؤية المخرج. "أنت لا تعرف ما

يجرى هنا" يتهم أيوب الرب قائلاً: "أَلَكَ عَيْنَا بَشَرٍ، أَمْ كَنَظَرِ الإِنْسَانِ تَنْظُرُ؟" (أيوب ١٠: ٤).

وبين فينة وأخرى يمكنني سماع صدى صوت بعيد على المسرح خلف الستار يقول: "أنت لا تعرف ما يجري هنا"، ويقال هذا لموسى وللأنبياء وبصوت مرتفع كما يُقال لأيوب. وعندما رجعت للأناجيل بدأ صوت التساؤل والاتهام يَخفت. إن يسوع نفسه قد جرب الحزن بنفسه في حياة قصيرة مملوءة بالمتاعب في السهول الترابية التي عانى فيها أيوب. ومن بين الأسباب الكثيرة للتجسد يمكن أن يكون لكي يجاوب على اتهام أيوب "أَلَكَ عَيْنَا بَشَرٍ، أَمْ كَنَظَرِ الإِنْسَانِ تَنْظُرُ؟" لقد فعل الله هذا لفترة من الوقت.

وأحيانًا أخرى ينتابني التفكير: **ليتني أستطيع سماع صوته من العاصفة كأيوب وأجري حديثًا مع الله نفسه.** وربما لهذا السبب أختار الآن ان أكتب عن يسوع. الله ليس صامتًا فالكلمة (يسوع) تحدّث ليس من عاصفة ولكن من حنجرة إنسانية لفلسطيني يهودي. وفي شخص المسيح وضع الله على طاولة التشريح ممدودًا للصلب لكي يُعيد الأمان لكل من يشك عبر الأجيال بمن فيهم أنا.

رؤية المسيح التي تراها
هي أكبر عدو لرؤيتي:
فرؤيتك كأنف معقوف مثلك،
أما رؤيتي فلها أنف أفطس مثل أنفي.
كلانا يقرأ الإنجيل ليلاً نهارًا،
ولكنك تقرؤه أسود بينما أن أقرؤه أبيض.

وليم بالاك William Balake

بينما أفكر في يسوع، يتبادر إلى ذهني تشبيه قاله "كارل بارث" Karl Barth: "رجل يقف بجوار شباك وهو يتطلع إلى الشارع، رأى في الخارج أناسًا يغطون عيونهم بأيديهم من شدة الضوء وينظرون إلى السماء. ولأن أمامه مبنى مرتفع لم يستطع الرجل الواقف بجوار الشباك أن يرى ما يُشير إليه الناس في الشارع". أما نحن الذين نعيش ألفي

سنة بعد المسيح نستطيع أن نرى المنظر ولكن ليس كما يراه الرجل الواقف بجوار الشباك. فنحن ندرس إيماءات وكلمات الأناجيل والأسفار الكتابية. ورغم هذا فلن تستطيع أي دراسة أن تعطينا مجرد لمحة عن يسوع وهو في الجسد.

لهذا السبب، فكما تُعبر قصيدة وليام بالاك تعبيرًا جيدًا، ففي بعض الأحيان—فإن البعض منا الذين ينظرون ليسوع—لا يمكن أن يروا أبعد من أنوفهم. فمثلاً، قبيلة لاكوتا تُشير إلى يسوع كفتى الله الغِرّ. ووزعت الحكومة الكوبية صورة ليسوع ومعه بندقية صغيرة على كتفه. وفي أثناء الحروب الدينية مع فرنسا، اعتاد الإنجليز أن يصرخوا قائلين: "البابا فرنسي أمَّا يسوع المسيح فإنجليزي"!

ويشوه الدارسين المحدثين الصورة أكثر، فإذا تمعنت في الكتب الأكاديمية الحديثة في مكتبة معهد لاهوتي فبإمكانك أن ترى يسوع كسياسي ثائر، أو كساحر تزوج من مريم المجدلية، أو جليلي كارزماتي، أو معلم يهودي، أو كفلاح يهودي، أو كفريسي، أو كمقاوم للفريسيين، أو كنبي يؤمن بالآخرة... لقد كتب هذه الكتب علماء جادون إلا أنه من الواضح البين يظهر في كتابتهم الارتباك والحيرة في فهم شخصية يسوع*.

كما أن الرياضيين أتوا أيضًا بصورة عن يسوع تخالف الصورة السابقة. فكتب نورمان إيفانز في كتابه "جماعة الله" يقول: "أؤكد لكم أن يسوع هو أقوى شاب لعب هذه المباراة، ولو كان يعيش اليوم فإنني أتصور أن يكون طوله ٦ أقدام و٦بوصات وزنه ٢٦٠ رطلا وسيكون مدافعًا بارعًا". أما فرتز بترسون—وهو أحد أبناء نيو

* تتجاهل الجماهير الأمريكية مثل هذه الصور التي تميل لهذا الاتجاه. فلقد كشف تقريرًا لمعهد دالوب أن ٨٤٪ من الأمريكيين يؤمنون أن يسوع المسيح هو الله أو ابن الله. ومعظم الأمريكيين يؤمنون أن يسوع بلا خطية وشجاع، ومستقر عاطفيًا. وقليلون منهم ينظرون إليه على أنه من السهل فهمه، وأنه قوي البنية وجذاب، عملي، ودافئ ومقبول.

إنجلاند بالولايات المتحدة الأمريكية ــ فيتخيل يسوع في زي لاعب بيسبول ــ كرة القدم الأمريكية ــ قائلاً: "لديَّ اعتقاد أكيد بأن يسوع المسيح لو لعب فإنه سيطرح أرضًا اللاعب الأساسي في الجانب الأيسر من الملعب لكي يحطم ركلته المزدوجة. وأن المسيح سوف يلتزم، في طريقة لعبه، بكل القوانين الرياضية".

وفي وسط مثل هذا التشويش كيف نُجيب على السؤال البسيط **"من يكون يسوع؟"** يعطينا التاريخ العالمي بعض المفاتيح القليلة. وفي سخرية لاذعة، فإن الشخص الذي غيّر التاريخ أكثر من أي شخصية أخرى غاب عن انتباه العلماء والمؤرخين في عصره. وحتى كُتَّاب الأناجيل الأربعة لم يدونوا الكثير عنه ــ الذي كان من الممكن أن يثير اهتمام القراء ويفيدهم ــ فلم يكتبوا حوالي تسعة أعشار حياته. ولأنهم لم يكتبوا كلمة واحدة عن وصفه الجسماني فلا نعرف شيئًا عن شكله، أو قوامه، أو حتى لون عينيه. وحتى تفاصيل حياته العائلية قليلة جدًا، حتى إن الدراسين مازالوا يتجادلون عما إذا كان ليسوع إخوة وأخوات أم لا. إن حقائق تاريخ حياته الشخصية التي تعتبر ضرورية للقارئ الحديث لم تشغل اهتمام كُتَّاب الأناجيل.

وقبل أن أبدأ في كتابة هذا الكتاب، أمضيت عدة شهور في ثلاث مكتبات: واحدة كاثوليكية، والثانية بروتستانية متحررة، والثالثة مشيخية محافظة، لأقرأ عن يسوع. واندهشت للغاية عندما رأيت في اليوم الأول ليس فقط بعض الأرفف، ولكن حوائط كاملة مخصصة لكتب عن يسوع. وقد قدَّر أحد علماء جامعة شيكاغو، عدد الكُتب التي كُتِبَت عن يسوع في العشرين سنة الأخيرة، فوجد أنها تفوق ما كُتِبَ في التسعة عشر قرنًا الماضية. وشعرت أن التعليق المذكور في نهاية إنجيل يوحنا حقيقي إذ قال: "وَأَشْيَاءُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ، إِنْ كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَالَمَ نَفْسَهُ يَسَعُ الْكُتُبَ الْمَكْتُوبَةَ" (يوحنا ٢١: ٢٥)

لقد قرأت عشرات من التقارير عن الأصل اللغوي والتاريخي لاسم يسوع، ومناقشات عن اللغات التي كان

يتحدث بها، ومناظرات عن المدة التي عاشها في الناصرة، أو كفرناحوم، أو بيت لحم. وينتابني الشعور بأنِ المسيح نفسه سوف يصاب بنوع من الدهشة من كثرة ما كُتب عنه لتصوير حياته.

وأمام إصراري على المعرفة وجدت أنني عندما أعود إلى الأناجيل أجد نوعًا من الضباب في محتوياتها. كتب جي. ب. فيليبس J. B. Phillips بعدما ترجم الأناجيل: "لقد قرأت باللاتينية واليونانية العديد من الأساطير ولكني لم أجد أية إشارة لأسطورة هنا (في الأناجيل).... ولن يستطيع أي إنسان أن يكتب مثل هذه الأوصاف الطبيعية التي تكون عرضة للأشياء ما لم تكن هناك بعض الأحداث الحقيقية ورائها".

وبعض الكتب الدينية يمكن أن تشتم منها رائحة الدعاية، إلا أن هذا لا نجد له أي أثر في الأناجيل. لقد سجل البشير مرقس ما يُعتبر أهم حدث في التاريخ كله، حدث يحاول اللاهوتيون أن يترجموه بكلمات مثل موت المسيح عن خطايا البشر، أو التوبة، أو الذبيحة، وسجلها مرقس في جملة واحدة وهي: "فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح". وهناك مشاهد غير معقولة يصعب تصديقها مثل: أن أسرة يسوع وجيرانه حاولوا أن يبعدوا عنه، بدافع الشك في قواه العقلية. وإذا كنت تكتب عن تاريخ حياة شخص، لماذا تدون مثل هذه المشاهد؟ حتى أتباع يسوع وأقرب المقربين له بدؤوا يتساءلون "من يكون هذا الشاب؟" وهم مصابون بالحيرة أكثر من أن تكون هذه مؤامرة ضده.

وعندما تحدوا يسوع لم يقدم لهم أية براهين قاطعة عن حقيقة شخصيته، مع أنه قد ذكر بعض الأمور التي تدل على شخصيته، إلا أنه في نفس الوقت، عندما سألوه عن دليل ذلك، قال: "طوبى لمن لا يعثر فيَّ". ولكننا سوف نتعثر عند قراءة بعض التقارير حول هذا الموضوع. ويبدو لي أن كل النظريات المنحولة عن يسوع، والتي ظهرت بطريقة تلقائية منذ يوم وفاته، تؤكد المخاطر المخيفة التي

اتخذها الله ليتجسد، إلا أنه في ذات الوقت، تؤكد على أنه رحَّب بهذه المغامرة.

يفتتح الفيلم الإيطالي La Dolce Vita بلقطة لطائرة هليوكبتر وهي تنقل تمثالاً ليسوع إلى روما. امتدت الأذرع والتمثال معلق بحبل بالطائرة، وهي تمر فوق المناظر الطبيعية. وبدأ الناس يتعرفون على التمثال. وإذ بفلاح يترك الجرار الذي يعمل عليه، ويجري عبر الحقل وهو يصرخ: "إنه يسوع". وبالقرب من روما حيث الفتيات اللاتي يرتدين البكيني، يأخذن حمام شمسي حول حمام السباحة، يلوحون بأياديهن ويُحين التمثال. ويقترب الطيار لكي يعطي منظرًا قريبًا ليسوع. إن يسوع الحقيقي يحوم فوق العالم الحديث اليوم في سكون، وترتسم على وجهه تعبيرات الحزن.

لقد اتخذت في بحثي عن يسوع اتجاهًا جديدًا، عندما أقرضني المنتج مل هوايت خمسة عشر فيلمًا عن حياة يسوع. منها فيلم "ملك الملوك"، وذلك الفيلم الصامت الذي أخرجه سيسل دي ميل عام ١٩٢٧، وكذلك أفلام موسيقية مثل فيلم God spell وcotton patch gospel إلى الفيلم الفرنسي الكندي الحديث "يسوع مونتريال". ولقد شاهدتهم بعناية ملخصًا إياهم مشهدًا مشهدًا. وفي السنتين التاليتين قمت بالتدريس لفصل عن حياة يسوع مستخدمًا هذه الأفلام كمادة للمناقشة. واتبعت الطريقة التالية في التدريس. عندما نأتي إلى حادثة هامة في حياة يسوع أبحث عنها في الأفلام، وأختار سبع أو ثماني معاملات وأعرضها في بضع دقائق مبتدئًا بالمشاهد المرحة ثم بالأكثر جدية. ووجدنا أن رؤية نفس الحادثة بأعين سبعة وثمانية مخرجين ساعد في إزالة غشاوة التنبؤ التي تكونت لعدة سنوات في مدارس الأحد وفي دراسة الكتاب المقدس. فمن الواضح أن بعض الترجمات في الأفلام كانت خاطئة ومتناقضة. وبعد نهاية عرض الأفلام نرجع إلى الأناجيل، ونبدأ في الحوار.

وكان هذا الفصل الدراسي يجتمع في كنيسة La salle stseet في شيكاغو، وكان يشتمل على رجال لا مأوى لهم الذين كلما قضوا هذه الساعة في غرفة دافئة كانت فرصة لهم للنوم.

وبفضل هذا الفصل الدراسي بدأت أجتاز عملية تغيير تدريجية في نظرتي ليسوع. قال والتر كاسبر: "إن الأفكار العامة المتطرفة ترى الله في صورة بابا نويل، أو كشخص يرتدي ملابس خشنة لكي يصلح عالم مُحطم. أما تعليم الكتاب والكنيسة بأن يسوع هو إنسان كامل، له عقل إنسان، وحرية إنسان، فلم تعرف أو تنشر في المفهوم المسيحي العادي. بل إن هذا التعليم لم يخطر على ذهني، أنا شخصيًا، حتى قمت بالتدريس في الفصل، السابق ذكره، وبدأت أواجه شخصية يسوع التاريخية.

لقد ساعدت هذه الأفلام أن تحيي لي إنسانية يسوع بطريقة أساسية. وقانون الإيمان، الذي يُردد في الكنائس، يخبرنا عن الحياة الأزلية للمسيح، وأمجاده في الأبدية، ولكنه لا يذكر إلا الشئ القليل عن حياته على الأرض، فالأناجيل نفسها كُتبت بعد موت يسوع بسنوات. أما الأفلام فقد ساعدتني أن أعود إلى حياة يسوع كما رآها معاصريه. كيف كنت سأستجيب لهذا الرجل (يسوع)؟ هل كنت سأدعوه على العشاء مثل زكا؟ أم كنت سأذهب بعيدًا عنه حزينًا كالشاب الغني! أم تُرى كنت سأخونه مثل يهوذا أو بطرس؟ بعض الناس الآخرين أثروا تأثيرًا عميقًا في يسوع. لقد وجدت أن يسوع يحمل قليلاً في الشبه بصورة مستر روجرز الذي قابلته في مدارس الأحد، ولا يشبه على نحو لافت للنظر للشخص الذي درسته في كلية اللاهوت، فإنه أقل وداعة بدرجة كبيرة. في الصورة السابقة أدركت أن شخصية يسوع تُماثل شخصية النجم السينمائي Trek Vlcan فإنه كان يبقى هادئًا، بارد الأعصاب، ورابط الجأش عندما كان يمشي بخطى واسعة مثل الإنسان الآلي بين بشر في حالة إثارة على سفينة فضاء أرضية. لقد وجدت أنه من الأفضل ألا تصور الأناجيل والأفلام هذا.

فالعناد أصابه بالإحباط والبر الذاتي أثار غضبه، والإيمان البسيط أثاره. لقد كان يسوع في الحقيقة عاطفيًا وتلقائيًا أكثر من أي إنسان عادي.

وكلما زادت دراستي ليسوع كلما صعب عليَّ أن أضعه في حدود ضيقة. لقد تحدَّث قليلاً عن الاحتلال الروماني، بالرغم من أن هذا الموضوع كان الموضوع الرئيسي في حوارات الناس، في ذلك الوقت، وبالرغم من كل هذا فقد أخذ سوطًا، وطرد الصيارفة من المعبد اليهودي. كان يسوع يحث الناس على طاعة ناموس موسى، بينما أشيع عنه أنه يكسر الناموس، كان يعطف على الغريب ويوبخ أحسن صديق قائلاً له: "اذهب عني يا شيطان"!، ولم تكن له آراء طيبة عن الأغنياء، وفقد علاقته بالنساء الفاجرات، ورغم هذا فقد أحبوا صحبته.

في يوم من الأيام أجرى يسوع العديد من المعجزات، وفي اليوم التالي توقفت المعجزات بسبب عدم إيمان الناس. في يوم ما تحدث بالتفصيل عن مجيئه الثاني وفي يوم آخر يقول أنه لا يعرف اليوم ولا الساعة. هرب مرة من القبض عليه مرة أخرى اتجه إلى الصليب بكل جرأة. تحدث بفصاحة عن صنع السلام ثم أخبر تلاميذه أن يعدوا سيوفهم. إن أقواله عن نفسه جعلته مركزًا للخلافات. ولكن عندما كان يصنع معجزة كان يحاول إخفاءها. وكما قال والتر ونك Walter Wink: "لو لم يكن يسوع قد عاش لما استطعنا اختراعه".

كلمتان لا يستطيع المرء أن يفكر في تطبيقهما على يسوع الأناجيل: ممل أو مُضجر، وممكن التنبؤ به. قال دورثي سايرز Dorothy Sayers: "كيف استطاعت الكنيسة أن تُلطف من حدة هذه الشخصية، وقلمت مخالب أسد يهوذا بكفاءة، وشهدت عنه بأنه منزلي وأليف مع رجال الدين والسيدات العجائز التقيات؟

أصرت المؤرخة باربارا تكمان Barbara Tuchman ـــ الحائزة على جائزة بوليتزر Pulitzer في كتابتها للتاريخ:

"لم يبرز فجأة للأمام". عندما كانت تكتب عن معركة بلج Bulge في الحرب العالمية الثانية، فمثلاً لقد قاومت إغراء أن تشمل كتابتها، طبعًا كلنا نعرف كيف حدث هذا. في الحقيقة، فإن قوات الحلفاء وهي مشغولة في معركة بلج لم تعرف كيف ستنتهي المعركة. من النظر إلى الأمور، فإنهم يمكن أن يُطردوا إلى شواطئ نورماندي من حيث أتوا. إن المؤرخ الجيد يُعيد خلق ظروف التاريخ التي وصفها للقارئ معطياً إياه إحساسًا أنه كان هناك.

إن هذا الذي استنتجته يكوّن المشكلة في كل كتابتنا وتفكيرنا عن يسوع. نحن قرأنا الأناجيل من خلال رؤية المجامع الكنسية، مثل مجمع نيقية، وخلقيدونيا، في محاولة لكي نفهمه.

كان يسوع إنسانًا يهوديًا من الجليل له اسم وعائلة، إنسان مثل أي إنسان آخر. إلا أنه ـــ من ناحية أخرى ـــ كان شخصًا مختلفًا عن أي شخص آخر عاش قبله على وجه الأرض. لقد قضت الكنيسة خمسة قرون من المناقشات النشطة في محاولة المعرفة المتوازنة بين: "هل هو إنسان مثل أي إنسان آخر، أم أنه شخص مختلف"؟ وبالنسبة لنا نحن الذين تربينا في الكنيسة، أو حتى تربينا في ثقافة مسيحية اسمية، فإن الميزان يميل إلى كونه شخصًا مختلفًا. وكما قال باسكال: "لقد واجهت الكنيسة مشقة كبيرة لكي تثبت أن يسوع المسيح هو إنسان للذين أنكروا ذلك، وواجهت أيضًا نفس الصعوبة لكي تثبت أنه الله وأن الاثنين متساويين في العظمة". دعني أوضح أنني أؤكد قانون الإيمان. ولكنني آمل في هذا الكتاب أن أذهب إلى ما وراء هذه الصيغ المحفوظة، وأن أنظر إلى حياة يسوع من تحت على الأرض كواحد من الذين كانوا يتبعونه. كمتفرج، إنني أرجو كما قال لوثر: "أن أجذب يسوع بأقوى ما أستطيع نحو وجوده في الجسد وأجد يسوع". أشعر أحيانًا وكأنني سائح يدور حول تمثال، أثري عظيم فينتابني الخوف وشدة التأثر بما أرى. وأدور حول تمثال يسوع فاحصًا كل أجزائه. قصص ميلاده، وتعاليمه،

ومعجزاته، وأعدائه، وأتباعه، حتى أستطيع أن أفهم هذا الرجل الذي غيَّر التاريخ.

أحاول في هذا الكتاب أن أسرد قصة يسوع وليست قصتي أنا. ورغم هذا فأنا لا أستطيع أن أتجنب ذلك، ففيما أبحث عن يسوع وكأنني أبحث عن ذاتي. لن يتقابل أحد مع يسوع، ويظل كما هو. ووجدت أن الشكوك التي تؤرقني من مصادر كثيرة في العلم، والعقيدة الضعيفة، ومن الخلل المتأصل في الشك، ومن بغضه للكنيسة. كل هذه الشكوك سوف يسلط عليها ضوءًا جديدًا عندما آتي بها إلى هذا الرجل الذي اسمه يسوع.

٢

الميلاد :

الكوكب الذي زاره يسوع

إن رب المجد أثناء انطلاقه
في رداء مجده الملوكي
تحول إلى نور؛ لذلك فإنه يومًا ما
تنازل تاركًا رداءه على طول الطريق.

جورج هربرت *Gorge Herbert*

٢

الميلاد :
الكوكب الذي زاره يسوع

قمت بتصنيف المجموعة الكبيرة من بطاقات الكريسماس التي وصلت بيتنا في عيد الميلاد الماضي، لاحظت أن كل أنواع الرموز قد حددت طريقها للتعبير عن هذا الاحتفال. وكان الرمز السائد في كل البطاقات هو منظر في نيوانجلاند وهي مغطاه بالجليد، وعادة مضافا إليها حصان يجر زحافة. وفي بطاقات أخرى شاهدت حيوانات مرحة مثل الأيائل، والسنجاب، والكاردمينال*، وبعض الفيران الرمادية الجذابة. وبطاقة أخرى عليها أسد أفريقي يمد رجليه الأماميتين محتضنًا حملاً صغيرًا بكل عطف وحنان.

وعادت الملائكة على هذه البطاقات في السنوات الأخيرة، تميزها التحيات الأمريكية، والمخلوقات التي تُغري بالمعانقة، ولا يحتاج هذا النوع لكتابة: "لا تخف". وظهرت بعض البطاقات الدينية التي ركزت على العائلة المقدسة، والتي عندما تنظر إليها لا تستطيع أن تقول: "هؤلاء الناس مختلفون"، إذ يبدو عليهم الهدوء والسكينة، وفي داخل البطاقات تأكيد على كلمات مثل المحبة،

* طائر أمريكي مغرد.

والفرح، والسعادة، والعواطف الدافئة. إنه لأمر جميل أن نحترم مثل هذه المناسبة المقدسة بالتعبير عنها بهذه المشاعر الودودة. ورغم هذا فعندما رجعت إلى ما قاله الإنجيل لأول عيد ميلاد سمعت نغمة مختلفة، وأحسست بشعور بالتمزق في العمل.

تذكرت برنامجًا تليفزيونيًا شاهدت فيه زوجة مسيحية تُدعى هوبي تجادل زوجها اليهودي مايكل بخصوص الإجازة وسألته: "لماذا تهتم بعيد الحانوكا*؟ هل تصدق أن مجموعة صغيرة من اليهود ينتصرون على جيش كبير باستخدامهم فقط بعض المصابيح التي تقولون أنها بطريقة معجزية لم تنطفئ**؟

وانفجر مايكل قائلاً: "وهل تصدقين أنت أن ملاكًا ظهر لفتاة مراهقة، ثم حملت دون أن تمارس الجنس، وسافرت على ظهر حصان إلى بيت لحم حيث أمضت ليلة في مذود البقر، وولدت طفلاً أصبح فيما بعد مخلص العالم؟".

وبصراحة، فإن شكوك مايكل تبدو قريبة لما قرأته في الأناجيل، فلابد أن مريم ويوسف قد واجها العار والسخرية من العائلة والجيران، الذين كان لهم نفس شعور مايكل: "هل تعتقد حقيقة أن ملاكًا قد ظهر..".

حتى أولئك الذين يقبلون هذه الرؤى والأحداث فوق الطبيعية يعترفون أنهم سيواجهون متاعب كثيرة، لقد صلى شخص عجوز من أجل الخلاص من أعدائنا ومن أيدي كل الذين يكرهوننا، وحذر سمعان العذراء على نحو غامض قائلاً: "وَأَنْتِ أَيْضًا يَجُوزُ فِي نَفْسِكِ سَيْفٌ، لِتُعْلَنَ أَفْكَارٌ مِنْ قُلُوبٍ كَثِيرَةٍ" (لوقا ٢: ٣٥). وعندما ترنمت مريم بترنيمة الشكر قالت: "أَنْزَلَ الأَعِزَّاءَ عَنِ الْكَرَاسِيِّ وَرَفَعَ الْمُتَّضِعِينَ . . ." (لوقا ١: ٥٢).

وبمقارنة ذلك بما أرادت بطاقات التهنئة، أن تؤمن به، فإن عيد الميلاد لم يُسهِّل الحياة على كوكب الأرض. وربما هذا ما أحس به عندما يحين موعد عيد الكريسماس، حيث

* عيد يهودي
** في إشارة إلى قصة جدعون في العهد القديم

أتحول من مشاعر الحب المسجلة بالبطاقات، إلى صراحة وقوة الأناجيل.

صور الفن المسيحي العائلة المقدسة على أيقونة، حفرت على الذهب، حيث مريم تتلقى أنباء الإعلان الإلهي بالحمل، كنوع من البركة الخاصة. ولكن لم يخبرنا البشير لوقا بذلك. فقد شعرت مريم بنوع من الضيق والخوف عند رؤيتها للملاك، وعندما نطق الملاك بالكلمات الإلهية عن أنه: "هذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، ٣٣ وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ" كان يدور في تفكيرها أمر آخر: "كَيْفَ يَكُونُ هذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلاً؟".

ذات مرة وقفت أمام كنيستي بشيكاغو محامية شابة غير متزوجة تُدعى سنثيا، وأخبرتنا بجرأة عن خطية ارتكبتها، وكلنا يعرفها، ونعرف ابنها الذي يركض كل يوم أحد في ممرات الكنيسة. لقد تحملت سنثيا بمفردها مسئولية الابن غير الشرعي، بعدما ترك والده المدينة. إن خطية سنثيا لم تكن أسوأ من خطايا كثيرين غيرها، ورغم ذلك، فقد كان لها نتائج واضحة وملموسة. فهي لم تقدر أن تخبئ نتيجة خطية عاطفية واحدة، غيرت كل ساعة وكل يوم في حياتها. لذلك؛ فلا عجب عندما شعرت مريم العذراء بنوع من الضيق، فقد واجهت نفس النتيجة، ولكن بدون أي فعل جنسي أو عاطفي.

في الولايات المتحدة الآن، قرابة مليون فتاة مراهقة تحمل بطريقة غير شرعية، أما حالة مريم فقد كانت أخف وطأة من كل ذلك. ولكن لأنها حدثت في مجتمع يهودي مُتَحفظ، في القرن الأول، فلم يرحبوا ببشارة الملاك، ولم يصدقوا؛ لأن الناموس يعتبر أن الفتاة المخطوبة التي تحمل هي زانية، ومعرضة للرجم بالحجارة.

ويخبرنا البشير متى، أن يوسف خطيبها، أراد تخليتها سرًا إلى أن جاء الملاك، وصحح له أفكاره الخاطئة عن خطيبته مريم. ويخبرنا لوقا البشير أن مريم أسرعت إلى

أليصابات، التي يمكنها وحدها أن تفهم طبيعة ما حدث لها، حيث حملت هي نفسها بطريقة معجزية، وفي هذا السن المتأخر، عندما أعلن لها الملاك ذلك. لقد صدَّقت أليصابات مريم وشاركتها فرحتها. ولكن منظر لقائهما معًا يوضح الفرق بين المرأتين. فكل البلد كانت تحكي وبفرح أن الرب قد نزع عار أليصابات، أما مريم فكانت تحاول أن تخبِّئ عار هذه المعجزة.

وبعد شهور قليلة ولد يوحنا المعمدان وسط أفراح أهل القرية، الذين رحبوا محتفلين بمولد طفل يهودي جديد. وبعد ستة شهور ولد يسوع بعيدًا عن المنزل بدون قابلة، ولم يحتفل به أحد من أهل القرية. هل أخذ يوسف مريم وهي حامل إلى بيت لحم لكي يحميها ويجنبها الشعور بالعار إذا ما ولدت الطفل في قريتها؟

كتب "سي. إس لويس" عن خطة الله قائلاً: "لقد بدأ الأمر كله يضيق ويضيق إلى أن وصل إلى نقطة صغيرة مثل رأس الحربة. فتاة يهودية كانت تصلي. واليوم؛ وأنا أقرأ قصة ولادة يسوع، فإني أرتجف وأنا أفكر في مصير العالم الذي يتوقف على إجابات اثنين قرويين مراهقين (يوسف ومريم). وساءلت نفسي: كم مرة راجعت مريم كلمات الملاك وهي تشعر بابن الله في داخل بطنها وهو يركلها؟ كم مرة فكر يوسف في مواجهته مع الملاك في الحلم؟ وكم احتمل بسبب عار المعيشة وسط القرويين الذين شاهدوا التغيرات التي طرات على شكل خطيبته؟

نحن لا نعرف شيئًا عن أجداد يسوع: "ماذا كان شعورهم؟ هل كانت استجاباتهم مثل كثيرين من والدي المراهقين غير المتزوجين اليوم، والذي يبدأ بثورة غضب أخلاقية ثم يتلوها هدوء، حتى يصل المولود الجديد الذي يذيب الجليد. ويعقد هدنة مع أسرة محطمة؟ أو كما يفعل الكثيرين من الأجداد اليوم الذين يعرضون بسخاء أن يأخذوا الطفل لكي يقيم معهم؟"

مضت تسعة شهور في تفسيرات مربكة وحرجة، وبقيت رائحة الفضيحة؛ لذلك يبدو أن الله قد رتَّب أقسى ظروف

الإذلال الممكنة لمجيئه، كما لو أنه أراد أن يتجنب أي تهمة لحصوله على أي تعاطف وتأييد من البشر. لقد تأثرت كثيرًا عندما أصبح ابن الله إنسانًا، ولم يأبه بقوانين تلك الأيام. علمًا بأن المدن الصغيرة لا تتعامل برقة مع الأطفال الصغار الذين يُشَكّ في أبوتهم.

قال مالكولم ماجريدج الملاحظة التالية: "تقدم عيادات تنظيم الأسرة وسائل مريحة لتصحيح الأخطاء التي قد تسيء إلى اسم الأسرة. إنه لمن المستحيل في ظل الأحوال القائمة أن يُسمح ليسوع بأن يولد. حملت مريم في ظروف فقيرة، ووالد الطفل غير معروف، فكل الظروف تقول أنها تحتاج لعملية إجهاض. وحتى حديثها عن الروح القدس، الذي حل عليها، كان يحتاج لعملية إجهاض. وحتى حديثها عن الروح القدس، الذي حل عليها، كان يحتاج إلى نوع من العلاج النفسي، ومجمل كل هذا، يجعل عملية الإجهاض ضرورية. ولو حدث ذلك لكان جيلنا قد احتاج إلى مخلص آخر لكي يولد".

أما العذراء مريم، فكانت لها إجابات مختلفة، إذ أنها سمعت بشارة الملاك قالت: "هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ". وغالبًا ما يتم عمل الله بطرفي نقيض، إمَا فرح عظيم أو ألم شديد. وفي واقع الأمر كانت استجابة مريم تشتمل على الاثنين معًا، فكانت مريم أول شخص يتقبل يسوع بشروطه الخاصة، بالرغم من التكلفة الشخصية الأليمة التي ستدفعها.

******

عندما ذهب المرسل اليسوعي ماتيو ريكي "Matteo Ricci" إلى الصين—في القرن السادس عشر—أخذ معه عينات من الصور الدينية لكي يوضح القصة المسيحية للناس الذين يسمعونها لأول مرة. فأخذ الصينيون صورًا لمريم العذراء وهي تحتضن طفلها في حنان. إلا أنه عندما عرض لهم صور الصلب، وحاول ان يشرح لهم: كيفية كون الله الطفل الذي كبر لكي يُصلب، ارتعب المشاهدون،

وفضلوا العذراء مريم، بل وأصروا على عبادتها رافضين الإله المصلوب.

عندما عدت مرة أخرى، لبطاقات التهنئة بالكريسماس أدركت أننا في بلادنا المسيحية نفعل نفس الشيء، إذ أننا نختار يوم عطلة لطيف ومقبول من الجميع، وليس به أية إشارة للفضيحة ــــ فضيحة الصليب ــــ وفوق كل ذلك، فإننا نجرده من أي شئ يذكرنا به؛ كيف أن القصة التي بدأت في بيت لحم من أحشائها قد انتهت في الجلجثة.

في قصة الميلاد، في كل من إنجيل لوقا ومتى، أن شخصًا واحدًا قد فهم الطبيعة الغامضة للمسيح. إنه سمعان الشيخ، الذي أدرك أن الطفل هو المسيا، وفهم أنه بمولده سوف تنشأ الصراعات: "ها إن هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل، ولعلامة تقاوم. وأنت أيضًا يجوز في نفسك سيف". لقد شعر سمعان أنه، بالرغم من عدم وجود تغير واضح على السطح فهيرودس يحكم أورشليم بقواته، إلا أن كل شيء تحت السطح يتغير. قوة جديدة وصلت لتُقوّض قوة العالم.

في البداية، لم يكن يسوع يمثل تهديدًا لتلك القوى. فقد وُلِدَ تحت حكم أغسطس قيصر، في وقت انطلق فيه الأمل في الإمبراطورية الرومانية وأكثر من أي حاكم آخر رفع أغسطس قيصر الاستثناءات عن ما يريد القائد أن يحققه، وما يريد المجتمع أن يصل إليه. إنه هو في الحقيقة أول من استعار الكلمة اليونانية "الإنجيل" أو "الأخبار السارة" وطبقها على نظام العالم الجديد الممثل في حكمه. وأعلنت الإمبراطورية أنه هو الله وأقاموا له طقوسًا لعبادته، واعتقد الكثيرون أن نظامه الثابت والمستنير سوف يظل للأبد كحل أخير لمشكلة الحكومة.

وفي نفس الوقت، في ركن ناءٍ من إمبراطورية أغسطس، أغفل مؤرخو ذلك الزمان تسجيل مولد طفل يُدعى "يسوع". ونحن نعرف عنه من خلال أربعة كُتب كُتِبَت بعد عدة سنوات من موته في وقت كان نصف في المائة من العالم الروماني يسمعون عنه، وقد استعار كُتَّاب

سيرة المسيح كلمة "الإنجيل" معلنين عن نوع مختلف، نظام عالمي جديد تمامًا. وذكروا أغسطس مرة واحدة، عند تسجيل الإحصاء الذي أكد أن يسوع ولد في بيت لحم.

كشفت الأحداث الأولى في حياة يسوع عن تهديد لمعركة قادمة. فلقد وضع هيرودس ملك اليهود القانون الروماني في موضع على المستوى المحلي. ومن سخرية التاريخ نذكر اسم هيرودس مقترنًا بمذبحة للأطفال الأبرياء. ورغم هذا كله، فلم أجد بطاقة تهنئة في عيد الميلاد تُسجل هذه الحادثة المؤلمة،وبرغم أنها كانت جزءًا من مجئ المسيح. ومع أن التاريخ المدني لا يشير إلى وحشية هيرودس، فإن أحدًا لم يشك في قدرته على الحكم. لقد قتل اثنين من أزواج أخواته مريمن Mariamne واثنين من أولاده، وقبل وفاته بخمسة أيام أمر بالقبض على كثير من المواطنين، وأوصى بأن يُعدموا في يوم وفاته، لكي يضمن جوًا من الحزن في بلاده.

لقد كان من النادر أن يمر يوم—أثناء حكم هيرودس—لم ينفذ فيه حكم إعدام. وقد شابه المناخ السياسي—زمن ميلاد المسيح—ما كان يحدث في روسيا سنة ١٩٣٠ تحت حكم ستالين، فلم يتمكن المواطنون من التجمع في اجتماعات جماهيرية، وانتشر الجواسيس في كل مكان. وكان هيرودس يعتقد أنه بإصدار أمر بقتل أطفال بيت لحم سوف يحمي استقرار مملكته ضد إشاعة غزوها من ملك آخر.

في ذلك الوقت أعطى W. H. Auden فكرة صحيحة عن الذي كان يدور في عقل هيرودس عندما تأمل الأمر بالقتل: اليوم هو يوم من أيام الشتاء، لقد كان الجو باردًا والشمس مشرقة عندما سُمع كلب الراعي على بُعد أميال، وارتفعت الجبال الشاهقة تدق أسوار المدينة، وتيقظ فكري بدرجة كبيرة في هذه الأمسية وقفت في هذا الشباك العالي في القلعة، لم يوجد شيء في المشهد الرائع للسهول والجبال يُشير إلى أن الإمبراطورية مُهددة بخطر أفظع من أي غزو للتار أو مؤامرة لحارس برايتورة.

آه يا عزيزي لم يعد هذا الطفل البائس في مكان آخر؟ وهكذا دخل يسوع إلى العالم وسط جو مشحون بالكفاح والرعب، وقضى فترة طفولته مختبئًا في مصر. وقد أشار البشير متى إلى أن السياسيين المحليين هم الذين قرروا المكان الذي سينشأ فيه المسيح. ولما مات هيرودس الكبير أبلغ الملاك يوسف بأنه يمكنه العودة إلى إسرائيل آمنًا، ولكن ليس إلى الإقليم الذي يحكمه أرخيلاوس بن هيرودس، فعاد يوسف إلى الناصرة في الشمال حيث كان يحكم أنتيباس هو ابن آخر لهيرودس الذي قال عنه المسيح فيما بعد: "هذا الثعلب .."، وهو الذي قطع رأس يوحنا المعمدان. وبعض بضعة سنوات استولى الرومان على الإقليم الجنوبي، الذي اشتمل على أورشليم، وكان يحكمه واحد من أقسى الحكام اليونان ويُدعى "بيلاطس البنطي"، الذي تزوج حفيدة أغسطس قيصر. وطبقًا لم ورد في إنجيل لوقا كل من هيرودس أنتيباس، والحاكم الروماني بيلاطس أعداء لبعضهما البعض، حتى جاء اليوم الذي فيه قررا مصير الرب يسوع. وفي هذا اليوم اتحدا معًا، آملين أن ينجحا فيما فشل فيه هيرودس الكبير من قبل لحفظ المملكة.

فمن البداية وحتى النهاية، كان الصراع بين روما والمسيح صراعًا من طرف واحد، وكان الحكم بالموت على المسيح سوف يُنهي ما كانوا يعتقدون أنه تهديد لهم، وسوف ينتصر الطغيان مرة أخرى.

إن حقائق عيد الميلاد المسجلة في الترنيمات التي يرددها الأطفال في المسرحيات الكنسية، والمرسومة على البطاقات أصبحت شيئًا عاديًا، حتى أنه يسهل على أي شخص أن ينسى الرسالة من وراء هذه الحقائق. وبعد قراءتي لقصص الميلاد مرة ثانية، وجدتني أسال نفسي: إذا كان يسوع قد جاء ليكشف لنا أمورًا عن الله، فماذا تعلمت عن الله من أول عيد ميلاد؟

وعندمات فكرت في إجابة هذا السؤال أصبت بنوع من الدهشة، فأقل كلمات يُمكن أن يُعبَّر بها عن الفائدة التي تعلمناها من ألوهية المسيح هي: **التواضع، وإمكانية**

الاقتراب إلى الله، وتحمل المعاناة والشجاعة.

التواضع: لم يستخدم أي مؤلف وثني قبل المسيح التواضع كنوع من المديح والإطراء. وبرغم هذا، فإن أحداث الميلاد كلها تشير إلى الإله المتواضع. الإله الذي جاء إلى الأرض ليس وسط زوابع عاصفة أو نار آكلة. إنه أمر لا يمكننا أن نتخيله؛ خالق كل شئ تضاءل حتى تحول إلى بويضة دخلت إلى رحم فتاة مراهقة، أو كما يقول الرسول بولس عنه: "أخلى نفسه".

أتذكر مرة وأنا جالس في أحد أعياد الميلاد في قاعة استماع في كنيسة بلندن، وكنت أستمع إلى قطعة هاندل الموسيقية "المسيا"، ورنمت الفرقة الموسيقية عن مجد الرب الذي سيُعلن، ثم قضيت فترة الصباح وأنا أشاهد الآثار التي تدل على عظمة إنجلترا، والتي اشتملت على مجوهرات التاج، وصولجان المُلك الذهبي، وعربة الملك... إلخ، وبدا لي أن مثل هذه الصور هي من صور الثروة والقوة ولابد أنها شغلت عقل مُعاصري أشعياء النبي، الذين سمعوا عن هذا الوعد بمجيء المسيا. ومما لاشك فيه أن اليهود عندما قرؤوا كلمات أشعياء استعادوا، بحنين شديد، الأيام المجيدة التي كانت لسليمان وهو من جعل الفضة شيئًا يساوي في استخدامه الأحجار.

أما المسيا الذي ظهر، فقد كان يرتدي نوعًا آخر من المجد، مجد التواضع. فصيحة "الله أكبر"—التي يُطلقها المسلمون—هي حقيقة لا تحتاج إلى أي كائن فوق طبيعي لكي يُعلمها للناس، هكذا كتب الأب نيفل فيجس Neville Figgis، ولكن أن يكون الله صغيرًا، وإلى هذا الحد، فتلك هي الحقيقة التي علما يسوع للإنسان. الله الجبار، الذي يزأر ويأمر الجيوش والإمبراطوريات، هذا الإله ظهر في أورشليم—في صورة طفل—معتمدًا على فتاة مراهقة؛ لتأويه، وتُطعمه، وترعاه.

في لندن وأنا أتجه ببصري نحو مقصورة العائلة المالكة بالاستاد، لمحت الأسلوب التقليدي الذي يتبعه الحكام عندما

يسيرون في العالم، حيث يحيطهم الحرس الشخصي، وتدق أمامهم الطبول، وهم مرتدون الملابس الزاهية، والمجوهرات اللامعة. قامت مرة الملكة إليزابيث الثانية بزيارة الولايات المتحدة الأمريكية، وركز المراسلون اهتماماتهم بالمتعلقات التي رافقتها: شنط تزن أربعة آلاف رطل، تشتمل على فساتين خاصة لكل مناسبة، فستان خاص لأية مناسبة حزينة، في حالة وفاة أي شخص، وأربعون مكيالاً من بلازما الدم و.....، وكان معها كوافيرها الخاص، ومجموعة أخرى من الخدم. إن أية زيارة ملكية قصيرة لدولة أجنبية تُكلف عشرين مليونًا من الدولارات.

وفي مقارنة متواضعة، حدثت زيارة الله للأرض في مذود للبقر، دون أي خدم، ولم يجدوا مكانًا لمولد الملك الجديد غير هذا المذود. إن هذا الحدث الذي شطر التاريخ لنصفين، وشهدته الحيوانات قبل الإنسان، وقد مُنِحَت هذه الهدية العظيمة للعالم في سكون عظيم.

أضاء الملائكة السماء للحظات، ولكن من شاهد هذا المنظر الرائع؟ إنهم رعاة غير متعلمين وغير معروفين يرعون رعية ليست ملكهم، حتى أن اليهود كانوا يعتبرون مثل هؤلاء بأنهم بلا إله، ويضعونهم خارج المحلة. ورغم كل هذا، فقد اختارهم الله لكي يحتفلوا بميلاد من سيُدعى صديقًا للخطاة.

في قصيدة Auden أعلن المجوس: "هنا والآن تنتهي رحلتنا اللانهائية". وقال الرعاة: "هنا والآن تبدأ رحلتنا اللانهائية". إن البحث عن الحكمة العالمية قد انتهى، لقد بدأت الآن الحياة الحقيقية.

إله بإمكنك الاقتراب منه: الذين نشأوا على الطريقة التقليدية في الصلاة الخاصة، هؤلاء لا يُدركون إدراكًا كاملاً التغيير الذي أحدثه يسوع في كيفية اقتراب الإنسان إلى الله. ففي حين نجد الهندوس يقدمون الذبائح في معابدهم، والمسلمون يركعون حتى تلمس جباههم الأرض، نرى

بأن الخوف هو الإحساس الأساسي الذي ينتاب الشخص الذي يرغب في الاقتراب من الله، وهو ما نجده في تقاليد معظم الأديان.

وهو ما يشمل بالتأكيد اليهود الذين يربطون العبادة بالخوف والرهبة. فالعليقة المحترقة أمام موسى، والجمرة المشتعلة أمام أشعياء، ورؤيا حزقيال، كل هذا يوضح أن الشخص يتبارك عن المواجهة المباشرة مع الله ـــ كما حدث مع يعقوب الذي خرج بعدها وهو يعرج ـــ وهؤلاء وحدهم فقط المحظوظون. والأطفال اليهود أيضًا تعلموا من قصص الجبل المقدس في الصحراء، الذي كان يمثل خطرًا لكل من يحاول لمسه، حيث كل من يلمس تابوت العهد يموت، بل كل من يدخل قدس أقداس الله في الهيكل لا يخرج حيًّا.

هؤلاء الناس الذين كانوا يخشون أن ينطقوا باسم الله، أدهشهم الله بظهوره كطفل في مذود. إن منظره لا يُثير أي نوع من الخوف، فها هو ملفوف بقماش حول جسمه كله. لقد وجد الله في المسيح طريقة لنزع الخوف من الإنسان.

في الحقيقة فإن الخوف لم يُعط ثمرًا جيدًا، فالعهد القديم يشتمل على نقاط ضعف أكثر من نقاط القوة. وكان الإنسان في حاجة إلى عهد جديد فيه استُخدمت كلمات الكتاب المقدس، وبطريقة لا توسع الفجوة بين الله والإنسان، بل أقامت جسرًا عليها. لقد اتخذ الله صورة طفل، وهذا ما حدث في بيت لحم، فالله خالق كل الأشياء أصبح واحدًا منها كما يصبح الفنان نقطة في إحدى لوحاته، أو كما يصبح كاتبًا مسرحيًّا أحد الشخصيات في مسرحياته. وهذا ما يصيغة الوحي الإلهي بإيجاز مدهش: "والكلمة صار جسدًا، وحلّ بيننا".

كانت صديقتي كاثي تلجأ إلى لعبة "حزر فزر" لتساعد ابنتها ذات الأعوام الستة على معرفة الحيوانات المختلفة. فكانت تقول مثلاً: "كائن ثدي، كبير يمارس السحر". أخذت كاثي تفكر فترة من الزمن ثم سلمت بعدم معرفتها

من يكون. قال ابنتها في تهور وانتصار: "إنه يسوع!". قالت لها كاتي: بدت الإجابة بأن لا صلة لها بالسؤال في ذلك الوقت. ولكن عندما فكرت بعد ذلك في هذه الإجابة أدركت أن ابنتها اكتشفت مصادفة بصيرة مشوشة عن التجسد: "يسوع ككائن ثديي".

لقد تعلمت عن التجسد عندما كان عندي حوض أسماك به ماء مالح. اكتشفت أن إدارة حوض به أسماك بحرية ليس أمرًا سهلاً. كان عليَّ أن أدير معمل كيميائي متنقل؛ لكي أضبط فيه مستوى النيترات والنوشادر. وكنت أضخ فيه فيتامينات، ومضادات حيوية، وسلفات، وأنزيمات لكي تجعل الصخور تنمو. وكنت أرشح الماء من خلال ألياف زجاجية، وفحم نباتي، وأعرضه لأشعة فوق بنفسجية. ربما تعتقد بأن الأسماك التي أربيها ستكون عارفة للجميل على الأقل، ولكن لم يحدث هذا مطلقًا. ففي كل مرة يأتي ظلي فيها على حوض الأسماك فإنهم يختبئون في أقرب صدفة أو محارة، لقد أظهروا لي دومًا الإحساس بالخوف. ومع أني كنت أرفع الغطاء، وألقي لهم الطعام حسب جدول منتظم—ثلاث مرات يوميًا—إلا أن استجابتهم كانت—لكل ما أفعله لهم—الخوف، وكأنني أخطط لتعذيبهم، لم أستطع أن أقنعهم بهدفي الحقيقي.

بالنسبة لأسماكي، التي كنت لهم بمثابة الله، كنت كبيرًا بالنسبة لهم وكانت حركاتي غير مفهومة لهم، ومع أنها كانت أعمال رحمة مني إلا أنهم كانوا يرونها أعمال قسوة. ولكي أغير قدرتهم على الفهم تطلب هذا مني شكلاً من أشكال التجسد، كان على أن أكون سمكة وأتكلم معهم بلغة يستطيعون فهمها.

أن يصبح الإنسان سمكة لا تقارن بأن يُصبح الله طفلاً، وهذا ما حدث في بيت لحم، لقد صار الكلمة جسدًا.

ضحية الظلم والاضطهاد: أشعر بخوف شديد وبخاصة حين أكتب عن معاناة يسوع. فكلمة "Under dog" كلمة جافة وغير مهذبة، ومن المحتمل أنها مأخوذة من معارك

الكلاب مع بعضها البعض، وهي تطبق أيضًا على ضحايا الظلم. ورغم ذلك فعندما قرأت قصة ميلاد يسوع استنتجت أنه، وإن كان العالم ينجذب نحو الأغنياء ويحترمهم، فإن الله يحب المظلومين والفقراء: "أَنْزَلَ الأَعِزَّاءَ عَنِ الْكَرَاسِيِّ وَرَفَعَ الْمُتَّضِعِينَ. أَشْبَعَ الْجِيَاعَ خَيْرَاتٍ وَصَرَفَ الأَغْنِيَاءَ فَارِغِينَ". هكذا ترنمت مريم من ترنيمتها الرائعة.

أساءت السلطات الرومانية معاملة قسيس روماني يُدعى لازلو توكس، وتسبب هذا في إحداث تمرد ضد الحاكم الشيوعي "شاوشيسكو"، ويخبرنا هذا القسيس عن محاولته إعداد عظة عيد الميلاد لكنيسته التي سُجن من أجلها: "كانت الشرطة تجوب البلاد حيث انتشر العنف في كل مكان. وخوفًا على حياته أغلق القس أبوابه، وجلس يقرأ قصة عيد الميلاد في إنجيل متى ولوقا، وعلى غير عادة باقي الخُدَّام بدلاً من أن يعظ عن الميلاد وعظ عن مذبحة هيرودس للأطفال الأبرياء، وفهم الناس جيدًا أنه كان يقصد التعبير عن المعاناة، والخوف، والعنف الذي يعانون منه يوميًا. وفي اليوم التالي لعيد الميلاد انتشرت أخبار القبض على شاوشيسكو، ودقت أجراس الكنائس وساد الفرح والبهجة كل رومانيا، فقط سقط هيرودس آخر. وواصل القس توكس دعوته قائلاً: "كل أحداث الميلاد لها بُعد جديد بالنسبة لنا، بُعد تاريخي متأصل في حقيقة حياتنا. فالذين عاشوا تلك الأحداث التي حدثت أيام عيد الميلاد سنة ١٩٨٩ كانت لهذه الأحداث صدى جميل لقصة الميلاد. في هذا الوقت كان من السهل علينا أن نفهم رحمة الله التي افتقدتنا ونفهم غباء الإنسان وشره الذي كان واضحًا وضوح الشمس والقمر فوق تلال ترانسلفانيا". فلأول مرة منذ أربعين عامًا تحتفل رومانيا بعيد الميلاد في إجازة عامة.

ربما تكون أفضل طريقة لفهم معنى كلمة "ضحية الظلم والاضطهاد" في عملية التجسد، هو أن يُعبَّر عنها بكلمات من واقعنا. امرأة غير متزوجة لا مأوى لها أكرهت على البحث عن مأوى بعد طردها، ولعدم قدرتها على تحمل

عبء الضرائب الثقيل، وفي ظل حكومة استعمارية ظالمة. عاشت على أرض تحاول أن تستعيد استقرارها بعد عنف حرب أهلية، ومازالت تعاني من آثار هذه الحرب. كما يحدث الآن في البوسنة، وراوندا، والصومال. ومثل معظم الأمهات اللائى يلدن اليوم، ولدت عذراء في آسيا، في أقصى الركن الغربي من — بيت لحم — ولد ابنا في هذا الجزء من العالم الذي لم يتقبل هذا الابن فلجأت إلى — مصر — والتي هي مكان لمعظم اللاجئين.

وإني لأتساءل؛ كيف فكرت مريم في ترنيمتها الرائعة وهي تهرب إلى مصر. ومصر — بالنسبة لليهودي — تثير ذكريات مضيئة لإله قوي، هزم جيش فرعون، وحرر الشعب. لقد هربت مريم إلى مصر، ولكن في يأس، وهي مملوءة بالشعور بالغربة، إذ تسعى للاختباء من حكومة هيرودس. هل يستطيع طفلها، الذي لا حول له ولا قوة، أن يحقق آمال شعبه؟

وحتى لغة أسرته تحمل ذكريات مؤلمة لمعاناة الشعب، لأن يسوع يتحدث الآرامية، وهي لغة التجارة في ذلك الوقت، القريبة من العربية، حيث تُذَكِّر اليهود برفضهم للإمبراطوريات الأجنبية. وجاء إلى بيت لحم بعض المجوس — غالبًا من العراق الحالية — ليزوروا المسيح — وقد اعتبرهم اليهود في ذلك الزمان أنهم نجسون — ذهبوا أولاً إلى ملك أورشليم الذي لا يعرف شيئًا عن طفل بيت لحم. وبعد رؤيتهم للطفل، وتأكدهم من شخصيته خدعوا هيردوس، ولم يرجعوا له، بل ذهبوا خلال طريق آخر، لحماية الطفل المولود.

وعندما كبر يسوع تأثر بعمق بالفقراء والضعفاء والمظلومين، الذين يحتملون المعاناة بكل أنواعها. ويجري اللاهوتيون اليون المناظرات في موضوع تفضيل الله للفقراء كأسلوب لوصف اهتمام الله بالمهمشين والذين يُعانون.

الشجاعة: في عام ١٩٩٣ قرأت تقريرًا عن رؤية المسيا في قسم مرتفعات كروان في بروكلين Brooklyn

بنيويورك. عاش عشرون ألفًا من طائفة الحسيديين اليهودية في مرتفعات كروان، وفي عام ١٩٩٣ أعتقد العديد منهم أن المسيا يعيش وسطهم في شخص الحاخام Menachem Mendel Schneerson. وانتشرت أخبار ظهور الحاخام للعامة مثل ومضة النار في شوارع مرتفعات كروان، وكانت طائفة الحسيديون مميزون بمعاطفهم السوداء، وشواربهم المفتولة يتمايلون وهم ينزلون من على رصيف المشاة نحو المعبد اليهودي حيث اعتاد الحاخام أن يصلي. وكان هؤلاء محفوظين بما فيه الكفاية أن يكون لهم اتصال بشبكة البيرز، فجروا بأقصى سرعة ناحية المعبد اليهودي في اللحظة التي شعروا فيها بذبذبة طفيفة. وتزاحموا بالمئات في الردهة، وتلاحمت أكتافهم بعضهم مع البعض حتى أن البعض منهم تسلق الأعمدة ليجد لنفسه مكانًا. وقد امتلأت القاعة بجو من التوقع وبجنون ولهفة، وكأنهم موجودين في إحدى البطولات الرياضية، وليس في خدمة دينية.

كان الحاخام يبلغ من العمر ٩١ عامًا، وكان يعاني من الشلل منذ عام مضى، ولم يكن قادرًا على الكلام منذ ذلك اليوم. وعندما رُفِعَ الستار رأى المتزاحمين في المعبد اليهودي رجلاً مسنًا ذو لحية طويلة، ولم يكن قادرًا على فعل أي شيء سوى الإيماءة، وإخفاء رأسه، وتحريك حواجبه، ومع ذلك لم يبدو أن أحدًا من الموجودين يفهم شيئًا: "يعيش سيدنا ومعلمنا وحاخامنا، ومخلصنا، والملك، والمسيا للأبد" هكذا كانوا يهتفون! وكانوا يرنمون معًا مرارًا وتكرارًا، محدثين أصواتًا، حتى أشار الحاخام إشارة صغيرة بيده، وأغلق الستار. وافترقوا ببطء مستمتعين باللحظة التي همهم فيها بنشوة مفرطة*.

عندما قرأت النبأ لأول مرة ضحكت بصوت عالي. من الذي كان هؤلاء الناس يحاولون أن يسخروا منه، هل كانوا يسخرون من مسيا صامتًا في التسعين من عمره

* مات هذا الحاخام في يونيو ١٩٩٤، والآن يتوقع كثير من أتباعه أن يقوم من بين الأموات.

في بروكلين؟ كان رد فعل هذا الحاخام تمامًا مثل رد فعل الناس في القرن الأول الميلادي تجاه يسوع. مسيا من الجليل! ابن نجار، ليس أكثر!

إن الازدراء الذي شعرت به أثناء قراءتي عن هذا الحاخام وأتباعه المتعصبين أعطاني لمحة عن ردود الفعل التي واجهها يسوع طوال حياته.

تردد سؤال كبير بين جيران يسوع: "أليست أمه مريم وإخوته يعقوب ويوسف وسمعان ويهوذا؟ من أين له كل هذه الحكمة والقوة المعجزية"؟ وآخرون قالوا: "أمن الناصرة يخرج شئ صالح"؟ ووسط هذه الأسئلة، حاولت عائلته أن تبعده عن الناس، معتقدين أنه إنسان غير عاقل، كما حاول رجال الدين قتله. أما العامة فقالوا: "إنه مجنون وبه شيطان"، وآخرون حاولوا أن يجعلونه ملكًا بالقوة.

لقد وضع الله جانبًا ــ بكل شجاعة ــ القوة والمجد مرتضياً أن يأخذ مكانًا بين الناس. نزل إلى كوكبنا المعروف بعنفه ورفضه للأشياء. تُرى ماذا كان عليه أن يفعل أكثر من هذا؟ إن الليلة الأولى له في بيت لحم احتاجت إلى الكثير من الشجاعة، تُرى كيف كان شعور الله الآب؟ هل كان كأي أب أرضي شعر بالعجز، وهو يرى ابنه ملطخاً بالدم، وهو يواجه عالمًا باردًا أو مزعجًا. لقد بدأت الشجاعة مع يسوع منذ أول ليلة لميلاده، وحتى نهاية أيامه على الأرض.

وهناك مشهد آخر لعيد الميلاد لم أشهده على أية بطاقة معايدة، ربما لأنه لم يستطع أي فنان رسمه بطريقة واضحة. في سفر الرؤيا والأصحاح الثاني عشر، ينفتح الستار، ليكشف لنا عن منظر الميلاد من وجهة نظر الملائكة، حيث يختلف الوصف تمامًا عما ورد في الأناجيل. فلم يذكر سفر الرؤيا شيئًا عن الرعاة أو الملك الذي ذبح الأطفال، بل بالحري يعطينا صورة لتنين عظيم يقود معركةً في السماء، وامرأة متسربلة بالشمس وعلى رأسها إكليلاً من اثنى عشر كوكبًا، وهي تصرخ متمخضة

ومتوجعة لتلد. وفجأة يأتي التنين العظيم، وذيله يجر ثلث نجوم السماء، ويطرحها على الأرض، ووقف أمام المرأة لكي يبتلع ولدها متى ولدت. وفي اللحظة الأخيرة اختطف ولدها إلى الله وإلى عرشه، وهربت المرأة إلى البرية، لتبدأ الحرب الكونية.

إن سفر الرؤيا غريب بكل المقاييس، ويجب على من يقرأه أن يفهم أسلوبه أولاً، لكي يفهم معنى هذه المناظر غير العادية. وفي الحياة اليومية يظهر حدثان تاريخيان في ذات الوقت، الأول على الأرض، والآخر في السماء. وفي سفر الرؤيا نشاهدهما معًا، لو نظرنا نظرة سريعة لخلفية المشهد، فسنجد على الأرض مولد طفل يُطارده ملك، وفي السماء بدأ الغزو العظيم بعد ولادة الطفل، بغارة جريئة قام بها حاكم قوات الخير على قوات الشر الكونية. وعبر جون ميلتون عن وجهة النظر هذه في قصائده "الفردوس المفقود". هذه القصيدة التي جعلت السماء والجحيم هما البؤرة المركزية، أما الأرض فهي ميدان المعركة لصراعاتهم.

وصف رواد فضاء السفينة "أبوللو" كوكبنا أنه: "مستدير وجميل وصغير، ذو لون أزرق وأخضر، وكأنه كرة معلقة في الفضاء. وقال الرائد جيم لونل عن كوكب الأرض: "كان مجرد جسم آخر، حجمه أربعة أضعاف حجم القمر، ولكن فيه كل الأمل، وكل الحياة، وكل الأشياء التي يعرفها، ويحبها رواد أبوللو ٨. إن كوكبنا هو أجمل شئ يمكن أن نراه في السماوات". كانت هذه هي نظرة إنسان. أما بالنسبة لملاك صغير فبالرغم من أن كوكب الأرض لا يبدو مؤثراً، فقد كان يسمع باندهاش شديد، وهو غير مصدق لما يقوله الملاك الكبير عندما أخبره أن هذا الكوكب صغير غير مهم، وغير نظيف، ورغم هذا فهو الكوكب الذي حظى بالزيارة الهامة. قال الملاك الصغير: "هل تقصد أن أميرنا العظيم والممجد ذهب شخصيًا إلى هذه الكرة الصغيرة؟ لماذا يفعل شيئًا مثل ذلك؟ وشعر الملاك الصغير بشئ من الاشمئزاز وقال: "هل تقصد

أن تخبرني بأنه تواضع جدًا لكي يصبح مثل أحد هؤلاء المخلوقات الزاحفة في هذه الكرة السابحة في الفضاء".

قال الملاك الكبير "نعم. أنا أقصد ذلك، ولكني لا أعتقد أنه يقبل منك أن تدعوهم بالمخلوقات الزاحفة، وبالرغم من أن هذا الأمر قد يبدو غريبًا بالنسبة لنا، فإنه يحبهم، لقد ذهب ليزورهم ولكي يرفعهم حتى يصبحوا مثله". نظر الملاك الصغير باندهاش، فمثل هذه الأفكار لا يستطيع أن يفهمها. وأنا أيضًا، لا أستطيع فهم هذه الأمور، إذ هي فوق مستوى تفكيري. ورغم هذا فأنا قبلت هذه الفكرة، ولأنها مفتاح لفهم الميلاد، وهي أساس إيماني. وكمسيحي أشعر أننا نعيش في عالمين متوازيين، عالم منهم يتكون من تلال وبحيرات، وسياسيين ورعاة يرعون أغنامهم بالليل، والآخر يتكون من ملائكة في السماء، وقوات شر في الجحيم. وفي لية باردة ومظلمة وسط تلال بيت لحم اجتمع العالمان معًا بطريقة درامية رائعة، الله الذي لا يُحَدُّ بزمن دخل الزمن والفضاء. الله غير المحدود أخذ شكل الطفل الصغير المحدود.

"هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة"، "به كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ" ولكن القليلين الذين شاهدوا ليلة الميلاد لم يدركوا شيئا من هذا، ولكنهم رأوا طفلاً صغيرًا جاء للحياة. هل يمكن أن يكون هذا حقيقة؟ قصة بيت لحم عن الخالق الذي نزل من السماء؛ لكي يولد على كوكب صغير! إذا كان الأمر كذلك فهي قصة لا مثيل لها، ولسنا بحاجة لأن نتساءل: ما إذا كان ما يحدث على هذا الكوكب الذي في حجم كرة التنس يهم باقي الكون. وتتدهش قليلاً عند سماع أنشودة الملائكة وهي تزعج، ليس فقط الرعاة ولكن الكون كله.



الجذور الاجتماعية:

الجذور والتربة اليهودية

"هنا أيضًا تناقض عظيم: فمع أنه يهودي، إلا أن أتباعه لم يصيروا يهودًا".

فولتر Voltaire

٣

الجذور الاجتماعية:

الجذور والتربة اليهودية

نشأت كطفل في مجتمع WASP أتلانتا بولاية جورجيا ولم أتعرف على يهودي واحد. لذا فقد كانت صورة اليهود في ذهني تتمثل في أنهم أجانب ذوي لهجة يصعب فهمها، ويرتدون قبعات غريبة. عاشوا في بروكلين أو أي مكان بعيد آخر، حيث درسوا لكي يصبحوا أطباء نفسيين أو موسيقيين. وكنت أعرف أن لهم صلة بالحرب العالمية الثانية، ولكني لم أسمع سوى القليل عن "الهولوكوست". إن هؤلاء الناس لم تكن لهم بكل تأكيد أية صلة بالمسيح.

وعندما بلغت العشرين من عمري، صادفت مصورًا يهوديًا ساعدني على التخلص من معظم الأفكار الخاطئة عنهم. وفي إحدى الليالي ونحن نتحدث معًا عَبر لي عن مشاعره، عندما فقد سبعة عشر عضواً من عائلته في "الهولوكوست". ثم بعد ذلك عرفني ببعض الكُتَّابْ اليهود مثل إيلي ويسل، وتشيم يوتوك، ومارتن بوبر، وبعد هذه المقابلات بدأت في قراءة العهد الجديد، ولكن بعيون جديدة. وبدأت أدرك يهودية يسوع من تلك الآية التي ذكرها متى البشير ليُعَّرفه لنا على أنه: "ابن داود بنّ إبراهيم".

إننا في الكنيسة نؤكد على أن يسوع هو "ابن الله الوحيد المولود من الله قبل كل الدهور. إله حق من إله حق"، هذه العبارات المذكورة في قانون الإيمان، مأخوذة من الأناجيل عن يسوع الذي كبر في ظل عائلة يهودية، لها ثقافة سكان مدن الناصرة. وقد علمت فيما بعد، أنه حتى اليهود الذين أصبحوا مسيحيين، لم يدعهم أحد للمجمع المسكوني بمدينة خلقيدونية الذي وضع قانون الإيمان. ونحن الأمم نواجه خطرًا مستمرًا عندما تغيب عنا يهودية يسوع وإنسانيته.

وكحقيقة تاريخية، فنحن الذين اخترنا يسوعهم صديقًا لنا. وكلما ازدادت معرفتي بالمسيح، أدركت أنه لم يقض حياته بين اليهود في القرن الأول فقط، لكي يخلص الأمريكيين في القرن العشرين. وخلافًا لكل الذين ذكروا في التاريخ، كان ليسوع امتياز اختيار مكان وتوقيت ولادته، فقد اختار عائلة يهودية تقية، تعيش تحت حكم إمبراطورية وثنية. ولم أستطع أن أفهم يسوع بعيدًا عن يهوديته، كما لا أستطيع فهم غاندي بعيدًا عن كونه هنديًا. وأشعر بالحاجة لأن أرتد إلى الوراء، لكي أصور يسوع كيهودي، عاش في القرن الأول، وهو يحمل تعويذة على رسغه، وتراب فلسطين على صندله.

قال الكاتب اليهودي مارتن بوبر: "نحن معشر اليهود نعرف يسوع بطريقة يتعذر على الأمم الذين عرفوه أن يفهموها". وهو في ذلك على صواب، فلكي أفهم يسوع يجب أن أعرف شيئًا عن ثقافته، وعائلته، وخلفيته.

واتباعًا لهذا المبدأ بدأ متى إنجيله بسلسلة نسب المسيح، واختار ممثلين من اثنين وأربعين جيلًا من اليهود، لكي يصل بنا إلى خط النسل المذكور. وكذلك فإن العائلة الريفية ليوسف ومريم، يمكن أن تتبع سلالتها إلى بعض الأسلاف الأثرياء، الذين اشتملوا على داود ملك إسرائيل العظيم، ومؤسسها الأصلي إبراهيم.

لقد نشأ يسوع في زمن استعادة القوة اليهودية، وفي أثناء محاولة رفض ضغط العودة إلى الثقافة اليونانية، حيث

كانت الأسر اليهودية تتبنى أسماء ترجع إلى سفر الخروج من مصر، ولهذا سُمِّيت مريم على اسم أخت موسى، وسمى يوسف على اسم أحد أبناء يعقوب.

كما أن اسم "يسوع" مأخوذ من "يشوع"، ومعناه "الذي سيخلص"، وكان اسمًا شائعًا في تلك الأيام. وكان اسم يسوع يرن في آذان اليهود في القرن الأول، وهم يستمعون لكلماته. لم ينطق اليهود بلفظ الجلالة الله إلا أمام رئيس الكهنة مرة واحدة في السنة، وبالنسبة لأناس نشؤوا في مثل هذه التقاليد، فإن فكرة أن شخصًا عاديًا يُدعى المسيح يمكن أن يكون ابن الله ومخلص العالم، تبدو فكرة مرفوضة تمامًا، فبالنسبة لهم هو فقط إنسان، وهو ابن مريم.

وتطفو علامات يهودية المسيح على سطح الأناجيل، فقد أختتن يسوع كطفل، كما سارت عائلته في رحلة لعدة أيام إلى أورشليم؛ لكي تحضر عيدًا رسميًا لليهود. وكفتى كان يسوع يتعبد في المجمع والهيكل متبعًا التقاليد اليهودية، ومتحدثًا بكلمات يستطيع اليهود فهمها. ورغم كل الاختلافات مع اليهود كالفريسيين، فقد كان يشاركهم في قيمهم، ويتصرف مثلهم.

وأشار أحد اللاهوتيين الألمان ويدعى جورجين مولتمان: "لو كان يسوع عاش في ألمانيا، أثناء فترة اضطهاد اليهود في الرايخ الثالث، لكان قد أخذ إلى أحد غرف الغاز". إن مذبحة هيرودس للأطفال كان هدفها قتل يسوع.

ذكر لي حاخام صديق، أن المسيحيين يتخيلون صرخة يسوع على الصليب: "إلهي إلهي لماذا تركتني" على أنها لحظة من لحظات الصراع العميق بين الآب والابن، ولكن اليهود يعتبرون هذه الكلمات أنها صرخة الموت لضحية يهودية أخرى. فيسوع ليس هو أول يهودي يموت، وبالتأكيد لن يكون آخر يهودي يصرخ بكلمات وردت في المزامير أثناء التعذيب.

ورغم هذا؛ فقد ظهر تناقُض غريب في أجيال قليلة، أثناء حياة يسوع، إذ توقفَّ اليهود عن اتبّاعه، وأصبحت

الكنيسة أممية تمامًا، فيما عدا استثناءات نادرة. ماذا حدث؟ يبدو لي أن المسيح لم يتمكن من تحقيق توقعات اليهود عن المسيا الذي انتظروه، إذ تؤكد مخطوطات البحر الميت التي اكتشفت سنة ١٩٤٧ أن اليهود كانوا ينتظرون حاكمًا قويًا يُعيد لهم أمجاد الماضي.

قامت العديد من الثورات، في زمن المسيح، كما ظهر أكثر من "مسيًا" كاذب يقود تلك الثورات، ولكنها سحقت. ومثال ذلك نبي عرف بالمصري وهو الذي اجتذب حوله أعدادًا غفيرة من الأتباع، وأخذهم إلى البرية، وادعى أنه قادر على إسقاط أسوار أورشليم بأمره — إذا شاء — فأرسل الحاكم الروماني فرقة من الجنود فقتلوا منهم أربعة آلاف متمرد.

وعندما انتشر نبأ ظهور النبي الذي طال انتظاره، وبأنه قد ظهر في الصحراء، زحف الجماهير لترى هذا الرجل الذي يرتدي وبر الإبل. وإذ بيوحنا المعمدان يقول لهم، وبإصرار: "أنا لست المسيح (المسيا)"، ولكنه جدد الآمال حين تحدث، بكلمات مملؤة بالفرح، عن شخص آخر سوف يظهر قريبًا. وعندما سأل يوحنا يسوع: "هل أنت هو، أم ننتظر آخر؟"، كان هذا في الحقيقة سؤال العصر الذي كان يتردد في كل مكان.

لقد علَّم كل نبي عبراني، ان يومًا ما سيؤسس الله مملكته على الأرض، ولهذا السبب فإن الإشاعات التي انتشرت عن ابن داود أشعلت الآمال اليهودية. إن الله سوف يثبت بنفسه أنه لم ينساهم، وأنه كما صرخ أشعياء في القديم: "سوف يشق السماوات وينزل وترتعب الجبال أمامه وترتجف الأمم قدامه".

ولكن دعونا نكون أمناء؛ إن الشخص الذي أشار إليه يوحنا، بأنه سيأتي، لم ترتعد الجبال أمامه، ولا ارتجفت الأمم قُدامه. إن المسيح لم يحقق الآمال القوية لليهود، بل حدث العكس، ففي جيل واحد سوَىَّ الجنود الرومان أورشليم بالأرض، وقبلت الكنيسة المسيحية الناشئة دمار الهيكل على أنه علامة نهاية العهد بين الله وإسرائيل. وبعد

القرن الأول تحول عدد قليل من اليهود غلى المسيحية، وأطلق المسيحيون على كتاب اليهود "العهد القديم"، ووضعوا نهاية لمعظم التقاليد اليهودية.

وقام بعض اليهود المرفوضين من الكنيسة، والذين وجه إليهم اللوم بمسئوليتهم عن موت المسيح، بحملة مضادة للمسيحيين، ونشروا إشاعات تقول: "إن المسيح هو الابن غير الشرعي، وهو ثمرة اتصال جنسي بين مريم وجندي روماني"، وكتبوا محاكاة ساخرة للأناجيل. وقالوا في إحداها: "إن المسيح شنق في ليلة الفصح؛ لأنه مارس السحر والتضليل وقاد إسرائيل إلى الضلال". وإن الرجل الذي بشرت الملائكة بأن ميلاده سيكون علامة سيادة السلام على الأرض، هو الذي شطر التاريخ إلى نصفين.

التقيت منذ بضعة سنوات بعشرة مسيحيين، وعشرة يهود، وعشرة مسلمين، في نيوأورليانز، لقد دعانا الطبيب النفسي سكوت بيك، لنرى إذا ما كنا نستطيع التغلب على اختلافاتنا، ونُنتج نوعًا ما، من المجتمع. قدمت كل مجموعة خدمة عبادة بطريقتها الخاصة: المسلمون يوم الجمعة، واليهود يوم السبت، والمسيحيون يوم الأحد، ولقد دُعى آخرون لكي يراقبوا هذا. كان هناك تشابه كبير ذكرنا بالأسلوب المشترك بين العبادات الثلاثة جميعًا، وربما كان سبب حدة المشاعر بين الثلاث عبادات من ميراث شائع، فالمعارك الأسرية هي أكثر عناداً والحروب الأهلية أكثر دموية.

تعلمت كلمة جديدة في نيوأورليانز الا وهي "Supersessionism"، "جلسات السوبر"، فاليهود يستاؤون من فكرة أن الإيمان المسيحي حل محل اليهودية، والمسيحيون اقتبسوا كلمة "المسيا"—أو على الأقل— مرادفها اليوناني "المسيح". قال أحد الحاخامات أنه قد تربى في البيت اليهودي الوحيد في مدينة صغيرة بفرجينيا. كان المسيحيون في كل سنة يطلبون من أبوه— وهو عضو مُحترم في المجتمع، وكيهودي، ونزيه في حكمه—أن تُرتِّب عروض أضواء عيد الميلاد، ويُقرر أي

البيوت يستحق الجوائز. وكطفل صغير ذهب الحاخام مع أبوه بالسيارة أمام كل منزل في المدينة متفحصًا في أنوار الكريسماس المبهرة والتي تُسمى أنوار المسيَّا.

ولم أدرك أن المسلمين ينظرون إلى كل من الديانتين ـــ اليهودية والمسيحية ـــ نظرة متعالية، ومن وجهة نظرهم يقولون: كما أن المسيحية نبعت من بعض الأجزاء المحدودة من اليهودية، فكذلك الإسلام جاء من بعض أجزاء من كلتا الديانتين، فإبراهيم نبي، والمسيح نبي، أما محمد فهو النبي. وللعهد الجديد مكانته، وكذلك للعهد القديم، أما القرآن فهو الوحي الخاتم. وعندما سمعت آراء الآخرين، وهم يتحدثون عن إيماني المسيحي بهذه الكلمات، فقد وضح لي كيفية شعور اليهود لمدة ألفي سنة. وأدركت بعد سماعي للاختلافات بين الأديان الثلاث، مدى عمق ما أدخله يسوع من تعليم. فقد تكونت العبادة الإسلامية، أساسًا من صلوات تبجيلية لله، واشتملت العبادة اليهودية على قراءة المزامير، والتوراة، وبعض الترانيم القلبية الحارة، وكل هذه العناصر يمكن أن نجدها في العبادة المسيحية. وما يميزها عنهما هو مائدة العشاء الرباني، فقبل توزيع الخبز يقرأ القس: "هذا هو جسدي المكسور من أجلكم"، إن جسد المسيح هو إذًا نقطة الخلاف.

عندما هزم المسلمون آسيا الصغرى، وحولوا الكنائس إلى مساجد، وقد حفروا هذا الكلام المنقوش لإزالة كل ما تبقى من المسيحية: "الله لم يلد ولم يولد". ونفس هذه العبارة يُمكن كتابتها على حوائط المجمع اليهودي. هل يسوع هو حقيقة المسيا، ابن الله؟ وكما وضح يهود نيوأورليانز بأن المسيا الذي مات في سن الثالثة والثلاثين، والأمة التي تنهار بعد موت مخلصها، والعالم الذي يزداد انقسامه، كل هذه الحقائق لا يمكن أن تزيد شيئًا من اتباع يسوع.

ورغم مرور ألفي عام على هذا الانقسام العظيم، ورغم كل ما حدث في هذا القرن من عنف ضد السامية، فإن الاهتمام بيسوع بدأ ينبعث مرة أخرى بين اليهود. فعندما قرر العالم العبري جوزيف كلونسر ١٩٢٥ أن يكتب

كتابًا عن المسيح لم يجد سوى ثلاث رسائل فقط عن حياة المسيح، كتبها علماء يهود معاصرون، أما الآن فيوجد المئات من الكتب مشتملة على أفضل الدراسات المتاحة. والطلبة اليهود يتعلمون حالياً أن المسيح كان معلمًا عظيمًا، بل ربما أعظم معلمي اليهود الذي اختارته الأمم.

هل يمكن أن نقرأ الأناجيل دون أن نضع غمامة على أعيننا؟ فاليهود يقرؤون بنوع من الشك، والمسيحيون يقرؤون من خلال عدسات تُكسّر شعاع الضوء لتاريخ الكنيسة. وأنا أعتقد بأن كلتا المجموعتين سوف تفعل حسناً لو أخذت قسطاً من الراحة لتفكر في الكلمات الأولى بإنجيل متى: "كتاب ميلاد يسوع المسيح بن داود بن إبراهيم"، ليتحدث ابن داود عن الخط الميساني للمسيح، والذي لا يتجاهله اليهود، وليتحدث ابن إبراهيم عن الخط اليهودي الذي لا نجرؤ نحن المسيحيين على إنكاره.

عندما كبرت لم أكن قد تعرفت على يهودي واحد، أما الآن فإني أعرفهم، إني كنت أعرف بعض الشئ عن ثقافتهم. أن لهم روابط قوية، تحفظ لهم أيام العطلات المقدسة حتى الآن، حتى بالنسبة للعائلات التي لم تعد تُصدق معنى هذه الأعياد. كما أن لهم مجادلات متحمسة جذبتي نحوهم، وجعلتني أشارك معهم، فهم يحترمون، بل ويقدسون التقيد الحرفي بالناموس، وسط مجتمع يُقدر الاستقلال حق التقدير. وقد ساعدهم تمسكهم بالتعليم على الاحتفاظ بالتقاليد رغم المحاولات الشديدة لطمسها، كما أن لهم القدرة على الرقص، والغناء، والضحك، حتى في الظروف الصعبة التي لا تشجع على هذا.

هذه هي الثقافة التي نشأ فيها يسوع، نعم. لقد قام بتغييرها، ولكنه غيَّرها من نقطة البداية كيهودي. وأنا الآن؛ عندما أتساءل: ماذا كان يشبه يسوع وهو في سن المراهقة؟ عندئذ يتبادر إلى ذهني الأطفال اليهود الذين أعرفهم في شيكاغو، وعندما يضايقني التفكير في هذا الأمر أتذكر، أنه في زمن يسوع. كان له رد فعل مختلف، صحيح هو شاب مراهق يهودي، ولكنه ابن الله.

إن يسوع لم يختر الجنس الذي يولد منه فحسب، بل اختار أيضًا الوقت والمكان. ولكن لماذا هذا التاريخ بالذات؟ وأحيانًا أتساءل: لماذا لم يأت يسوع في الأزمنة الحديثة، حيث كان في استطاعته أن يستفيد من وسائل الإعلام المتاحة الآن؟ أو كان وُلد في أيام أشعياء حيث كانوا يتوقعون بشدة مجئ المسيا، وكانت إسرائيل في ذلك الوقت دولة مستقلة. لماذا اختار الله القرن الأول ليظهر فيه العالم؟

لكل عصر صفاته المميزة، ففي حين تميز القرن التاسع عشر بالثقة المتفائلة، فقد تميز القرن العشرين بالعنف المشوش. أما الفترة التي ولد فيها المسيح في ذروة الإمبراطورية الرومانية، فقد بدأ الأمل والتفاؤل ينزوي ويخبو ويزول، تمامًا كما كان الحال قبل تفكك الاتحاد السوفيتي. لقد أبقت الإمبراطورية الرومانية على السلام بقوة السلاح، ولكن ظل الشعب المقهور متحداً، فيما عدا فلسطين.

وارتفعت التوقعات لحدوث نظام جديد للعصور في وقت ميلاد المسيح، وقد صاغ الشاعر الروماني فيرجيل جملة قوية، كما لو أنه أحد أنبياء العهد القديم حين أعلن قائلاً: "إن عنصراً إنسانياً جديدًا سوف ينزل من أعلى السماوات، إن تغييراً سوف يحدث، مرجعه مولد طفل يُنهي العصر الحديدي للإنسانية، وسوف يبدأ عصر ذهبي". كتب فيرجيل هذه الكلمات المسيانية ليس عن يسوع، بل كانت عن أغسطس قيصر الإله الحالي الذي استرد العالم، والذي استطاع أن يُعيد توحيد الإمبراطورية بعد الحرب الأهلية التي ثارت بسبب اغتيال يوليوس قيصر. قد يوليوس قيصر السلام والأمن والمرح لرعاياه في كلمتين الخبز والسيرك، وتمتع المواطنون بالحماية من الأعداء من الخارج، كما تمتعوا بالعدالة الرومانية، والحكومة المدنية. وفي أثناء ذلك ملأت الروح الإغريقية جسم السياسة الرومانية، وارتدى الناس الملابس الإغريقية في كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية. واستخدموا الأسلوب

الإغريقي في مبانيهم. ولعبوا الرياضة الإغريقية وتحدثوا اللغة اليونانية ما عدا فلسطين.

وعلى عكس الرومان، الذين سمحوا بوجود العديد من الآلهة، فقد تمسك اليهود بفكرة الإله الواحد، إلههم الذي كشف لهم أنهم شعبه المختار. وصف وليم باركلي ما حدث عندما اصطدم هذان المجتمعان معًا: تقول الحقيقة التاريخية: أنه في فترة ثلاثين عامًا ـــ من سنة ٦٧ إلى ٣٧ ق. م ـــ وقبل ظهور هيرودس الكبير قتل حوالي ١٥٠٠٠٠ رجل في فلسطين أثناء قيامهم بثورات. ولا يوجد بلد في العالم يعاني من الاشتعال، والثورات أكثر من فلسطين".

قاوم اليهود الثقافة اليونانية بنفس القوة التي قاوموا بها الاستعمار الروماني، واحتفظ الحاخامات بهذه الروح الحية بتذكيرهم لليهود بالمحاولات التي قام بها رجل مجنون يدعى أنتيخوس، لكي يفرض عليهم الثقافة اليونانية لأكثر من قرن كامل. حاول هذا الرجل أن يُكره الشباب اليهودي على ألا يُختنوا، حتى ما يتمكنوا من المشاركة في المباريات، والمسابقات الرياضية اليونانية، كما قام هذا الرجل بجلد كاهن عجوز حتى الموت، لأنه رفض أن يأكل لحم الخنزير، كما ذبح أماً وأطفالها السبع لرفضهم السجود لصورة إله يوناني. ودخل مرة إلى قدس الأقداس بالهيكل، وذبح خنزيراً على المذبح تكريما للإله الإغريقي زيوس ودنس القدس بدم الخنزير.

وفشلت حملة أنتيخوس فشلاً ذريعًا وثار اليهود ضده بقيادة المكابيين ومازال اليهود يحتفلون بعيد هانوكا Hanukka في ذكرى هذا الانتصار. ولمدة قرن تقريبًا، ضّدَّ المكابيون الغزو الأجنبي حتى وصلت القوة الرومانية إلى فلسطين. واستغرق الأمر ثلاثين عاما حتى تمكنت الجيوش من القضاء على كل بقايا التمرد، وأقاموا الرجل القوي هيرودس كملك لليهود، وعندما شاهد هيرودس الرومان يقتلون النساء، والأطفال في منازلهم، وأسواقهم، وحتى في الهيكل سأل أحد القادة: "هل سيقضي الرومان

على كل سكان المدينة وممتلكاتهم ويتركونني ملكًا على البرية، وفي ذلك الوقت اعتلى هيرودس ليس فقط عرش أورشليم، بل كل البلد التي كانت في دمار.

وظل هيرودس الكبير في الحكم عندما ولد المسيح. وظلت فلسطين في حالة من الهدوء تحت حكمه الحديدي؛ لأن الحروب الطويلة قضت على روح المقاومة لدى اليهود. وفي سنة ٣١ق. م قتل زلزال ٣٠٠٠٠ شخص، وقضى على الكثير من الماشية، وأطلق اليهود على هذه الكارثة: "المخاض الذي يسبق ولادة المسيا". وطلبوا من الله أن يرسل لهم مخلصًا.

ويصعب أن نجد مثلاً مشابهاً في الوقت الحاضر لما حدث لليهود في تلك الأيام وحالة الانهيار التي واجهوها تحت حكم الروماني. هل يشابهوا التبت تحت حكم الصين، أو السود في جنوب أفريقيا قبل حصولهم على الاستقلال من الأقلية البيضاء الحاكمة؟

وتأتي أكثر الاقتراحات استفزازًا من الزائرين الذين يزورون إسرائيل في الوقت الحاضر، ويلاحظون نوعًا من الضيق الذي كان يعاني منه الجليليون في أيام المسيح إذ أنهم مازالوا يعانوا من الفلسطينيين في الوقت الحاضر، فكلاهما كان يخدم الاهتمامات الاقتصادية لجيرانهم الأغنياء، وكلاهما عاش في معسكرات للاجئين في وسط بلاد تتمتع بالحضارة الحديثة، وكلاهما تعرض لحظر التجول، والاضطرابات، والتمييز العنصري.

وكما قال مالكوم ماجريدج في سنة ١٩٧٠: "إن الدور الذي قامت به الفيالق الرومانية يقوم به الجيش الإسرائيلي اليوم". فالعرب يأخذون مكان اليهود كما في أيام المسيح، وهم يعاملون الآن كمواطنين من الدرجة الثانية.

وكلتا المجموعتين الفلسطينيين الحاليين، واليهود الجليليين يشاركون في الشعور بالحساسية تجاه الغاضبين والمتهورين الذين يدعونهم للثورة المسلحة. إن الشرق الأوسط الآن يسوده العنف، والمعارك، والأحزاب

المتصارعة. لقد ولد المسيح في مثل هذه البيئة الملتهبة.

الرحلة من اليهودية إلى الجليل في فصل الربيع تكوين كالانتقال من اللون البني للأخضر، ومن أراضي جافة صحراوية إلى حقول خصبة في حوض البحر المتوسط. وتنمو الفاكهة والخضروات بكثرة. وحيث يصطاد الصيادون في بحر الجليل، وخلف التلال الغربية يمكننا رؤية مياه البحر المتوسط الزرقاء. وتقع مدينة الناصرة التي نشأ فيها المسيح على جانب تل يرتفع ١٣٠٠ قدم فوق سطح البحر. والمنظر من أعلى يسمح برؤية بانوراما بطول الطريق من جبل الكرمل القريب من المحيط إلى القمة الثلجية لجبل حرمون في الشمال.

لابد وأن يسوع استمتع بطفولته في الجليل بأراضيها الخصبة، والمشاهد الجميلة، وجوها المعتدل، والزهور البرية، والأعشاب التي تنمو وسط المحاصيل، ورأى طريقة فصل الحنطة من الزوان، وأشجار التين والكروم أعلى التلال، والحقول المبيضة للحصاد. كل هذا ظهر في أمثلة وأقوال المسيح.

وأثناء فترة حياة المسيح كانت تعمل فرق التشييد والبناء في هذه المدينة الجميلة الخاضعة تحت الحكم الروماني بشوارعها، وقصورها، وفيلاتها المغطاة بالحجارة البيضاء، والرخام الملون. وكان بها مسرح يتسع لأربعة آلاف متفرج وممثلين يونانيين كانوا يرفهون عن الجماهير من مختلف الجنسيات. وفي زمن يسوع كانت سيفوريس عاصمة الجليل، والثانية في الأهمية بعد أورشليم. ولم يذكرها أو يزُورها يسوع، ولو مرة واحدة في الأناجيل. كما أنه لم يقم بزيارة طبرية التي كانت مشتى هيرودس، وهي تقع على شاطئ بحر الجليل. لقد اهتم هيرودس بمراكز الثروة والقوة السياسية.

وبالرغم من أن هيرودس الكبير حوَّل الجليل إلى إقليم غني ومزدهر، فإن القلة هي التي جنت الثمار. فكان الفلاحون الفقراء يخدمون أصحاب الأراضي الأغنياء.

ـــــحقيقة أخرى ظهرت في أمثال المسيحـــــو أحيانًا تسبب الجو السيِّئ في حدوث كوارث لمعظم العائلات. ونحن نعلم أن يسوع نشأ فقيرًا إذ أن عائلته لم تتمكن من شراء حمل كذبيحة لتقديمه في الهيكل، وقدموا بدلا منه زوجي حمام.

وانتشرت سمعة الجليل على أنها أرض تُنبت الثوار. ففي عام ٤ق. م عندما قارب مولد المسيح اندلعت ثورة في مخازن الأسلحة في سيبفورس، واستولت القوات الرومانية على المدينة، وأحرقتها، وصلبوا ٢٠٠٠ يهودي من الذين شاركوا في الثورة. وبعد عشر سنوات من تلك الثورة حدثت ثورة أخرى باسم يهوذا الذي حث المواطنين على عدم دفع الضرائب للإمبراطور الروماني الوثني. وقد ساعد يهوذا على تأسيس حزب الغيورين الذي أزعج روما بغاراته المتكررة لفترة طويلة. كما صلب اثنين من أبناء يهوذا بعد موت المسيح. أما ابنه الثالث فقد قاوم سيطرة الرومان على بلدة ماسادا Masada وأقسم أن يدافع عنها حتى يموت آخر يهودي. وفي النهاية فضل ٩٦٠ من الرجال، والنساء، والأطفال اليهود أن ينهوا حياتهم على ان يؤخذوا أسرى إلى روما. إن أهل الجليل هم أناس مُحبُّون للحرية حتى النخاع.

وبالرغم من ازدهارها ونشاطها السياسي، فقد حصلت الجليل على القليل من التقدير والاحترام من البلدان التي حولها. وكانت أبعد إقليم من أورشليم، وأكثر تخلفا في الثقافة. ويصور الأدب اليهودي في ذلك الوقت الجليليين على أنهم قرويين ساذجين. أما الجليليون الذين تعلموا العبرية، فكانوا ينطقونها بطريقة سيئة حتى أن اليهود لم يدعوهم لقراءة التوراة في المجامع. وكان التحدث باللغة الآرامية بطريقة غير دقيقة هو علامة على أن الشخص من الجليل. (قيل لبطرس عند إنكاره للمسيح لغتك تظهرك). كما أن الكلمات الآرامية في الأناجيل توضح أن يسوع أيضًا تحدث بلغة الشمال المحلية، وهذا بلا شك شجع الكثيرين على الشك فيه: "هل يمكن أن يأتي المسيح من

الجليل؟" "أمن الناصرة يخرج شيء صالح؟".

واعتبر بعض اليهود أن الجليليين مهملين في الأمور الروحية أيضًا. فبعد قضاء ١٨ عامًا بلا ثمر رثى أحد الفريسيين الجليل قائلاً: "يا مدينة الجليل كم أنت تكرهين التوراة!" حتى إخوة يسوع شجعوه على أن يترك الجليل، ويذهب إلى اليهودية. ولم تعتبر القوى الدينية في أورشليم الجليل على أنها مكانًا مناسباً لظهور المسيا.

وعندما أقرأ الأناجيل أحاول العودة إلى تلك الأزمنة. كيف يكون رد فعلي على هذا الظلم والاضطهاد؟ هل كنت سأناضل لكي أكون مواطنًا مثاليًا، أو أبتعد عن المتاعب لكي أعيش، وأدع الآخرين يعيشون؟ أم كنت سأتأثر بالثوريين، وأنضم إليهم؟ هل كنت أقاتل بطريقة أخرى كأن أرفض دفع الضرائب؟ أم كنت سأركز طاقتي على الأمور الدينية، وأبتعد عن السياسة ومتناقضاتها؟ كيف كانت ستكون صورتي كيهودي في القرن الأول؟.

عاش ٨ مليون يهودي في الإمبراطورية الرومانية. مجرد ربعهم في فلسطين نفسها، وقد سببوا الكثير من المتاعب للرومان. واعتبر الرومان اليهود ملحدين لأنهم رفضوا احترام الآلهة اليونانية والرومانية كما اعتبروهم شاذين اجتماعياً بسبب تقاليدهم الغريبة: فاليهود يرفضون أكل الطعام "النجس" عند جيرانهم، ويتوقفون عن أعمالهم مساء الجمعة وطوال يوم السبت. ورغم هذا فقد منح الرومان اليهودية وضعًا قانونيًا.

وفي أوجه كثيرة كانت مواثيق القادة اليهود تشبه تلك التي كانت للكنائس الروسية في عهد ستالين. كان بإمكانهم أن يتعاونوا مع السلطة، وهذا يعني التسليم بتدخل الحكومة أما إذا رفضوا ذلك، فسوف يتعرضون لاضطهاد شديد. وكان هيرودس الكبير نموذجًا لما كان يفعله ستالين. فقد كان يُبقي المجتمع الديني في حالة اشتباه ورعب من خلال شبكة جواسيسه. وقد شكا أحد الكتاب اليهود قائلاً: "كان هيرودس يُغّير رئيس الكهنة كما يغير ملابسه".

وبسبب هذا تفتت اليهود إلى عدة أحزاب كل له مبادئه المختلفة. وكانت هذه الأحزاب تتبع يسوع في رحلاته مستمعة له، ومختبرة إياه، أو تتبع وصاياه. وفي غير عنف رفضت فئة من اليهود مقاومة هيرودس أو الرومان وانسحبوا إلى مجتمعات الرهبنة في كهوف الصحراء وهم مقتنعون أن الغزو الروماني قد حدث لهم كعقوبة بسبب فشلهم في حفظ الناموس لذلك كرسوا أنفسهم للتقوى والطهارة. هذه الفئة التي أفرزت نفسها كانت تتبع نظامًا غذائيًا صارمًا وكان أتباعهم لا يرتدون المجوهرات ولا يحلفون. وكانوا يأملون أن هذا الإخلاص سوف يشجع المسيا لأن يأتي.

أما أعضاء حزب الغيُورون فقد قادوا تمردًا مسلحًا؛ لكي يطردوا الأجانب الذين اعتبروهم نجسون. وتخصص فرع من هذا الحزب في أعمال الإرهاب السياسي ضد الرومان بينما عمل فرع آخر كبوليس أخلاقي لكي يحفظوا إخوانهم اليهود على دينهم. وأعلن مسئولو هذا الحزب أن كل يهودي يتزوج بغير يهودية سوف يُعدم بغير محاكمة. وأثناء سنوات خدمة يسوع لاحظنا أن هذه المجموعة من التلاميذ اشتملت على سمعان الغيور. ومن الناحية الأخرى، فإن علاقات يسوع بالأمم والأجانب ـــ مثل السامري الصالح ـــ كانت تثير غضب هؤلاء الغيورين.

وعلى النقيض من ذلك فقد حاول البعض الآخر أن يتعاونوا مع العدو، وأن يعملوا في داخل هذا النظام. وقد منح الرومان سلطة محدودة لمجلس يهودي يدعى السنهدرين. وفي مقابل هذه الامتيازات حاول هذا المجلس أن يتعاون في اكتشاف أي نوع من العصيان المسلح ومنعه من أن يحدث.

ويخبرنا المؤرخ اليهودي يوسيفوس عن فلاح أصيب بمرض عقلي وكان يصرخ ويقول: "ويل لأورشليم" في وسط زحام الأعياد. حاول السنهدرين معاقبته، ولكنهم فشلوا، فأحالوه إلى الحاكم الروماني الذي جلده حتى ظهرت عظامه. وعندئذ عاد السلام إلى المكان مرة أخرى.

وفي نفس هذا المجال أرسل السنهدرين ممثلين ليفحصوا كلاً من يوحنا المعمدان والمسيح. هل هما يمثلان تهديدًا حقيقيًا للسلام. وإذا كان هذا صحيحًا هل يُسلِّمان للرومان؟ واستعمل قيافا رئيس الكهنة وجهة نظر أعضاء السنهدرين وقال: "من الأفضل لكم أن يموت رجل واحد من أجل الأمة على أن تموت الأمة بأكملها".

كان الصدقيون من أسوأ المتعاونين مع الرومان. عاشوا في البداية طبقًا للتقاليد اليونانية وتعلموا لغة الإغريق وأسلوبهم في الحياة ثم تعاونوا مع المكابيين، ثم الرومان، والآن يتعاونون مع هيرودس. ولا يؤمن الصديقيون بالقيامة والحياة الأبدية. ما يحدث فليحدث، وطالما لا يوجد في المستقبل نظام لثواب أو عقاب فعلى الإنسان أن يتمتع بحياته المحدودة على الأرض. وقد استمتعوا بحياتهم إذ كانت لهم القصور الفخمة، وأدوات المطبخ الفضية، والذهبية.

أما الفريسيون فهم الحزب الشعبي للطبقة المتوسطة، فإنهم وجدوا أنفسهم دائمًا في مكان متوسط بين أعضاء السنهدرين المتعاونين مع الرومان وبين المنعزلين عنهم. وكانوا يتمسكون بدرجة عالية من النقاوة، وخاصة فيما يختص بالسبت، والشعائر الدينية، وتوقيت الأعياد. وكانوا يعاملون اليهود غير المتمسكين بهذه الأمور مثل معاملتهم للأمم فيستعبدونهم من المجالس المحلية، ويقاطعون أعمالهم، ويفصلونهم عن موائدهم، وشئونهم الاجتماعية. ورغم هذا فقد أخذ الفريسيون نصيبهم من الاضطهاد: فقد صلب ٨٠٠ فريسي دفعة واحدة في يوم واحد. وبالرغم من إيمانهم العاطفي بالمسيا فكانوا يترددون في اتباع المسيح بعد أي عمل معجزي قد يجلب كارثة على الأمة.

كان الفريسيون حريصين في معاركهم، وكانوا على استعداد للتضحية بحياتهم عند الضرورة، وفي إحدى المرات رفض بيلاطس البنطي اتفاق سابق مع اليهود يقضي بألا تدخل قوات رومانية أورشليم حاملة أيقونة بها صورة الإمبراطور. لقد اعتبر الفريسيون هذا الأمر

على أنه نوع من الوثنية. وكنوع من الاحتجاج قام جمهور من اليهود معظمهم من الفريسيين بالوقوف خارج قصر بيلاطس لمدة خمسة أيام وليال في حالة إضراب، وهم جلوس على الأرض يبكون ويتوسلون إليه بألا يفعل ذلك. وأحالهم بيلاطس إلى القوات الرومانية، وهددهم بالموت إن لم يكفوا عن ذلك. وإذا بهم يسقطون على وجوههم، ويمدون أعناقهم معلنين استعدادهم للموت على أن يعصوا الناموس. وأمام هذا تراجع بيلاطس.

وعندما أفكر في كل مجموعة من هذه المجموعات أسجل إعجابي بالفريسيين لأسلوبهم العملي في التعامل مع الحكومة القائمة وتمسكهم بمبادئهم. هؤلاء الناس المنظمون أخرجوا مواطنين صالحين. أما التقدميون مثل (المفرزين زالأسنينين Essenes) (والغيورين Zeaiots) فيصيبونني بالعصبية. كما أنني أعتبر الصدوقيين انتهازيين. ولهذا، فأنا كمتعاطف مع الفريسيين كنت سأقف بعيدا مع الذين يستمعون ليسوع، وأنا أشاهده يتعامل مع القضايا اليومية الساخنة.

هل كان يسوع سيكسبني إلى جانبه؟ لا أستطيع الإجابة بسهولة على هذا السؤال. فبين وقت وآخر استطاع يسوع أن يُربك ويبعد كلاً من المجموعات الكبيرة في فلسطين. واختار طريقًا ثالثًا ليس هو الانعزال، ولا هو التعاون مع العدو واستطاع أن يحول التفكير من مملكة هيرودس أو القيصر إلى ملكوت السماوات.

ورغم هذه الاختلافات بين طوائف الفريسيين والغُيُورين والصديقيين، فكان لهم هدف واحد، وهو حفظ كل ما هو يهودي. كان يسوع يمثل تهديدًا لهذا الهدف، وأثق أنني فهمت هذا الهدف. حاول اليهود أن يقيموا سورًا حول ثقافتهم آملين أن ينقذوا أمتهم الصغيرة التي لها القيم السامية من الأمم الوثنية حولهم. هل يستطيع الله أن يحررهم من الرومان كما حررهم من مصر؟ وهناك تقليد يقول أنه لو تاب كل الإسرائيليين في يوم واحد، أو لو أنهم حفظوا يومي السبت بطريقة كاملة عندئذ سوف يأتي الفداء بالمسيا

سريعًا. وهناك نوع من النهضة الروحية السرية التي تدعو إلى بناء هيكل جديد، وسيكون هذا الهيكل عبارة عن منصة ضخمة تشمل كل مدينة القدس. وأصبح هذا الهيكل نقطة التركيز للأمل، والكبرياء الوطني في المستقبل.

وإنني مثل يهود آخرين كنت سأحكم ضد هذه الخلفية على ما قاله يسوع عن الشريعة، وحفظ يوم السبت، وعن الهيكل. كيف كنت سأوفق بين احترامي للقيم العائلية، وما جاء في التعليق التالي: "كل من يأتي إليَّ، ولا يبغض أباه وأمه وزوجته وأطفاله وإخوته وأخواته لا يستطيع أن يكون لي تلميذًا؟" ماذا كان يقصد يسوع بهذا؟ وتشبيه آخر مماثل لهذا: "أستطيع أن أهدم الهيكل وأبنيه في ثلاثة أيام" وهذا ليس نوعًا من الافتخار ولكن اعتبره اليهود نوعًا من التجديف، بل يصل إلى حد الخيانة إذ أنه يصيب بقوة ما يربط اليهود معًا وهو الهيكل. كما أن غفران يسوع لخطية شخص ما كان يبدو لهم أمرًا غريبًا وغير مقبول. من هذا الذي يستطيع أن يهدم الهيكل ويغفر الخطايا.

وكنتيجة لهذا، فإن المخاوف اليهودية على زوال ثقافتهم كان لها ما يبررها. لم تكن المخاوف من يسوع، ولكن من شخصيات ثورية أخرى التي قادت الثورات (في سنة ٧٠ م)، وهذا ما دفع روما لأن تدمر الهيكل، وتسوي كل أورشليم بالأرض، وأعادوا بناء المدينة كمستعمرة رومانية بهيكل للإله جوبتر ليشغل نفس مكان هيكل اليهود. ومُنع اليهود من دخول المدينة. وأقامت روما منفى لن ينتهي حتى نهاية جيلنا وغيرت وجه اليهودية إلى الأبد.



التجربة:
التي تكشفت في البرية

"الحب يوافق الجميع، ولكنه يقود فقط أولئك الذين يقبلونه. إنه نوع من التنازل، والله هو النموذج لهذا التنازل."

سيمون ويل *Simone Weil*



التجربة:

التي تكشفت في البرية

تؤكد الأناجيل أن يسوع، هذا اليهودي الذي نشأ في ريف الجليل، ما هو إلا ابن الله النازل من السماء ليقود معركة ضد الشر. وهذه الإرسالية تثير في أذهاننا أسئلة معينة عن أولويات المسيح. وفي قمة هذه الأسئلة الكوارث الطبيعية التي تحدث. فإذا كان للمسيح القوةعلى شفاء المرض وإقامة الموتى فلماذا إذًا لا يتعامل مع مشاكل أصغر مثل الزلازل، والعواصف، والفيروسات التي تسبب الأوبئة؟

ويُرجع الكثيرون من الفلاسفة واللاهوتيين الأمراض الموجودة على الأرض كنتيجة لحرية الإنسان التي هي أيضًا تثير العديد من الأسئلة. هل نحن حقيقة نتمتع بالكثير من الحرية؟ لنا الحرية أن نؤذي ونقتل بعضنا ونثير حروبًا عالمية ونفسد كوكبنا الذي نعيش عليه. بل ونحن أحرار أيضًا في أن نتحدى الله لكي نعيش بلا أيّة روابط كما لو أنه لا وجود لعالم آخر. وعلى أقل تقدير كان في إمكان يسوع أن يبتدع برهانًا لا يقبل الشك؛ لكي يُسكت كل الشكوك، ويوقف كل أمر شاذ ضد الله.

كان أول عمل علني قام به يسوع هو عندما ذهب إلى البرية لمقابلة المشتكي وجهًا لوجه، وأعطاه الفرصة لكي يثير كل هذه المشاكل. لقد أغوى الشيطان ابن الله؛ لكي يحاول تغيير قوانين الله، ويصل لأهدافه بأقصر الطرق. وكان هناك أمر هام في شخصية المسيح ذاتها ظهر على السهول الرملية في فلسطين، وكان التاريخ الإنساني في الكفة الأخرى.

عندما قرأت قصة تجربة الشيطان للمسيح كان يبدو لي أنها كانت في غيبة شهود العيان، فكل التفاصيل سردها يسوع نفسه. ولسبب ما شعر يسوع أنه كان مضطرًا لأن يخبر تلاميذه بتلك المعركة مع الشيطان. رغم أن هذه التجربة كانت معركة حقيقية، وليست دورًا قام به المسيح كان معدًا سلفًا. إن نفس المجرب الذي وجد في آدم وحواء قابلية للسقوط هو نفسه الذي وجه سهامه للمسيح بدقة شديدة.

ويعد لوقا المسرح بنغمة درامية قائلاً: "أَمَّا يَسُوعُ فَرَجَعَ مِنَ الأُرْدُنِّ مُمْتَلِئًا مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَكَانَ يُقْتَادُ بِالرُّوحِ فِي الْبَرِّيَّةِ ٢ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يُجَرَّبُ مِنْ إِبْلِيسَ. وَلَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا فِي تِلْكَ الأَيَّامِ. وَلَمَّا تَمَّتْ جَاعَ أَخِيرًا". وكمحارب يقف بمفرده ظهر أمامه عملاقان في مكان مهجور: الأول هو بداية رسالته في أرض العدو، وكان يشعر بحالة من الضعف الشديد. والثاني هو الثقة والإيمان، وكان لهما المبادرة.

أشعر بالحيرة وأنا أقرأ تفاصيل التجربة. فقد سأل الشيطان المسيح أن يحول الحجارة إلى خبز، وعرض عليه كل ممالك العالم كما طلب منه أن يلقي بنفسه من مكان عال؛ ليختبر وعد الله بحمايته وحفظه.

أين الشر في هذه الطلبات؟ فيبدو أن التجارب الثلاثة هي ذات الصفات المتوقَّعة من المسيَّا. ألم يبارك يسوع الخبز، وأشبع الخمسة الآلاف، وهو أمر قوي بكثير مما طلبه الشيطان؟ كما أنه هزم الموت وقام؛ ليصبح ملك الملوك. ولا يبدو على هذه التجارب أي نوع من الشرور، ورغم هذا فإن أمرًا بالغ الأهمية حدث في البرية.

يقدم الشاعر البريطاني جيرارد هوبكنز التجربة على أنها كانت جلسة تعارف بين المسيح والشيطان. ولأن الشيطان لم يكن يعرف شيئًا عن التجسد؛ فلم يكن متأكدًا ما إذا كان المسيح إنسانًا عاديًا، أو في حالة تجلٍ، أو ربما يكون ملاكًا وله قوة محدودة مثله هو. فتحدى يسوع؛ لكي يجري بعض المعجزات، لكي يكتشف ما لديه من قوة.

ويذهب مارتن لوثر أبعد من ذلك قائلاً أن يسوع طوال حياته: "كان يعيش حياة متواضعة، وتعامل مع رجال ونساء خطاة؛ وكنتيجة لهذا لم ينل تقديرًا كبيرًا من الناس"، ولهذا لم يدرك الشيطان دور يسوع. ولأن الشيطان بعيد النظرٍ؛ فهو ينظر فقط لما هو ضخم وعال، ولا ينظر إطلاقًا لما هو أقل من ذلك.

وبحسب ما جاء في الأناجيل يتعامل المتحاربون معًا بنوع من الحذر كملاكمين يدوران حول بعضهما البعض في حلبة المصارعة. وبالنسبة ليسوع فقد كان كل اهتمامه الأول هو رغبته في تحمل التجربة. لماذا لم يقض على المجرِّب، وينقذ التاريخ الإنساني من شروره؟ لم يوافق يسوع على ذلك.

عرض الشيطان أن يتخلى عن رغبته في السيطرة على العالم في مقابل أن يرضى بالسيطرة على ابن الله. ورغم أن الشيطان هو الذي فرض هذه التجارب، فإنه هو نفسه الذي فشل فيها. في اثنتين منهما طلب من المسيح أن يثبت نفسه، أما في الثالثة فقد طلب من المسيح أن يسجد له، وهو أمر لن يقبله الله.

لقد كشفت التجربة قناع الشيطان في حين ظل الله محتجبًا. قال الشيطان للمسيح: "إذا كنت أنت الله أظهر لي ذلك. افعل كما يفعل الله". فأجاب يسوع: "الله وحده هو الذي يستطيع أن يتخذ هذه القرارات لذلك لن أنفذ شيئًا مما تطلب". وعندما ألتقى المسيح بالشيطان في البرية ــــ وهو في سن الثلاثين ــــ أدرك كل امتيازات كونه إنسانًا. وعاش بارتياح داخل حُلَّة الجسد.

وعندما رجعت إلى الثلاث تجارب رأيت أن الشيطان قدم عرضًا مغريًا. وحاول أن يُغرى يسوع بالأمور الطيبة بالنسبة لكونه إنسان: كأن يتذوق طعم الخبز دون التعرض لمتاعب الجوع والزراعة، أو يواجه المخاطرة دون التعرض للخطر، أو يتمتع بالشهرة والقوة دون التعرض للرفض المؤلم. وباختصار أراده أن يلبس تاجًا لا صليبًا.

تقترح أناجيل الأبوكريفا —التي ترفضها الكنيسة— ماذا كان سيحدث لو أن المسيح خضع لتجارب الشيطان. وتبين لن هذه القصص الخيالية الطفل يسوع، وهو يصنع طيورًا من الطين، ويبعث فيها الحياة بنفخة من فمه. ثم يلقي بالسمك الميت في الماء، وبطريقة معجزية يبدأ السمك في السباحة. ويحول يسوع أقرانه من الأطفال إلى أغنام لكي يعلمهم درسًا، ويصيب الناس بالعمى والصمم؛ لكي يتمتع بالإثارة عن طريق شفائهم. إن أناجيل الأبوكريفا التي ظهرت في القرن الثاني تشبه كتب الكوميدية الحديثة عن الولد الخارق للطبيعة، أو الفتاة الوطواط. وتظهر قيمة هذه الأناجيل في مدى تناقضها مع الأناجيل الفعلية التي بين أيدينا والتي تُظهر المسيا الذي لم يستخدم القوى المعجزية لكي يستفيد منها شخصيًا. وبداية بالتجارب أظهر يسوع رفضاً لأي أمر يكسر القوانين الأرضية.

وجد مالكولم ماجريدج نفسه مستغرقًا في التفكير في تجارب المسيح عندما كان يصور فيلمًا تسجيليًا في إسرائيل وقال: "في اللحظة المحددة لبداية الفيلم، وكانت الظلال ممتدة، والضوء خافتا بعض الشيء، حدث أن رأيت في مكان قريب أحجاراً ممتدة ومتشابهة، وهي تشبه أرغفة الخبز بطريقة غير عادية مخبوزة جيدًا، وذات لون بني. كما كان سهلاً على يسوع أن يحولهما إلى خبز حقيقي كما حول الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل. ولكن لماذا لم يفعل هذا؟ لقد وزعت السلطات الرومانية الخبز مجانًا لكي تقنع الناس بمملكة قيصر، وكان بإمكان يسوع أن يفعل نفس الشيء، ليقنع الناس بمملكته.

كان بإمكان يسوع بمجرد إيمائه بالموافقة أن يقيم العالم المسيحي ليس على أساس أربعة أناجيل، ومسيح مصلوب على الصليب، ولكن على أساس قوي من التخطيط على أسس ومبادئ اجتماعية واقتصادية. وكان يمكن تحقيق كل المثل، والأحلام، والآمال الذي كانت في ذهنه. وكان سيُنظر بمقتضاها ليسوع على أنه رجل محب للخير، وسيقام له تمثال في ميدان البرلمان، وآخر أكبر منه على تل الكابيتول، وتمثال آخر في الميدان الأحمر بموسكو، ولكن بدلاً من كل هذا قدم يسوع نفسه لخليقته على الأرض، لكي يعبد الناس الله وحده.

وكما يرى ماجريدج الأمر: "كانت التجربة تدور حول السؤال المهم في أذهان الريفيين في الجليل التي تربى فيها المسيح: ما الذي يجب أن يشبهه المسيا؟ هل هو المسيا الذي يستيع أن يحول الحجارة إلى خبز لكي يطعم الجماهير؟ أو هو مسيا التوراة طويل القامة والذي يقف باحترام في الهيكل؟ أو هو المسيا الملك الذي لا يحكم إسرائيل فقط بل كل ممالك الأرض؟".

وباختصار كان الشيطان يمنح يسوع الفرصة لكي يكون المسيا العظيم الذي كانوا يريدونه. لقد أدركت وصف ماجريدج أعتقد أنني المسيا الذي أريده.

إننا لا نريد المسيا الذي يعاني. فعندما طلب الشيطان من المسيح أن يِلقي بنفسه من مكان عال هدفه أن يختبر عناية الله به. وطَفَتْ هذه التجربة على السطح مرةً أخرى. وفي لحظة غضب وبَّخ يسوع بطرس بعنف قائلاً: "أبعد عني يا شيطان" عندما لم يقبل بطرس كلام يسوع عن آلامه وموته قال: "لا يا سيد لن يحدث لك ذلك"، وضرب هذا الرد التلقائي على وتر حساس. فقد ذكَّرتْ كلمات بطرس يسوع بتجربة الشيطان، وإغرائه بالطريق الأسهل.

لقد سمع يسوع تكرار التجربة الأخيرة، وهو مُسَّمر على الصليب. قال اللص مستهزئًا: "إن كنت أنت المسيح، فخلص نفسك وإيانا". والذين شاهدوا الصلب صاحوا قائلين:

"لينزل الآن المسيح ملك إسرائيل عن الصليب لنرى ونؤمن" "قد اتكل على الله، فلينقذه الآن إن أراد". ولكن لم يكن هناك أي إنقاذ ولا أية معجزة ولا أي طريق سهل وبدون ألم. فلكي يُخلِّص المسيح آخرين لا يقدر أن يخلص نفسه. لابد وأن يسوع عرف هذه الحقيقة عندما واجه الشيطان في البرية.

تتركز تجاربي أنا في نوع آخر من التجارب مثل الشهوة والطمع. أما عندما نفكر في تجارب يسوع فقد تركزت على سبب مجيئه إلى الأرض وأسلوب عمله. وضع الشيطان أمام يسوع طريقة سهلة وسريعة؛ لتحقيق رسالته. ففي إمكانه السيطرة على الجماهير بإعطائهم الطعام عندما يطلبونه، ثم بإمكانه أن يرأس ممالك العالم، ويحمي نفسه من الخطر.

لقد وجدت مثل هذه الأفكار في كتابات ديستوفسكي الذي جعل مشهد التجربة مركز الرواية العظيمة "الإخوة كرامازوف" يكتب إيفان كرامازوف – الأخ اللا أدري – شعرًا دعاه "الباحث الأعظم". وفي هذا الشعر نرى يسوع متنكرًا يزور المدينة في وقت يُحرق فيه المهرطقون. والباحث الأعظم هو كاردينال، رجل عجوز في التسعين من عمره طويل، ومنتصب القامة ذو عيون غائرة. يتعرف هذا الرجل على يسوع، ويلقي به في السجن. وهناك يظهر الاثنان في مشهد يذكرنا بتجربة المسيح في البرية.

كان للباحث اتهامٌ وجهه ليسوع برفض يسوع التجارب الثلاثة فهو بذلك رفض أعظم ثلاث قوى تحت يده: "المعجزة، والسر، والسلطة" لو نفذ يسوع طلب الشيطان وأجرى المعجزة لكانت شهرته قد ازدادت بين الناس. وكان عليه أن يقبل هذه الفرصة للسلطة والقوة. ألم يدرك يسوع أن الناس يريدون أكثر من أي شئ آخر أن يعبدوا ما لا يقبل الجدال أو المناقشة؟ ولكن يسوع بدلا من أن يستولي على حرية الإنسان، فقد زاد هذه الحرية، وتحمل عبء المملكة الروحية بكل معاناتها وإلى الأبد. كان

يرغب في تمتع الإنسان بحرية الحب حتى يتبعه بكامل حريته لكي يأسره يسوع بحبه.

إن المشهد الذي رأيناه في "الإخوة كرامازوف" أضاف نوعًا من التأثير الشديد؛ لأنه في أثناء كتاباته كان الثوريون في روسيا ينظمون أنفسهم. وكما لاحظ ديستوفسكي أنهم اقتبسوا بعض أساليبهم من الكنيسة. فقد وعدوا بأن يحولوا الحجارة خبزًا، ويضمنوا الأمن والأمان لكل المواطنين في مقابل أمر واحد بسيط وهو حريتهم. وسوف تصبح هي الكنيسة الشيوعية الجديدة في روسيا كنيسة مؤسسة على المعجزة، والسر، والسلطة.

وبعد قرن من رواية ديستوفسكي التي كتب فيها حوارًا عن الحرية والقوة كانت لي الفرصة لزيارة البلدة التي ولد فيها، وشاهدت شخصيًا نتائج سبع فترات من الحكم الشيوعي. ذهبت إلى هناك عام ١٩٩١ عندما كانت الإمبراطورية السوفيتية تتفتت، وسلم ميخائيل جرباتشوف السلطة إلى بوريس يلتسن، وكانت كل الأمة تحاول اكتشاف ذاتها. فقد انحلت القبضة الحديدية، واستطاع الناس أن يقولوا كل ما يريدون بكل حرية.

أتذكر اجتماعًا حدث بيني وبين محرري جريدة البرافدا التي كانت لسان حال الحزب الشيوعي. وكأية مؤسسة أخرى فقد خدمت البرافدا الكنيسة الشيوعية بطريقة سيئة. والآن قد انخفض توزيعها (من المليون إلى ٧٠,٠٠٠) بسبب سقوط الشيوعية. واهتز المحررون من الأعماق حتى أنهم كانوا يطلبون النصيحة من الجواسيس الذين كانوا يتجسسون على العقيدة التي كانوا يعتبرونها أنها أفيون الشعوب. وأبدى المحررون ملاحظاتهم بحزن قائلين: "إن كلاً من المسيحية والشيوعية لهما نفس المُثل: المساواة والمشاركة والعدالة والتوافق العنصري. ورغم هذا فقد اعترفوا: أن ماركس وهو يحاول تحقيق هذه الرؤية أحدث أسوأ كابوس رآه العالم". لماذا؟

قال نائب رئيس التحرير: "لا نعرف كيف نحرك الناس على أن يُظهروا نوعًا من العطف للآخرين". حاولنا جمع

تبرعات من أجل أطفال تشرنوبل، ولكن المواطن الروسي يفضل أن يصرف أمواله في شرب الخمر. كيف تُصلح مثل هؤلاء الناس، وتحولهم إلى مواطنين صالحين؟

لقد أثبتت ٧٤ عامًا من الشيوعية أن الصلاح لا يمكن فرضه بقانون من الكرملين، أو بقوة السلاح. إن محاولات الشيوعية الحديدية لقهر الأخلاق أنتجت رعايا مهزومين، وحكاماً طغاة فقدوا دورهم الأخلاقي. غادرت روسيا، وأنا أحمل شعورًا قويًا بأن المسيحية سوف تفعل حسنًا أو أعدنا تعليم درس التجربة في البرية. إن الصلاح لا يمكن أن يُفرض من الخارج، بل ينبع من الداخل، وليس من أعلى إلى أسفل بل العكس. إن تجربة البرية تكشف الفرق العميق بين قوة الله وقوة الشيطان. إن للشيطان قوة الإجبار على طاعته وقوة التدمير أيضًا. وتعلم البشر الكثير من تلك القوة، ونهلت الحكومات من طبعها. فبالسياط والهروات يمكن إكراه الآخرين على فعل الشيء المراد منهم، إن قوة الشيطان قوة خارجية تتسم بالإكراه.

وعلى نقيض ذلك فإن قوة الله أمر داخلي، وليس فيها أي إكراه أو إجبار: "لن تستعبد إنسانًا بمعجزة كما لا يُعطى الإيمان مجانًا" هكذا قال المجرب للمسيح في رواية ديستوفسكي. قد تبدو هذه القوة في ضعف أحيانًا. وبسبب إلتزامها لإجراء التغيير بلطف من الداخل يتوقف هذا على الاختيار الكامل للإنسان، فإن قوة الله قد تظهر كنوع من التنازل. كما يعرف كل من الوالدين والمحبين أن الحب يمكن أن يفقد قوته إذا رفضه المحب باختياره.

قال توماس فيرثون: "إن الله ليس نازيًا"، فسيد الكون أصبح ضحيته، وبلا قوة أمام بعض الجنود في جسثيماني. اختار الله أن يكون ضعيفاً لهدف واحد: لكي يُمكّن الإنسان من أن يختار بحُرية ما يريد الله أن يفعله معه.

كتب سورين كيركجارد عن لمسة الله الخفيفة: "إن قوة الله التي يمكن أن تضع يدها بثقل على العالم يمكنها أيضًا أن تجعل لمستها خفيفة للغاية حتى تتمتع المخلوقات

بالاستقلال". وأحيانًا كنت أود من الله أن يستخدم لمسة أكثر ثقلاً. فإيماني يعاني من كثرة الحرية، ومن كثرة التجارب التي قد تُسبب عدم الإيمان. وفي أوقات أخرى أتمنى أن الله يحتويني لكي أتغلب على شكوكي بنوع من التأكيد، ليعطيني براهين نهائية على وجوده واهتمامه. وأود أن يكون لله دور أكثر فاعلية في الشئون الإنسانية أيضًا، فلو أن الله أبعد صدام حسين عن الحكم، كم من الأرواح كانت قد أنقذت في حرب الخليج؟ ولو فعل الله نفس الشيء مع هتلر كم من اليهود كانوا قد أنقذوا؟ لماذا يجلس الله متفرجًا.

وأريد أيضًا أن الله يأخذ دورًا أكثر فاعلية في تاريخي الشخصي، أريد استجابة سريعة لصلواتي، وشفاء لأمراضي، وحماية وأمنًا لمن أحبهم. أريد إلهًا غير غامض يمكنني ان أشير إليه أمام أصدقائي المتشككين.

عندما أفكر في هذه الأمور أشعر في داخلي بصدى أجوف للتحدي الذي صوبه الشيطان للمسيح منذ ألفي عام. إن الله يقاوم هذه التجارب الآن كما قاومها يسوع، وهو على الأرض. وبدلاً من ذلك فإنه اتبع أسلوبًا اتسم باللطف والهدوء. قال جورج ماكدونالد: "بدلاً من سحق قوة الشر بالقوة الإلهية، وبدلا من فرض العدالة بالقوة وتدمير الشر، وبدلاً من جعل السلام على الأرض تحت حكم أمير، وبدلاً من تجميع أطفال أورشليم تحت جناحي—سواء أرادوا ذلك أم لا—وإنقاذهم من الرعب الذي حدث لهم، فقد ترك الشر ينفذ إرادته. وارتضى بالطرق البطيئة التي لا نشجعها نحن، وبذلك حوَّل الناس للصلاح بهزيمة الشيطان وليس بمجرد التحكم فيه. فلكي نحب البر يجب أن ندعه ينمو لا أن ننتقم منه".

لقد صاح يسوع قائلاً: "يا أورشليم يا أورشليم كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها وأنتم لم تريدوا". واقترح التلاميذ أن ينزل يسوع نارًا على المدن التي قاومتهم صرخ مندهشًا: "آه ... لو علمتم ..." صدرت هذه الكلمات من شفتي ابن الله. إن يسوع لا يُقحم نفسه على الذين لا يريدوه.

كلما ازدادت معرفتي بيسوع، كلما تأثرت بما دعاه إيفان كرامازوف "معجزة التحفظ" التي اتبعها يسوع، إن المعجزات التي اقترحها الشيطان، والعلامات والأعاجيب التي طلبها الفريسيون، والبراهين التي اشتاق إليها كل هؤلاء لا تمثل عقبة خطيرة لإله مقتدر. ولكن الأمر المدهش هو رفضه لأن يقوم بهذه المعجزات لكي يؤثر على الجماهير. إن إصرار الله على حرية الإنسان هو إصرار كامل، حتى أنه منحنا القوة لكي نعيش كما لو أنه غير موجود، حتى أننا بصقنا على وجهه وصلبناه. كان يسوعٍ يعلم كل هذه الأمور عندما واجه التجربة في البرية، مركزًا قوته على مدى قدرته على التحفظ والتحكم وضبط النفس.

وأعتقد ان الله أصر على هذا التحفظ والتحكم في ذاته لأن استعراض قوته لن يحقق الاستجابة التي يرغبها. وبالرغم من أن القوة تستطيع أن تفرض الطاعة فإن الحب فقط هو الذي يعطي استجابة للحب، وهو الذي يريده الله منا والذي من أجله خلقنا. قال يسوعٍ: "وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع". ويُعلق يوحنا قائلاً: "قال هذا مشيراً إلى أية ميتة كان مزمعًا أن يموت". إن طبيعة الله هي العطاء، والحب المضحي.

أتذكر مرة، وأنا جالس في أحد المطاعم في مدينة شيكاغو، وأنا أستمع إلى رجل متألم يحكي قصة ابنه الضال قال: "الابن جاك لا يبقى في عمل ما، إنه يُنفق كل أمواله في المخدرات والخمر. ونادرًا ما كان يعود للمنزل، وسبَّب الكثير من الحزن لوالديه". ووصف لي الأب مشاعره بالعجز في كلمات ليست كالتي قالها المسيح عن أورشليم وقال: "كم أتمنى أن أعيده إلى المنزل وأبيِّن له كم أنا أحبه، ولكن الأمر الغريب ـــ رغم رفضه لي ـــ فإن حب جاك يعني الكثير بالنسبة لي أكثر من حب أولادي الثلاثة الآخرين. أليس هذا أمرًا غريبًا؟ ولكن هذا هو الحب".

وشعرت بأن الجملة الأخيرة التي تتكون من أربع كلمات تحتوي على معرفة نافذة لسر طول أناة الله أكثر مما قرأته

في أي كتاب آخر. لماذا يرضي الله بالأسلوب البطيء وغير المُشجِّع، ليجعل البر ينمو أكثر من أن ينتقم منه؟ ولكن هذا هو الحب. إن للحب قوة، بل هو القوة الوحيدة التي تستطيع قهر القلب الإنساني.

ورغم رفض يسوع لكل تجارب الشيطان، كان يجب على الشيطان أن يحمل عصاه، ويرحل بعد هذه المواجهة، وهو يشعر بالخزي والخجل. إن رفض يسوع لكل أوامر الشيطان تعني أن الشيطان يمكنه أن يواصل استخدامها مع آخرين. فمازالت ممالك العالم تحت أمره والآن قد تعلم درسًا من امتناع يسوع عن تنفيذ أوامره. ورغم هذا، فقد قال يسوع: "إن ملكوت الله ينمو في وسط الشر كما تنمو الحنطة وسط الزوان".

ويبدو لي أنه بحدوث التجارب في الصحراء أن يسوع قد عرض سُمعة الله للخطر. لقد وعد الله باستعادة الأرض لكمالها يومًا ما. ولكن ماذا عن الوقت الحاضر، إن مستنقع التاريخ الإنساني والوحشية حتى في تاريخ الكنيسة، والرؤية التي ستأتي. هل كل هذا يستدعي تحفظ السماء عن أن تفعل شيئًا؟ هل تستحق الحرية الإنسانية كل هذا الثمن؟ لا أحد ممن يعيش الآن يستطيع أن يجيب على هذا السؤال بطريقة صحيحة. وكل ما أستطيع أن أذكره أن يسوع — وهو المحارب الذي واجه رأس الشر (الشيطان) — كانت له القوة لكي يدمره، ولكنه اختار طريقًا آخر. فبالنسبة له كان الحفاظ على حرية الإنسان تستحق أي ثمن من أجلها. لم يكن الاختيار سهلاً لأنه تسبب في آلام له، ولأتباعه أيضًا.

وعند مراجعتي لبقية حياة يسوع أجد أن نموذج تحكمه في ذاته وامتناعه عن تلبية أوامر الشيطان، والذي بدأ وتأسس في البرية استمر معه طوال حياته. فلم أشعر أن يسوع أجبر أحدًا على فعل أمر ما، بل بالحري قد يُبين نتائج الاختيار، ويترك حرية الاختيار للطرف الآخر. أجاب مرة سؤال الشاب الغني بكلمات لا تحتمل حلا وسطاً وتركه يمضي. وعلق البشير مرقس قائلاً: "ونظر إليه يسوع

وأحبه"، وكان ليسوع نظرة واقعية في كيفية استجابة العالم له، وبسبب كثرة الإثم تفتر محبة الكثيرين. إن يسوع لم يكن مُجبرًا على تغيير كل العالم في أثناء وجوده على الأرض، أو يشفي الناس الذين ليس لديهم أي استعداد للشفاء.

وباختصار؛ يمكننا أن نقول أن يسوع أظهر احترامًا فائقًا للحرية الإنسانية. فعندما طلب الشيطان فرصة لكي يمتحن بطرس، ويغربل التلاميذ كالحنطة لم يرفض يسوع هذا الطلب وكانت إجابته: "طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك". وعندما تركت الجماهير يسوع، وهجرة الكثيرون من التلاميذ قال للاثنى عشر: "هل تريدوا أن تتركوني أنتم أيضًا". حتى وهو في طريقه إلى أورشليم للصلب قابل يهوذا، لم يحاول أن يمنع يهوذا من تسليمه، وكان هذا أيضًا هو نتيجة تحكمه في ذاته. قال يسوع في دعوته المدّوية التي كان يرددها دائمًا: "احمل صليبك واتبعني".

يكشف التاريخ المسيحي لخزيه عن المحاولات الدائمة لتغيير أسلوب المسيح. فأحيانًا تضع الكنيسة يدها في يد الحكومة التي تقدم لها طريقًا مختصراً للقوة: "إن عبادة النجاح هي صورة لعبادة الأصنام التي يزرعها الشيطان بكل اجتهاد" هذا ما كتبه هلموث ثايليك عن الكنيسة الألمانية التي كانت مفتونة بأدولف هتلر. وأحيانًا ما تقوم الكنيسة بخلق هتلر صغير لها. رجال مثل جيم جونس ودافيد كورش الذين فهموا جيدًا القوة المتمثلة في المعجزة، والطقوس السرية، والسلطان. وأحيانًا تستعير الكنيسة أدوات المناورة، وتستكملها بالسياسة ورجال الأعمال والإعلان.

إنني أُشخِّص هذه الأعمال بسرعة، ورغم ذلك فعندما أتحول من تاريخ الكنيسة، وأفحص نفسي أجدني أيضًا عُرضة للتجارب. وأنني أحتاج إلى قوة الإرادة لمقاومة الحلول ذات الطريق المختصر للاحتياجات الإنسانية. أحتاج إلى نوع من الصبر لأسمح لله أن يعمل بطريقة بطيئة ولطيفة. أحتاج لأن أتحكم في نفسي لأساعد الآخرين

على إنجاز الأمور التي أؤمن بها. أنا على استعداد للتضحية ببعض الحرية لضمان الأمان والحماية ولتحقيق طموحاتي.

عندما أشعر بهذه التجارب تثور في داخلي أعود لتجربة المسيح مع الشيطان في البرية. إن مقاومة يسوع ضد تجارب الشيطان حفظت لي الحرية التي أحتاجها وأمارسها عندما أواجه تجاربي الخاصة. وأطلب في صلاتي نفس الثقة والصبر اللذين أظهرهما يسوع. وأفرح عندما أقرأ ما جاء في عبرانيين: "لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية... لأنه فيما قد تألم مُجربا يقدر أن يُعين المجربين".



لمحة مختصرة:

ما الذي كان يجب عليَّ أن ألاحظه؟

"كل ما في المسيح يدهشني. روحـه تُرهبني، وإرادتــه تُذهلني. ليست هناك أيّـة كلمة تصلح لمقارنته بأي شخص آخر. إنه في الحقيقة كائن خاص بذاته. بحثت في التاريخ لأجد مثيلاً له فلم أجد، كما بحثت عن أي كتاب يشابه الإنجيل فلم أجد. فلا التاريخ ولا الإنسانية ولا العصور ولا الطبيعة تستطيع أن تقدم لي شيئًا يمكنني مقارنته أو تفسيره.. ها هنا شئ غير عادي".

نابليون



لمحة مختصرة

ما الذي كان يجب عليَّ أن ألاحظه؟

بذل قانون الإيمان الرسولي جهدًا ملحوظًا في كتابة حياة المسيح في فقرة واحدة، مبتدئًا بميلاده، ثم ينتقل سريعًا إلى موته، ونزوله إلى الجحيم، وصعوده إلى السموات. انتظر قليلاً؛ ألا يوجد شئ ناقص هنا؟ ما الذي حدث في الفترة بين ولادته من العذراء مريم، ومعاناته تحت حكم بيلاطس البنطي؟ بطريقة أو بأخرى، فإن ما قاله يسوع، وفعله في فترة ٣٣ عامًا على الأرض، قد مُحيت بعجالة في تفسير حياته. كيف قضى وقته ها هنا على الأرض؟

إن ذكريات مدارس الأحد تقلل من مجهوداتي في محاولة رسم صورة عن حياة المسيح اليومية كما كنا نراها على مناظر اللوحة الوبرية. كان يسوع يُعلم هناك. ها هو ممسك بحمل، والآن يجلس مع المرأة السامرية، وانظر هناك مناقشة أخرى مع رجل اسمه نيقوديموس، وها هم التلاميذ يهتزون في قواربهم المصغرة على بحر اللوحة الوبرية الأزرق. أتذكر منظرا عن المسيح، وهو واقف في الهيكل ممسكاً بسوط في يده، لقد علمني هذا المنظر الكثير، أكثر مما علمني أي منظر آخر عن المسيح. ولكنني لم أشاهد

المسيح مرة في حفل ربما أكون قد تعلمت بعض الحقائق عن حياة يسوع في مدرسة الأحد ولكنه كشخص في ذاته فقد ظل بعيدًا.

وقد ساعدت الأفلام في إحياء صورة يسوع بالنسبة لي مثل فيلم "يسوع الناصري" لزيفريللي والذي بذل فيه مجهودًا كبيرًا، إذ حاول أن يكون مطابقًا لما جاء في الأناجيل. كانت هذه الأفلام تصور يسوع بطريقة حية — وليس كاللوحة الوبرية — وهو محاط بالجماهير، وكل يحاول أن يقترب منه، ليراه عن قرب، وليقدم له طلبه. وبينما أنا أصغي، وأشاهد هذه الأفلام، ثم أعود للأناجيل، فإني حاولت أن أدون ملاحظاتي. كنت أحاول ان أسجل شيئًا عن يسوع في تحقيقاتي الصحفية، بينما كانت تلك المناظر — في نفس الوقت — تؤثر فيَّ أنا تأثيرًا شخصيًا. ماذا أرى؟ ما الذي يؤثر فيَّ؟ وماذا يزعجني؟ كيف أنقل كل هذا إلى قرائي؟

لم أتمكن من أن أبدأ البداية العادية عند كتابة أي تقرير عن شخص ما لوصف ماهية الموضوع الذس سأكتب عنه. لا أحد يعلم. إن أول صورة حقيقية عن يسوع بدأت في الظهور في القرن الخامس، وكانت جميعها من رسم الخيال الخالص إلى أن صَّوره كشاب غير ملتح يشبه الإله أبوللو.

وفي عام ١٥١٤ لفَّق أحدهم وثيقة تحت اسم "بابليوس لينتولس" الحاكم الروماني الذي جاء بعد بيلاطس البنطي التي اشتملت على الوصف التالي ليسوع: "إنه رجل طويل القامة حسن المنظر، ولون شعره لا مثيل له، ومجعد بطريقة شيقة، ويغطي الجبهة كعادة أهل الناصرة. كانت جبهته عالية ومهيبة. لم تكن على وجنتيه أي بقع أو تجاعيد، وذات لون أحمر جميل. وكان هناك تناسق جميل بين أنفه وفمه. ولحيته تصل إلى أسفل الذقن. عيناه زرقاوان وصافيتان.."

تعرفت على يسوع من اللوحات الزيتية المعلقة على حوائط كنيستي أيام الطفولة. إن الشخص الذي لفَّق الوثيقة

الذي كتب هذه الجملة عن يسوع: "لم ير أي شخص يسوع وهو يضحك". هل قرأ هذا الرجل الأناجيل التي قرأتها أنا. إن الوثائق التي لم تكتب كلمة واحدة عن مظهره، ورغم هذا تصوره وهو يُجري معجزته الأولى في عُرس قانا الجليل حيث اكتسب سُمعة أنه: "أكول وشريب خمر"، وعندما انتقد القريسيون تلاميذه لعدم الصوم، فقال لهم يسوع: "كيف يصوم أصدقاء العريس، وهو معهم". ومن بين كل الصور التي اختارها يسوع لنفسه كانت هي تلك التي للعريس الذي نشر الفرحة في حفل الزواج.

عرضت مرة على أحد فصول مدارس الأحد صورًا عديدة للمسيح في أشكال متعددة: أفريقي، وكوري، وصيني، ثم سألت تلاميذ الفصل كيف تتخيلون صورة يسوع. قال معظمهم: إنه طويل القامة، ووسيم، ولم يقل أحد أنه بدين. وفي الكتاب المقدس لم أجد وصفًا جسمانيًا ليسوع إلا ما كتبه أشعياء قبل مولده بمئات السنين "لاصورة له، ولا جمال، فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه. محتقر ومخزول من الناس رجل أوجاع، ومختبر الحزن، وكمستر عنه وجوهنا محتقر فلم نعتد به" (أشعياء ٥٣).

ولأن الكتاب لم يذكر شيئًا من جهة هذا الأمر فلا نستطيع إجابة السؤال: ماذا يشبه يسوع بطريقة مؤكدة؟ وأعتقد أن هذا أمر طيب. وطبقًا لوصف أشعياء لا نجد أي إشارة على جماله أو فخامته أو أي شئ آخر في مظهره، لكي نوضح سر جاذبيته. إن سر جاذبية المسيح هي في أمر آخر. وسأتخطى مظهره الجسماني لكي أفكر في شخصية يسوع وماذا يشبه.

إن شخصية يسوع التي تظهر في الأناجيل تختلف كثيرًا عن الصورة التي كونتها أنا عنه من أفلام هوليود عن المسيح. في هذه الأفلام يتحدث يسوع بصورة هادئة، وبدون أي انفعال. ويسيرفي الحياة بطريقة هادئة لا شيء يزعجه. يقول الحكمة للجميع بنبرة معتدلة.

أما صورة المسيح التي تقدمها الأناجيل فهي صورة الإنسان الذي يجذب الآخرين. الذي تظل الجماهير أمامه

لمدة ثلاثة أيام بدون طعام، فقط لكي يسمعوا كلمات النعمة المؤثرة. وأحيانًا يبدو عليه الانفعال والاندفاع تحركه العاطفة، ويمتلئ بالشفقة. وتكشف لنا الأناجيل مدى استجابة يسوع العاطفية: يمتلئ بالرحمة عند رؤيته للأبرص، وبالحماس عند نجاح التلاميذ، ويغضب بشدة لذوي القلوب الفاترة من الناموسيين، ويحزن على المدينة التي لم تتجاوب مع خدمته، وأخيرًا صيحات الألم والحزن على الصليب في جسثيماني. وكان له صبر لا ينفذ مع الناس، ولكن لم يُظهر صبراً مع الظلم وكل المؤسسات الدينية التي كانت موجودة في تلك الأيام.

حضرت مؤتمر روحي للرجال، لمساعدتهم على الاتصال بمشاعرهم، والتحرر من القيود التي تفرضها عليهم الرجولة. وعندما جلست مع مجموعة صغيرة، وأنا أستمع لرجال آخرين يحكون عن محاولتهم للتعبير عن ذواتهم نحو الآخرين. أدركت أن يسوع عاش رجولة كاملة ومثالية حتى أن صورته مازالت عبر القرون حتى الآن في أذهان الرجال. ولقد صاح المسيح ثلاث مرات على الأقل أمام تلاميذه، لم يُخْف مخاوفه وتردده لطلب معونة الآب: "نفسي حزينة جدًا حتى الموت"، وقال للتلاميذ في جسثيماني: "ابقوا معي هنا" كم من القادة الأقوياء اليوم يُعرّضون أنفسهم للسقوط بين الأعداء؟

وبخلاف معظم الرجال الذين أعرفهم، كان يسوع يحب أن يمتدح الآخرين. عندما كان يجري معجزة كان يرجع الفضل فيها للشخص نفسه: "إيمانك قد شفاك". ودعى نثنائيل: "هذا إسرائيلي حقًا لا غش فيه"، وقال عن يوحنا المعمدان: "لا يوجد بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا"، وبطرس المتهور والمندفع قال عنه: "أنت صخرة..."، وعندما قدمت له مريم الطيب الناردين الخالص، ودهنت قدمي يسوع كنوع من الحب، والتكريس له، وانتقدها الكثيرون لتبذيرها دافع عنها يسوع وقال: إن قصة كرمها وسخائها سوف يُحكى بها إلى الأبد.

توضح لنا الأناجيل أن يسوع خلق علاقة من المودة بينه وبين الناس. وسواء كان قد تحدث مع السامرية على البئر أو مع نيقوديموس في البستان أو الصيادين عند البحيرة، فإنه كان يتحدث في الموضوع مباشرة. وبعد فترة وجيزة يكشف الناس كل أسرارهم للمسيح. لقد اعتاد الناس في تلك الأيام أن يحترموا رجال الدين جدًا، أما يسوع فإنه اقترب منهم، فاقتربوا إليه، وتجمهروا حوله لكي يلمسوه.

كتبت الروائية ماري جوردون عن تعاطف يسوع مع النساء والأطفال، واعتبرتها إحدى الصفات الرئيسية التي جذبتهم إليه وقالت: "إنني أعتبر يسوع بكل تأكيد هو البطل المحب الوحيد والحنون في الأدب. قال يسوع مرة لنساء أورشليم: "ويل للحبالى في تلك الأيام"، وتواصل ماري جوردن قولها: "أنا أعلم أنني أريد أطفالاً وكنت أشعر أن تلك الكلمات كانت لي أنا. وأفكر الآن: كم من الرجال يُقدرون متاعب السيدات الحوامل ورعايتهن للأطفال؟

إن يسوع لم يتبع جدول أعمال يومي يقوم به، وأشك في أنه كان سيُقدر أسلوبنا الحديث في المواظبة، وجداول الحضور، والانصراف. لقد حضر أفراحًا استمرت أيامًا. وكان يهتم بأي شخص يقابله سواء نازفة الدم التي لمسته، وهي خائفة، أو شحّاذ أعمى كان يصيح عند سماعه موكب يسوع. اثنتان من أكثر معجزاته تأثيرًا — اقامة لعازر وابنة يايرس — لأنه وصل متأخراً لكي يشفيهم، وهم مرضى قبل أن يموتوا.

كان يسوع خادمًا للآخرين. احتفظ بنفسه حراً لكي يكون على استعداد للخدمة في أي وقت، كان يقبل أي دعوة على الغداء، وكان يحضر معه فئات مختلفة من الناس، أناس أثرياء، أو حكام رومان، أو فرّيسيُون، أو عشارون، أو زناة، أو بُرص. أحب الناس أن يكونوا مع يسوع، فحيث وجد يسوع يوجد الفرح.

كان يسوع يشعر بالارتياح في مكان ما، ولا يشعر بذلك في مكان آخر. وأفكر في المشهد الوحيد الذي سجله الكتاب عن يسوع في فترة المراهقة عندما اختفى في أورشليم،

وكانت أمه تبحث عنه وقالت له: "يا ابني لماذا فعلت بنا هكذا. هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين "فقال لهما: "لماذا كنتما تطلبانني؟ ألم تعلما أنني ينبغي أن أكون فيما لأبي؟"، وكانت هناك معركة الولاء التي قسمت بين يسوع وعائلته. لم يشعر يسوع بالراحة في هذا العالم الذي كانت له الإرادة الحرة والثورات. وفي تلك الأوقات كان يعتزل ويصلي؛ ليستنشق بعض الهواء النقي الذي يمنحه القوة لمواصلة حياته على الكوكب الملوث، ورغم هذا فلم يحصل على استجابة دائمة لصلواته. ويخبرنا لوقا البشير: أنه صلى طوال الليل قبل أن يختار تلاميذه، ورغم هذا فكان من بينهم واحد خائن. وفي جسثيماني صلى قائلاً: "إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس"، ولم يحدث. ولكنه قاوم كل التجارب والآلام والإغراءات ليعطينا فداءًا أبديًا.

أما المشهد الذي يحمل مشاعر الراحة وعدم الراحة في ذات الوقت بالنسبة لطبيعة يسوع، فهو ذلك المشهد، عندما هبت الرياح في بحر الجليل، وأوشكت السفينة على الغرق، فوقف يسوع، وقال للبحر: "أسكت إبكم"، فخاف التلاميذ خوفًا عظيمًا، وقالوا بعضهم لبعض: "من هو هذا فإن الريح أيضًا والبحر يطيعانه"، وأظهر هذا الحادث للتلاميذ أن يسوع ليس كأي شخص آخر. ورغم هذا، فإن المنظر يشير أيضًا إلى عُمق التجسد. وقال الفيلسوف جاك مارتيان في هذا الصدد: "إن الله معرض للوقوع في يد الأعداء، لقد نام يسوع نتيجة للتعب. خالق سحب المطر هاجت عليه المياه وخالق النجوم شعر بالحر والعرق تحت شمس فلسطين. لقد خضع يسوع لقوانين الطبيعة التي كانت أحيانًا ضد رغباته: "لو أمكن أن تعبر عني هذه الكأس".

قال جون دومنيك كروسان عن المسيح ما يلي: "جاء المسيح من قرية صغيرة في الجليل، ولم يكن معروفًا. راقبته العيون الباردة والجامدة لفلاحين عاشوا طويلاً على الكفاف، ليعرفوا الخط الفاصل بين الفقر والعوز الشديد. كان يشبه الشحاذ الذي تحتاج عيناه إلى نوع من التذلل،

وصوته إلى تعلم الأنين، ومشيته إلى أن تكون متثاقلة. كان يتحدث عن ناموس الله، وكانوا يستمعوا إليه بغير اهتمام. فهم يعرفون كل شئ عن الناموس والقوة والمملكة والإمبراطورية، ولكنهم يعرفون كل هذه الأشياء في صورة الضرائب، والديون، وسوء التغذية، والمرض، وظلم الإقطاعيين، والمسَّ الشيطاني، وما كانوا يريدون معرفة حقيقته هو: هل ملكوت الله هذا يصلح لطفل كسيح أو والد أعمى أو شخص معتوه يصرخ في عزلة مؤلمة بين القبور على حافة القرية؟

اكتشف جيران يسوع بسرعة ما يستطيع أن يفعله من أجلهم. فقد جعل الطفل الأعرج يمشي، وفتح عيون العميان، وأخرج الأرواح الشريرة من الذين عاشوا في القبور. وعندما بدأ يسوع إرساليته للشفاء والتعليم بدأ جيرانه يتساءلون: "أليس هذا ابن مريم ويوسف النجار؟ من أين له هذه الحكمة والقوة على عمل المعجزات".

في البداية ــ ربما لمدة سنة ــ صادف يسوع الكثير من النجاح سعت وراءه الجماهير حتى أنه اضطر مرة لأن يهرب إلى قارب على الشاطئ. وكان شفاء المرضى قد أكسب يسوع شهرة. إن اليهود ــ الذين يعتقدون أن الشيطان هو سبب الأمراض، وأن رجال الدين يمكنهم أيضًا أن يوَّصلوا لهم بركة الله ــ لهم تاريخ طويل مع صانعي المعجزات (أحد هؤلاء كان يُدعى هوني وكان موجودًا قبل زمن المسيح وقد ذكره المؤرخ يوسيفوس)، وقد طلب يسوع من تلاميذه أن يدينوا هؤلاء السحرة.

اشتملت قصص المسيح للشفاء على حوالي ثلث حجم الأناجيل. وبحاستي الصحفية كنت أبحث في هذه القصص عن التقارير الطبية، وأقابل العائلات التي حدثت معها المعجزات. وكانت معجزات الشفاء متعددة الأشكال، فالبعض كان يُشفى في الحال، والبعض أخذ وقتًا، والبعض الآخر كان عليه أن يتبع تعليمات معينة. وقد لاحظت نوعًا من التناقض فيما يختص بالمعجزات. فمرة كان يسوع يشفي بطريقة تلقائية، ولم يرفض يسوع ولا مرة واحدة

إنسانًا محتاجًا. ومن الناحية الأخرى لم يعلن يسوع عن معجزاته وقواته. وأدان الجيل المعوج والملتوي الذي كان يطلب العلامات الظاهرية والملفتة للنظر، ولكنه قاوم كل ذلك كما قوم الشيطان في البرية. ويسجل البشير متى ما قاله يسوع للشخص الذي شفاه: "لا تخبر أحدًا". أما في الأماكن التي لم يكن لدى الناس أي إيمان، فلم يُجر يسوع أي معجزة.

وكنت أفكر فيما كان سيحققه شخص بمثل هذه القوات في روما أو أثينا أو الاسكندرية. واقترح عليه إخوته أن يركز عمله في أورشليم عاصمة إسرائيل، ولكن يسوع كان يفضل أن يكون بعيدًا عن دائرة الضوء. ولأنه لم يكن يثق في الرأي العام، فإنه قضى معظم وقته في المدن الصغيرة الحجم وقليلة الأهمية.

ورغم تكافؤ الضدين، لم يتردد يسوع أن يستخدم المعجزات كدليل ليثبت من هو: "صدقوني أنا في الآب والآب فيَّ، أو صدقوا المعجزات التي أجريها" قال هذا لتلاميذه. وعندما سُجن ابن خالته يوحنا المعمدان، وساوره الشك فيما إذا كان يسوع هو المسيا، أعطى المسيح تلاميذ يوحنا الرسالة التالية: "اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران. العمي يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصم يسمعون، والموتى يقومون، والمساكين يبشرون، وطوبى لمن لا يعثر فيَّ".

ولو بحثت عن كلمة واحدة لأصف بها يسوع لمعاصريه فسأختار كلمة المعلِّم. ولن نجد مثيلاً لحياة يسوع. قد نجد ما يشبه أسلوب يسوع في اجتماعات الإنجيليين المحدثين بخيامهم وفرقهم ولوحات إعلاناتهم وبريدهم الإلكتروني. إن أتباع يسوع الذين لم يكن لديهم مكان دائم ليعملوا فيه كانوا يتجولون من مدينة لأخرى بدون أي تخطيط مُسبق. قال يسوع: "للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، أما ابن الإنسان، فليس له أين يسند رأسه". ولو كان يسوع وتلاميذه عاشوا في عصرنا الحاضر لكان البوليس قد قبض عليهم بتهمة التشرد. كانت لي فرصة في الهند أن أشاهد شخصًا ما تشبه حياته حياة يسوع، حيث يتبع المسيحيون هناك طريقة

التجول التي يتبعها الهندوس والبوذيون. فالبعض يلتفون حول محطات القطارات، ويُعرَّفون أنفسهم للمسافرين، ويسألونهم ما إذا كانوا يريدون أن يعرفوا شيئًا عن الله. والبعض الآخر يسير، ومن حوله تلاميذه من مدينة إلى أخرى. وآخرون يدعون تلاميذهم؛ لكي يلتقوا معًا في الأشرم وهو مكان مخصص للعبادة ودراسة الكتاب.

إن المجموعة التي كانت تعمل مع يسوع لم يكن لها مركز رئيسي أو أي ممتلكات، أو أي موظفين فيما عدا يهوذا أمين الصندوق. ومالياً كانوا مفلسين. فلكي يُدّبر يسوع المال لدفع الضريبة التي طلبت منه أرسل بطرس ليصطاد سمكة. كما استلف عملة ليريهم صورة قيصر، واستعار حماراً لينتقل به، وأثناء سير التلاميذ في الحقول كانوا يأكلون السنابل التي صرح بها الناموس، وعندما التقى يسوع بشخصيات ذات تأثير مثل نيقوديموس أو الشاب الغني لم يفكر إطلاقًا في الاستفادة منهم.

كيف كان يسوع يعول نفسه؟ في منطقة الشرق الأوسط في تلك الأيام كان المعلمون يعيشون من الهدايا التي يتلقونها من المستمعين الذين يقدرونهم ويُعجبون بهم. ويذكر البشير لوقا أن بعض النساء اللاتي شفاهم يسوع (بمن فيهم زوجة وزير مالية هيرودس) قدمت مساعدات ليسوع: ومن الأمور المؤثرة للغاية أن بعض هؤلاء النساء قاموا بالرحلة الطويلة والخطيرة من الجليل إلى أورشليم في وقت الفصح، ومكثوا مع يسوع عند الصليب بعد أن تركه أقرب تلاميذه.

كان يسوع سيداً للمعلمين بكل المقاييس. لقد جذب أتباعه بكلماته القوية التي عبر عنها الشاعر جون بيريمان بأنها كانت: "كلمات مختصرة وقصيرة وقوية وممتعة". لقد أعطى يسوع أقوى تعاليمه بطريقة تلقائية وردَّ على أسئلة الجماهير بطريقة فورية: كان لامرأة سبعة أزواج ففي الأبدية ستكون زوجة لمن فيهم؟ هل هو أمر قانوني أن ندفع الضرائب للسلطات الوثنية؟ ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ كيف يولد الإنسان وهو شيخ؟

كنت أشعر بالدهشة وأنا أقرأ أمثال يسوع التي لا يجاريه أحد فيها وأعجب الكُتَّاب كثيرًا بمهارة يسوع في توصيل الحقائق العميقة في قصص يومية عادية كالمرأة التي أكرهت القاضي لكي يُجيبها من أجل لجاجتها، أو الرجل الذي سرقه اللصوص وتركوه بين حي وميت، والمرأة التي فقدت الدرهم، وكأنها فقدت كل ما تملك. إن يسوع كان يصف الحياة من حوله بكل بساطة.

وقد ساعدت هذه الأمثال يسوع في خدمته، فالكل كان يحب سماع القصص، واستحوذ يسوع على حب الجماهير في مجتمع غير متعلم من الفلاحين وصيادي السمك. ولأن القصص سهلة التذكر فقد ساعدت الأمثال على حفظ رسالة يسوع. فبعد عدة سنوات عندما فكر الناس فيما علمهم يسوع تذكروا هذه الأمثال بكل تفاصيلها كما لو كانت حية. إن الحديث بكلمات مجردة عن اللا محدود وعن حب الله عبر المحدود شيء، وأن نتحدث عن إنسان وضع حياته من أجل أحبائه شيء آخر.

يقول يوحنا البشير: إن المسيح جاء إلى الأرض "مملوءًا بالنعمة والحق" وتُلخص هذه العبارة رسالة يسوع. أما عن النعمة فلو قارناها بأولئك الذين حاولوا أن يُعقِّدوا الإيمان ويربطوه بالناموس نجد أن يسوع وعظ برسالة بسيطة عن محبة الله. وبدون أي سبب، وبكل تأكيد ليس لأننا نستحقه قدَّم الله حبه لنا مجانًا.

وفي مثل الفَعَلة في الكرم قال: "يُشبه ملكوت السموات رجلاً رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعلة لكرمه، فاتفق مع الفعلة على دينار في اليوم، ثم خرج نحو الساعة الثالثة، ورأى آخرين بطالين، فأرسلهم إلى الكرم. وفعل كذلك نحو الساعة الحادية عشرة أيضًا استأجر عمالاً عملوا لمدة ساعة واحدة. وفي مفهومنا العادي للقصة يمكن أن نفهم أن العمال الذين جاؤوا متأخرين بذلوا جهدًا مضاعفاً حتى أن المشرف قرر مكافأتهم بأجر اليوم كله. ولكن يسوع لم يشير إلى هذا بل أشار إلى كرم وسخاء صاحب الكرم (الله) الذي أعطى نعمته للكل على السواء.

لم يخدع أحدًا، وأخذ كل واحد مكافأة أكثر مما يستحق.

ورغم تركيزه على النعمة، لا يستطيع أحد أن يتهم يسوع بالتقليل من قداسة الله. من المحتمل أنني كنت قد تعثرت، لسبب تلك الحقيقة التي أعلنها يسوع إذ أنها لا تتفق مع تعاليم رجال الدين في ذلك الوقت. قال المعلمون في تلك الأيام: "لا نستطيع أن تفرض أي قيد على المجتمع ما لم تستطع الأغلبية أن تنفذه". لم يكن ليسوع هذا التحفظ. لقد وسَّع مفهوم جريمة القتل لكي تشتمل على الغضب: "من يبغض أخاه فهو قاتل"، والزنى لكي يشمل الشهوة: "من نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه"، والسرقة حتى تشمل من يشتهي ما لقريبه: "كُونوا أنتُمْ كامِلِينَ كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل". وبذلك فقد وضع مستوى أخلاقي يصعب الوصول إليه. قال يسوع: "احسِبوا حساب النفقة" وهو بذلك أعطى تحذيراً لكل من جرؤ على أن يتبعه.

حاخام حديث يُدعى يعقوب نيوزنر — أحد علماء اليهودية في العصر المسيحي المبكر — كتب كتابًا بعنوان "حاخام يتحدث معه يسوع" وكرس هذا الكتاب للإجابة على السؤال: كيف كان سيتجاوب مع يسوع؟ يحمل نيوزنر تقديرًا كبيرًا للمسيح والمسيحية ويقول: إن موعظة المسيح على الجبل قد أثرت فيه تأثيرًا كبيرًا حتى أنه كان يتمنى أن يسير مع الجماهير التي تبعت يسوع من مكان لآخر مستمتعة بحكمته. ويختم نيوزنر قوله: بأنه كان سيترك يسوع الذي من الناصرة لأنه اتخذ خطوة في الاتجاه الخاطئ بانتقاله من التأكيد على "نحن" كمجتمع يهودي إلى "أنا". لم يستطع نيوزنر أن ينتقل من التوراة إلى يسوع نفسه كمركز للسلطة، وخاصة عندما كان يشير قائلاً: "أنا والآب واحد". ويبتعد نيوزنر لأنه لا يستطيع أن يستوعب هذه النقلة الكبيرة في الإيمان.

كان في اعتقاده أن يسوع يشبه رجالاً آخرين مثل كونفوشيوس وسقراط وأن يسوع لم يكن يبحث عن الحقيقة، ولكن كان يشير إلى نفسه على أنه هو الحق. ويقول متى البشير: "كان يعلم كمن له سلطان، وليس كالكتبة".

لم يحاول الكتبة أن يقدموا أفكارا شخصية ولكنهم كانوا يبنون أقوالهم على ما جاء في التوراة، ولكن يسوع كانت له أفكاره الخاصة واستخدم التوراة في تعليقاته: "سمعتم أنه قيل.. أما أنا فأقول لكم ..."، إنه هو مصدر هذه التعاليم، وبينما كان يتحدث لم يجعل أي فرق بينه وبين الله. وقد فهم مستمعوه هذا القصد بكل وضوح، وهم يرفضون قائلين: "إن هذا الشخص يجدف".

بدون أي خوف لم يتراجع يسوع عن أية معركة. وقف مرة وسط جماهير تريد رجم امرأة زانية، ومرة أخرى وسط الحراس الذين أرادوا القبض عليه، ولكنهم عادوا إلى الهيكل، ولم يستطيعوا القبض عليه، وقالوا: "لم يتحدث أحد مثله"، وارتعبوا من حضوره. كما أعطى المسيح أوامره مباشرة للشياطين: "اسكت ... ابكم"، "أيها الروح الأخرس والأصم آمرك أن تخرج منه ولا تعود مرة أخرى". وكان الشياطين يعرفونه قائلين: "أنت قدوس الله. أنت ابن العلي".

وعندما صَّرح المسيح عن نفسه قائلاً: أنا والآب واحد، ولي سلطان أن أغفر الخطايا، وأبني هذا الهيكل في ثلاثة أيام"، هذه أقوال لم تُذكر من قبل، وسببت له متاعب كثيرة. في الحقيقة كانت تعاليمه تتواءم مع شخصه حتى إن الكثير من كلماته لم تعش طويلاً بعده، ومات الادعاء الكبير معه على الصليب. والتلاميذ الذين اتبعوه كمعلم عادوا ثانية لحياتهم السابقة قائلين: "كنا نرجو أنه سيكون الشخص الذي سيفدي إسرائيل"، ولكن القيامة حولت يسوع من قائل للحق إلى أن يكون هو الحق نفسه.

إنني أضع نفسي على حافة الجمهور الذي كان يتبع يسوع كباحث مخلص يأسره يسوع ولكني أرفض تمامًا أن أتهمه. وإذا حولت نظري إلى أولئك الذين حوله كنت سأرى مجموعات عديدة تلتف حوله. وهناك على بُعد كان الذين يسيرون وراءه بدافع حب الاستطلاع، مثلي، لأحاول رسم صورة عن يسوع. إن وجود هذه الجماهير ساعد على حماية يسوع، وهم يقولون: "إن كل العالم يسير وراءه"، وتردد أعداؤه في القبض عليه. وفي الأيام الأولى

كان اليهود يشتاقون أن يعلن يسوع الثورة على الرومان.

وفي دائرة أضيق رأيت مجموعة من حوالي ١٠٠ شخص من المخلصين من أتباعه، وأعتقد أن الكثيرين منهم كانوا من أتباع يوحنا المعمدان، وتبعوا يسوع بعد القبض على يوحنا، وقد اشتكى تلاميذ يوحنا من أن الجميع تحولوا لاتباع يسوع. وقد وجه يسوع معظم تعليقاته لهؤلاء التلاميذ، وقادهم إلى التزام أعمق بكلمات قوية مثل: "لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين، اتركوا محبة العالم، والملذات التي يقدمها لكم، انكروا ذواتكم، اخدموا الآخرين، احملوا صليبكم.." والعبارة والأخيرة لم تكن بلا هدف. فعبر طرق فلسطين كان الرومان يُسمَّرون على الصليب أخطر المجرمين كدرس عملي لتخويف اليهود. أية صورة يمكن أن تطبعها كلمات يسوع في أذهان أتباعه؟ هل سيقود هو موكباً من الشهداء؟ يبدو هذا. ويقول يسوع قولاً آخر: "من وجد حياته يضيعها ، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها". وكان التلاميذ يفتخرون بهذه التضحية فأجابهم يسوع: "أنتم لا تعرفون ما تطلبونه". هل يمكنكم أن تشربوا الكأس التي سأشربها. وفي إصرار ساذج يقولون: "نعم. نستطيع".

أحيانًا كنت اسأل نفسي ما إذا كنت أريد أن أرتبط بالتلاميذ. وبخلاف رجال الدين الآخرين، فإن يسوع قد اختار تلاميذه، وليسوا هم الذين اختاروه. إن جاذبية يسوع كانت عظيمة حتى إن مجرد بعض العبارات أقنعتهم لأن يتركوا أعمالهم وأسرهم، ليتبعوه. مجموعتين من الإخوة كانوا يعملون كشركاء في قوارب الصيد—يعقوب ويوحنا ثم بطرس وأندراوس—وبعد أن دعاهم يسوع تركوا كل شيء.

أصابتني الحيرة وأنا أفكر في هذا الخليط العجيب من التلاميذ، سمعان الغيور ينتمي إلى الحِزب الذي يعارض الرومان بشدة بينما متى العشار وظفه الرومان لجمع الضرائب. ولكن لم يكن بينهم واحد مثل المثقف نيقوديموس أو الرجل الثري يوسف الرامي. إن الإنسان يجب أن يدقق لاكتساب قدرات أي قيادة قوية.

ومن ملاحظاتي على التلاميذ يمكنني أن أقول أن السمة الواضحة لهم هي غباوتهم. قال لهم يسوع مرة: "هل أنتم أغبياء إلى هذا الحد؟ إلى متى أحتملكم؟"، فبينما كان يسوع يعلمهم عن القيادة الخادمة كانوا يتنازعون على من يكون الأول. لقد أغضب إيمانهم الضعيف يسوع. فبعد كل معجزة كانوا يشعرون بالقلق للمعجزة التالية ــ هل يستطيع أن يشبع ٥ آلاف ــ وماذا عن ٤ آلاف؟ ومعظم الوقت كانت سحابة من عدم الفهم تفصل التلاميذ الاثنى عشر عن يسوع. ولكن لماذا كان يسوع ينفق وقته مع هؤلاء التلاميذ؟ ووجدت الإجابة فيما كتبه البشير مرقس، الذي يذكر دوافع يسوع في اختياره الاثنى عشر: "لكي يكونوا معه ولكي يرسلهم ليبشروا".

"لكي يكونوا معه"؛ لم يحاول يسوع أن يخبئ وحدته، واعتماده على الآخرين. فقد اختار تلاميذه لا لكي يخدموه بل ليكونوا أصدقاءه، لقد شاركهم لحظات الحزن والفرح وطلبهم في وقت الحاجة إليهم. فقد أصبحوا عائلته الذين حلوا محل أمه وإخوته وأخواته. ولقد ضحوا بكل شيء من أجله كما ضحى هو نفسه بكل شيء من أجلهم.

"لكي يرسلهم ليبشروا" فمنذ بداية دعوته للاثنى عشر كان يسوع يعلم ما سيحدث له في الجلجثة يومًا ما. كان يعلم أن وقته قصير على الأرض، وأن نجاح إرساليته لا يعتمد فقط على ما سيحققه في السنوات القليلة التي خدمها، ولكن على ما سيفعله الاثنى عشر، ثم بعد ذلك الأحد عشر، الذين سرعان ما أصبحوا آلاف ثم ملايين بعد ما صعد إلى السماء.

وعندما أنظر للوقت الذي عاش فيه المسيح من منظور الوقت الحاضر وأجد أن التلاميذ كانوا أناسًا عاديين فإني أشعر بالأمل. فلم يختار يسوع أتباعه على أساس من الموهبة الذاتية أو الكمال .. أو احتمال أن يكونوا عظماء. فعندما عاش على الأرض أحاط نفسه بأناس عاديين أساؤوا فهمه، وفشلوا أن يمارسوا القوة الروحية، بل وأحيانًا تصرفوا مثل طلبة المدارس الذين يكونون صعبي

المراس. ثلاثة تلاميذ على وجه الخصوص: الإخوة يعقوب وبطرس ويوحنا الذين خصهم بتأنيبه الخاص—ومع ذلك فإن اثنين منهم أصبحا من أهم القادة في بداية المسيحية.

لا يمكنني أن أتحاشى فكرة أن يسوع كان يفضل أن يعمل مع متطوعين، لم يرجو منهم النجاح أو الفائدة. حدث مرة بعد أن أرسل ٧٢ تلميذًا في إرسالية للتدريب تهلل يسوع للنجاح الذي أحرزوه. في ذلك الوقت تهلل يسوع بالروح وقال: "أحمدك أيها الآب لأنك أخفيت هذه عن الحكماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب لأن هذا هو سرورك"، من هذه المجموعة البسيطة أسس يسوع كنيسته التي لم تتوقف عن النمو حتى الآن.

القسم الثاني

لماذا أتى ...؟

٦

التطويبات:

محظوظون هم سيئو الحظ

"إن القديس هو الذي يبالغ فيما يهمله أهل العالم"
ج. ك. شسترتون

٦

التطويبات:

محظوظون هم سيئو الحظ

استحوذت عليَّ عظة المسيح على الجبل في فترة المراهقة. وشعرت مرة بتبكيت شديد لتعلقي بالأمور المادية حتى أنني أعطيت أحد أصدقائي مجموعة من جوائز كرة السلة، وكان بها مجموعات أصلية قيمة. وكنت أتوقع مكافأة إلهية لهذا العمل، ولكنني فوجئت بصديقي، وقد باع هذه المجموعة في مزاد علني بثمن باهظ. فهدَّأتُ نفسي بالقول: "طوبى لكم إذا اضطهدوكم من أجل البر".

وبعد أن كبرت في السن مازالت موعظة الجبل في ذهني رغم محاولتي رفضها على أنها إفراط في الأساليب البلاغية. وكلما زادت دراستي لشخصية المسيح كلما زاد رسوخ الموعظة في ذهني. إن كل ما قاله كان بمثابة القلب في رسالته. وإذا فشلت في أن أفهم هذا التعليم فسأفشل في فهم يسوع شخصيًا.

لقد ألقى يسوع عظته الشهيرة في وقت بدأت شهرته في الصعود. كانت الجماهير تتبعه أينما يمضي، وعلى لسانهم سؤال واحد: هل جاء المسيا أخيرًا؟ وفي هذه المناسبة غير العادية تخطى يسوع الأمثال وأعطى الناس الفلسفة الكاملة

لحياتهم مثلما يفعل المرشح للانتخابات، وهو يعلن عن سياسات جديدة.

عندما جاء موعد تعليم التطويبات للفصل الذي كنت أقوم بالتدريس فيه في كنيسة شارع لاسال في شيكاغو، اتبعت أسلوبي المعتاد في مراجعة الأفلام عن يسوع. وعندما كنت أقوم بعملية اختيار الأجزاء المناسبة للدرس من هذه الأفلام كان يقتضي هذا وقتًا طويلاً كل أسبوع. ولكي أتغلب على هذا الملل، شاهدت قناة C.N.N الإخبارية، فوجدت أن الكثير من الأحداث التي حدثت في عام ١٩٩١ في نفس الأسبوع الذي كنت أُدَّرس فيه التطويبات. فقد انتصرت قوات الحلفاء على العراق في حرب الخليج. ومثل كل الأمريكيين صدقت بصعوبة أن الحرب قد انتهت بهذه السرعة، ثم ظهر على الشاشة نورمان شوارزكوف في مؤتمر صحفي، وهو يعلن دخول قوات الحلفاء إلى مدينة الكويت، ومعلناً القضاء على الحرس الجمهوري العراقي، والوصول إلى بغداد بدون مواجهة أية معارضة، وامتدح كل القوات التي شاركت في الحرب. وتبادرت إلى ذهني هذه الفكرة: هذا هو الرجل المناسب لقيادة أي حرب. وبعد نهاية برنامج C.N.N رجعت إلى أفلامي عن المسيح، وهو يلقي الموعظة على الجبل قائلاً: "طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ"، وقارنت هذا بما جاء عن الجنرال شوارزكوف.

طوبى للأقوياء كانت هي رسالة الجنرال: طوبى للمنتصرين، وطوبى للجيوش الغنية التي تمتلك القنابل وصواريخ باتريوت، وطوبى للذين حرروا البلاد وللجنود المنتصرين. إن الغرابة في مقارنة الحدثين—موعظة المسيح ومؤتمر شوارزكوف—أعطتني شعورًا بالصدمة. لابد وأن الموعظة على الجبل قد سببت صدمة لمن سمعوها من اليهود الذين كانوا في فلسطين في القرن الأول. كان معهم يسوع بدلاً من الجنرال شوارزكوف. ولمثل هؤلاء الذين استعمرهم الرومان أعطى المسيح نصيحة مودعة لم يقبلوها. إذا ضربك جندي روماني من الأعداء على خدك،

فحول له الآخر. افرحوا في الاضطهاد كونوا شاكرين لفقركم.

لقد انتقم العراقيون لأنفسهم من الكويتيين، فأحرقوا لهم آبار البترول. أما يسوع فكان يدعو للحب، وليس للانتقام من الأعداء. كم ستعيش مملكة مؤسسة على هذه المبادئ ضد الرومان؟

ربما كان يسوع سيقول: "طوبى للمشردين، ولمن تلقى عليهم القنابل. طوبى للخاسرين وللحزانى على أصدقائهم القتلى. طوبى للأكراد الذين مازالوا يعانون تحت الحكم العراقي". إن كلمة طوبى باليونانية تعني صيحة الفرح "كم أنت محظوظ"، وقال يسوع على الأثر: "إن المحظوظين هم أنفسهم سيئو الحظ".

بعد بضع سنوات من حرب الخليج تلقيت دعوة للبيت الأبيض. ودعى الرئيس كلينتون اثنى عشر من المدعوين لإفطار خاص، لكي يسمع منا ما يشغلنا ويهمنا، وأعطى كل واحد خمس دقائق فقط. وخطر بذهني هذا السؤال: "ما الذي كان سيقوله يسوع في هذا الصدد". وتذكرت أن يسوع تقابل مع القادة السياسيين الأقوياء، وكانت يداه مقيدتين، وظهره ينزف دماً. ولم تكن علاقة الكنيسة والدولة على مايرام منذ ذلك الوقت. ورجعت إلى التطويبات، ووجدت نفسي منزعجاً من جديد. ماذا لو ترجمت رسالتها بكلمات عصرية؟.

سيدي الرئيس أود أن أنصحك بأن تتوقف عن الانزعاج كثيرًا بسبب الاقتصاد والوظائف والنمو المنخفض للإنتاج القومي، هو في الحقيقة لصالح البلاد. ألا تعرف أن الفقراء هو المحظوظون؟ فكلما ازداد عددهم في الولايات المتحدة كلما ازدادت بركاتنا لأن لهم ملكوت السموات. ولا تعطي وقتًا كبيرًا للرعاية الصحية. وكما ترى سيدي الرئيس أنه طوبى للحزاني لأنهم يتعزون. واعلم أنك سمعت من أصحاب الحقوق الدينية عن النزعة المتزايدة لعدم المبالاة بالدين أو بالأمور الدينية. فلم يعد يُسمح بالصلاة في

المدارس، كما أن المعترضين على الإجهاض يتعرضون للقبض عليهم. استرخي سيدي الرئيس. إن الاضطهاد الحكومي سوف يُعطي المسيحيين فرصة لأن يضطهدوا وبالتالي سوف يُباركون. شكرًا سيدي الرئيس على الفرص المتسعة.

طبعًا لم ألق مثل هذا الحديث للرئيس كلينتون، واخترت بدلًا منه الهموم العاجلة للمسيحيين الأمريكيين. ماذا تعني التطويبات لمجتمع يكرم تحقيق الذات والثقة والثراء؟ طوبى للسعداء والأقوياء. طوبى للجياع والعطاش إلى أن يكون لهم المركز الأول.

بعض الأطباء النفسيين الذين يتبعون فرويد يقولون: إن التطويبات تشير إلى عدم توازن في شخصية المسيح. وقال أحد الأطباء النفسيين البريطانيين في حديث أعده للجمعية الطبية الملكية ما يلي:

"إن روح التضحية بالنفس التي تتسم بها المسيحية، ولها تقدير كبير في الحياة المسيحية هي نوع من تلذذ الإنسان بالتعذيب. وهذا يُعَّبر عنه المسيح بوضوح في موعظته على الجبل. فالتطويبات تُبارك الفقراء والمتواضعين والمضطهدين لا يدفعنا لمقاومة الشر، بل نقدم له الخد الآخر؛ ليضربه. وأن تحب من يكرهك، وتغفر للناس زلاتهم. كل هذا يشير إلى الماشوسية (أي التلذذ بالتعذيب)".

ما الأمر إذن؛ هل هو التلذذ بالتعذيب، أم أنها حكمة عميقة؟ إن الذي يعطي إجابة سهلة سريعة، على هذا السؤال، لم يفكر في التطويبات بطريقة جادة. وبصراحة ووضوح هل التطويبات حقيقية؟ إذا كان هذا صحيحًا، فلماذا لا تشجع الكنيسة الفقر والحزن والتواضع والاضطهاد بدلاً من أن تناضل ضدها؟ ما المعنى الحقيقي للتطويبات، تلك التعاليم الأخلاقية للمسيح ذات المعاني الخفية؟

******

لو كنت جالسًا مع المشاهدين عندما كان يُلقي يسوع هذه العظة، أعتقد أنني كنت سأترك المكان، وأنا أشعر بالارتباك أو الغضب وعدم الارتياح. وبعد تسعة عشر قرنًا فإنني مازلت أكافح لكي أعرف معناها. ولكنني أعتقد أن فهمي لها الآن قد ازداد. أنا لست على استعداد لأن أعلن: "هذا هو ما تعنيه التطويبات"، وتدريجيًا بدأت أدرك أنها حقائق هامة. وبالنسبة لي فإنه يمكن تطبيقها على ثلاث مستويات، على الأقل:

وعود تُنفذ طمعًا في الفوز بشيء:

في المرحلة الأولى لفهمي للتطويبات، فإنني اعتبرتها كلمات تُقدم على سبيل التهدئة والاسترخاء يُلقي يسوع بها لأناس سيئ الحظ: "حسنًا، طالما أنت فقير، ومعتل الصحة، وعيناك دامعتان، فسوف أقول لك بعض العبارات التي تجعلك تشعر بأنك أحسن". لكن فيما بعد عندما تقوىَّ إيماني رأيت في التطويبات وعودًا حقيقية تتمركز حولها رسالة المسيح.

وليس مثل ملوك العصور الوسطى الذين كانوا يلقون بالعملات للجماهير، أو السياسيين في هذه الأيام الذين يعطون وعودًا للفقراء قبل الانتخابات. كان للمسيح القدرة على أن يقدم لسامعيه مكافآت أبدية باقية. فيسوع وحده دون الناس الذين على وجه الأرض، عاش يسوع فقيرًا. فالذي نزل من السماء يعلم جيدًا أن غنائم ملكوت السماوات يمكنها أن توازن بسهولة البؤس الذي قد نواجهه في الحياة. إن الذين يحزنون سوف يتعزّون، والمتواضعون سوف يرثون الأرض، والجياع سيشبعون، وأنقياء القلب سوف يعاينون الله. لقد كان ليسوع السلطان ليعطي هذه الوعود، لأنه جاء ليؤسس ملكوت الله الذي سيبقى للأبد.

قمت بزيارة مجموعة تدعى Wycliffe Bible Translators في مركزهم الرئيسي في صحراء أريزونا. يعيش الكثيرون منهم في منازل متنقلة، وأقمنا نحن في منازل من كتل أسمنتية ذات أسقف معدنية. تأثرت كثيرًا

بالحياة الفقيرة والصعبة التي يعيشونها. وكانوا يحبون ترنيمة واحدة: "إنني سأرسلكم لكي تخدموا المنبوذين والمجهولين، والذين لا يفتش عنهم أحد دون مقابل. قد لا يحبكم أحد وقد لا يعرفكم أحد.."، وأنا أستمع إليهم خطرت بذهني فكرة أن هناك خطأ في الترنيمة: هؤلاء المرسلون لم يخططوا للعمل بدون مكافأة. لقد تحملوا الكثير من المتاعب متوقعين مكافآت أخرى. لقد خدموا الله واثقين أنه سيكافئهم، إن لم يكن هنا فسيكون في الآخرة.

في كل صباح قبل أن تُشرق الشمس، وتعلو فوق قمم التلال، كنت أتمشى في الشوارع القذرة. كنت محترساً من الحيات التي كان لها صوت مثل الجرس، ومن العقارب؛ لذلك كنت أنظر دائمًا إلى الأرض، ولكن ذات صباح، وأنا أسير في طريق جديد لمحت منتجًا يلوح في الأفق أمامي، مثل السراب. وعندما اقتربت من المكان رأيت حمامين للسباحة، وحدائق جميلة وملاعب بيسبول، واسطبلات للخيول. علمت أن كل هذه التسهيلات تملكها مصحة شهيرة لاضطرابات المعدة لنجوم السينما والرياضة. وتتقاضى من زبائنها ٣٠٠ دولار عن كل يوم.

عدت ببطء للبيوت المختلطة بلا نظام في قاعدة Wycliffe. هنا معهد يسعى لإنقاذ النفوس، يُعدّ أناسًا ليخدموا الله، هنا وفي الأبدية، وهناك منتجع طبي ينقذ الأجساد، ويُعدّ الناس للاستمتاع بهذه الحياة. ومن الواضح أي من المكانين يُكرمه العالم.

في التطويبات كرَّم المسيح أولئك الذين قد لا يحصلون على امتيازات في هذه الحياة. فقدم تأكيداً للفقراء والحزانى والودعاء والجياع والمضطهدين بأن خدمتهم لن تذهب هباء، بل سينالوا مكافأة مجزية. كتب سي. إس لويس عن التطويبات ما يلي: "لو فكرنا في الوعود والمكافآت المذكورة في الإنجيل سيبدو لنا أن الرب يجد أن رغباتنا ليست قوية للغاية بل ضعيفة. فنحن مخلوقات هزيلة تجري وراء الخمر والجنس والطموح الذي يُقدم لنا فرحًا محدودًا مثل الطفل الفقير الجاهل الذي يريد أن يصنع فطائر من

طين في حي فقير، لأنه لا يستطيع أن يتخيل ما معنى أن يقضي يوم عطلة على شاطئ البحر".

إنني أعلم أن الكثيرين من المسيحيين لا يفكرون في المكافآت الأبدية، بل يعتبرونها فكرة قديمة. ويعلق القس بيل لسلي على هذا الأمر قائلاً: "لأن الكنائس أصبحت أكثر ثراءً ونجاحًا تحولت ترنيماتهم من "هذا العالم ليس مسكني.. إلى هذا العالم هو عالم أبي.." وفي الولايات المتحدة يعيش المسيحيون حياة مرفهة حتى أنهم لم يعودوا يقبلوا الأمور المتواضعة التي تحدث عنها يسوع في التطويبات، والتي قد توضح لماذا تبدو غريبة على آذاننا.

ورغم هذا ـــ كما يذكرنا سي. إس لويس ـــ فنحن لا نجرؤ على أن نقلل من قيمة المكافأة المستقبلية، إننا نحتاج لأن نستمع إلى الترنيمات التي يكتبها الأمريكيون السود؛ لكي نُدرك مدى التعزية التي يمنحها لنا الإيمان: "اقتربي أيتها العربة لكي تحمليني إلى السماء، وعندما أذهب إلى هناك سأرتدي ثوبي، وسأصبح في سماء الله. سوف نكون أحراراً قريبًا عندما يدعونا الله لبيته الأبدي". هذه الترانيم غناها العبيد أنفسهم، وهم أناس ليس لهم رجاء في هذا العالم، بل في العالم الآتي، فكل رجائهم مُركَّز في المسيح، ويقولون في ترنيمة أخرى: "لا أحد يعرف آلامي إلا يسوع، وسوف ألقيها كلها على كتفيه".

إنني لم أعد أحتقر المكافآت الأبدية المذكورة في التطويبات، وأعتبرها فطيرة السماء. ما الفائدة التي ستعود على العبيد إذا آمنوا أن الله غير راض عن العالم الذي يسوده السادة الظالمون المسلحون بالسوط والحبل؟ إن الإيمان بالمكافأة الأبدية هو التصديق بأن يد الله التي تصل إلى كل إنسان سوف تحقق العدالة، وسينهزم المتكبرون، ويرتفع المتواضعون، ويشبع الجوعى.

على أن رجاءنا في المكافأة الأبدية لن يبطل كفاحنا من أجل العدالة في هذه الحياة. إن هذا الوعد لا يدعو إلى العار، بل إلى الأمل والرجاء. إنه يبقينا أحياء، ويجعلنا

نؤمن في إله عادل في النهاية. ومثل الجرس الذي يدق من عالم آخر هكذا وعدنا يسوع بالمكافأة، ويعلن لنا ألا نهتم بمظهر الأشياء، فلا مستقبل للشر بل للخير.

تعمل زوجتي جانيت في مؤسسة بالقرب من شيكاغو لذوي المعاشات، وهو من أفقر المجتمعات في أمريكا. نصف العدد من السود، والنصف الآخر من البيض. وجميعهم عاشوا في ظروف صعبة، وأغلبهم في السبعين والثمانين من العمر، وينتظرون الموت. ولاحظت جانيت فرقاً كبيرًا في أسلوب مواجهة الموت بين البيض والسود. فمعظم البيض يعانون من خوف وقلق متزايد، ويشكون من حياتهم وأسرهم وصحتهم المتدهورة. وعلى النقيض من ذلك يحتفظ السود بروح المرح والانتصار برغم وجود أسباب تدعوهم للمرارة واليأس.

ما الذي أوجد هذا الفرق بين الاثنين قالت زوجتي: إنه الرجاء والإيمان بالأبدية. إذا أردت أن تسمع وصفاً معاصراً للسماء احضر جنازة للسود. يرسم فيها الرعاة صورة رائعة بالكلمات البليغة للحياة الأبدية الحقيقية حتى أن كل فرد في الجنازة يتمنى أن يذهب إلى هناك. قد يشعر الحزانى منهم بحزن شديد—هذا أمر طبيعي—ولكنهم يعتبرون الموت نهاية معركة قد حُسمت فعلاً.

إنني قتنع تمامًا ان هؤلاء القديسين المهملين تعلموا أن يفرحوا بالرب على الرغم من الصعاب التي يقابلونها في حياتهم على الأرض، وسوف تكون السماء بالنسبة لهم، ليست مجرد زيارة لمكان جديد، بل هي بيت أبدي طال انتظاره. لقد تحولت التطويبات في حياتهم إلى أمر حقيقي. إن يسوع يقدم وعدًا بالفرح والسلام الأبدي لكل من يعانون من الآلام، ولكل البيوت المحطمة من الفوضى الاقتصادية والكراهية والخوف والعنف. إنه وقت المكافأة.

الانقلاب العظيم

تعلمت بمرور الوقت أن أُقِّدر وأشتاق إلى المكافآت التي وعد بها المسيح. ورغم هذا فإن هذه المكافآت سوف

تحدث في المستقبل، والوعود التي تأتي في المستقبل لا تشبع الاحتياجات السريعة. وفي خلال سيري مع الرب بدأت أؤمن أن التطويبات لا تصف الحاضر فقط بل المستقبل أيضًا. إنها تعلمنا كيف يمكننا أن ننجح في ملكوت السماوات بالمقارنة بمملكة هذا العالم.

استخلص "جي. بي. فيلبس" التطويبات المستخدمة في مملكة هذا العالم:

السعداء هم الذين ينتهزون الفرص؛ لأنهم هم الذين ينجحون في العالم.
السعداء هم متحجري الفؤاد؛ لأنهم لن يسمحوا للحياة أن تؤذيهم.
السعداء هم الذين يشتكون؛ لأنهم سيصلون إلى الطريق الذي يرغبوه في النهاية.
السعداء هم الذين لا يبالون لأنهم لن ينزعجوا من خطاياهم.
السعداء هم الذين يراقبون العبيد والعمال؛ لأنهم سيحصلون على نتائج طيبة.
السعداء هم رجال المعرفة في العالم؛ لأنهم يعرفون طريقهم.
السعداء هم صانعو المتاعب؛ لأنهم يجعلون الناس ينتبهون إليهم.

يعيش المجتمع الحديث بقانون البقاء للأصلح. وهكذا الأمة التي تمتلك أفضل الأسلحة، وأكبر إنتاج قومي. وقد أعطى صاحب جماعة Chicage Bulls فحصًا للقوانين التي تحكم العالم في مناسبة اعتزال مايكل جوردون. قال جيري رينزدورف: "الحلم الأمريكي هو أن تصل في حياتك إلى نقطة تشعر فيها أنك لست مضطرًا لأن تفعل أي شئ آخر لا تريد أن تفعله ويمكنك أن تفعل كل شئ تريد أن تفعله".

قد يكون هذا هو الحلم الأمريكي، ولكنه بالتأكيد ليس حلم يسوع الذي أعلنه في التطويبات التي توضح أن الله يرى العالم من خلال عدسات مختلفة تمامًا. إنه يفضل الفقراء

والحزانى على أولئك الذين يستمتعون بالاسترضاء على الشواطئ. وفي الحقيقة يمكننا أن نضع عنوانًا آخر للموعظة على الجبل ليس "البقاء للأصلح" بل: "انتصار الضحايا".

وتعطي الكثير من المشاهد في الأناجيل صورة طيبة لنوعية الناس التي أثّرت في المسيح. أرملة قدمت آخر فلسين تمتلكهما، وزكا العشار الذي صعد أعلى الشجرة لكي يرى يسوع بطريقة أفضل، والسامرية التي تزوجت خمس مرات وفشلت، وشحاذ أعمى، وامرأة زانية، ورجل أبرص. إن القوة والعلاقات والرغبة في المنافسة قد تجلِب النجاح في مجتمعاتنا، ولكن نفس هذه الصفات قد تُعطِّل الدخول إلى ملكوت السماوات. فالحزن والتوبة والاشتياق لتغير الحياة هو البوابات لدخول ملكوت الله.

قال المسيح: "طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ" ترجمها أحدهم بأسلوب آخر: "طوبى لليائسين" نعم. فإنَّ اليائسين لن يجدوا مكانًا آخر للجوء إليه غير يسوع. فهو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يقدم التحرير الذي يتوقون إليه. إن المسيح يقول: إن الشخص المسكين بالروح والحزين والمضطهد والجائع والمتعطش للبر له امتياز عن الآخرين. ربما لأنه يصرخ إلى الله طلبا للمعونة. وإذا كان الأمر كذلك فهو شخص مبارك. وتعودت أن أتساءل: لماذا يميز الله الفقراء، ويوليهم عناية خاصة فوق كل الآخرين؟ لماذا يستحوذ الفقير على اهتمام الله؟ وجدت الإجابة لكاتبة تدعى مونيكا هيلويج وهي تعدد المميزات التالية للفقراء:

١. عرف الفقراء أنهم في حاجة مُلِّحة إلى الفداء.

٢. يعرف الفقراء أنهم لا يعتمدون على الرب والناس الأقوياء فقط، ولكن أيضًا على بعضهم البعض.

٣. يضع الفقراء أمانهم ليس في الأشياء بل في الناس.

٤. لا يبالغ الفقراء في أهميتهم الذاتية، ولا يبالغون في حاجتهم إلى الخصوصية.

٥. يتوقع الفقراء القليل من المنافسة، والكثير من التعاون.

٦. يُميِّز الفقراء بين الضروريات والكماليات.

٧. يمكن للفقراء أن ينتظروا؛ لأنهم اكتسبوا نوعًا من الصبر تولد من اعتمادهم على الآخرين.

٨. مخاوف الفقراء واقعية وليس مبالغاً فيها؛ لأنهم يعرفون أن الإنسان بإمكانه أن يعيش رغم المعاناة والحاجة.

٩. عندما يبشر بالإنجيل للفقراء، فإنهم يعتبرونه أخبارًا سارة وليس تهديدًا أو توبيخًا.

١٠. يستجيب الفقراء لدعوة الإنجيل بطريقة سهلة وتسليم كامل؛ لأنه ليس لديهم إلا القليل ليفقدوه. وهم مستعدون لأي شيء. وباختصار فإن الفقراء ليس لديهم اختيار آخر. ففي وسط حاجتهم وعدم اقتناعهم بحياتهم يقبلون محبة الله المجانية لهم.

وكنوع من التدريب رجعت لما كتبته مونيكا هيلويج، واستبدلت كلمة الأغنياء بدلاً من الفقراء، وغيرت كل جملة إلى عكسها. "لا يعرف الأغنياء أنهم في حاجة ماسة إلى الفداء، ثم وضعت كلمة "أنا" بدلاً من الفقراء والأغنياء، وراجعت العشرة أسباب، وسألت نفسي ما إذا كان شعوري يشبه شعور الفقراء أم الأغنياء. هل أعرف بسهولة احتياجاتي؟ هل اعتمد على الله أم على الآخرين؟ أين يوجد سلامي؟ هل لديَّ رغبة للمنافسة أم التعاون؟ هل أستطيع أن أميِّز بين الاحتياجات والكماليات؟ هل أنا صبور؟ هل التطويبات تمثل بالنسبة لي أخبارًا سارة أم نوعًا من التوبيخ؟

وبعد إجراء هذه التدريبات بدأت أدرك لماذا استسلم الكثير من القديسين تطوعًا ليعيشوا حياة الفقر والتقشف. إن الاعتماد على الآخرين والاتضاع والبساطة والتعاون وروح التسليم هي صفات لها مكافآت عظيمة في الحياة

الروحية، ولكنها مرفوضة من الأغنياء. قد توجد طرق أخرى تؤدي إلى الله، ولكنها طرق صعبة كصعوبة دخول جمل من ثقب إبرة.

لا أعتقد أن الفقراء أكثر تمسكًا بالفضيلة من أي شخص آخر ـــ رغم أنني وجدتهم أكثر تعاطفًا وكرمًا ـــ ولكنهم لا يتظاهرون بأنهم كذلك. ليس لديهم كبرياء وغطرسة الطبقة المتوسطة الذين بإمكانهم أن يخفوا مشاكلهم بمهارة تحت صورة من البر الذاتي. إن الفقراء يعتمدون على الآخرين لأنه ليس لديهم اختيار آخر، إذ لابد لهم أن يعتمدوا على الآخرين، لكي يستطيعوا العيش.

إنني أسترجع الآن التطويبات ليس كشعارات ولكن كنظرة بعيدة ومتعمقة في غموض الوجود الإنساني. إن ملكوت الله قلبَ كل شيء رأسًا على عقب: "طوبى للفقراء والجياع والحزانى والمضطهدين"، بالطبع ليس بسبب حالتهم البائسة، فيسوع أمضى مُعظم حياته محاولاً علاج بؤسهم. ولكنهم سينالوا البركة لأنهم يتمتعون بميزة داخلية ليست موجودة لدى الأثرياء والمكتفين ذاتيًا. فأولئك الناجحون والأغنياء والمتمتعون بالجمال قد يسلكون في الحياة معتمدين على مواهبهم الطبيعية. ولكن الناس الذين يحتاجون إلى المميزات الطبيعية وغير المؤهلين للنجاح في هذا العالم قد يلجؤون إلى الله في وقت الحاجة. إن الناس ليسوا على استعداد لأن يعترفوا ببؤسهم. فلو فعلوا ذلك لاقترب إليهم ملكوت الله.

الحقيقة الحاسمة: (أكثر اللحظات الملائمة للتأثير على العقل)

منذ فترة وجيزة وجدت مستوىً ثالثًا للتطويبات. إن يسوع لم يقدم لنا مثالاً لكي نحاول أن نعيش بمقتضاه فقط، ولكنه ضع لنا وصفة للحقيقة الحاسمة التي تكون أعمق مستوى للحق يمكن أن نعرفه على الأرض. تكشف التطويبات لنا أن ما ينجح في ملكوت السماوات سوف يفيدنا أيضًا هنا في هذه الحياة الآن. لقد أمضيت سنوات لكي أعِرف هذه الحقيقة، والآن فقد بدأت أفهم التطويبات: "طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ .. طوبى للودعاء.." يبدأ بول جونسون

في كتابه "الفكر الإبداعي" بتفاصيل مقنعة في عرض كل ما نعرفه على أنه حق: "الناس الذين نمجدهم" ونحاول أن ننافسهم، وتظهر صورهم في المجلات المشهورة ليسوا هم السعداء كما نتصور". ورغم أن جونسون يذكر بعض هؤلاء المشهورين (أرنست هيمنجواى، وبرتراند رسل، وجان بول سارتر) قد نحكم عليهم بأنهم ناجحون بالمقاييس الحديثة، فإنه يصعب أن نصفهم بالبؤس وحب الذات والفساد.

أتاح لي عملي الصحفي الفرصة لكي اختبر نجوم كرة القدم وممثلي السينما والموسيقيين ومؤلفين مشهورين وسياسيين وشخصيات تلفزيونية. هؤلاء هم الذين يسيطرون على وسائل الإعلام. إننا نتودد إليهم، ونحاول أن نعرف شيئًا عنهم. الملابس التي يرتدونها والطعام الذي يأكلونه، والروتين الذي يتبعونه، والناس الذين يحبونهم، ومعجون الأسنان الذي يستعملونه. ورغم هذا فإني أقول لكم من خلال خبرتي المحدودة: أنهم أكثر الناس بؤسًا. معظمهم فشل في زواجه، ويعتمدون على العلاج النفسي، ويُعذبهم الشك.

ومن الناحية الأخرى قضيت وقتًا مع من نسميهم الخدَّام. أطباء وممرضات عملوا بين المنبوذين ومرضى البرص في أرياف الهند. وقضيت وقتًا مع خريج جامعة برنستون الذي يدير فندقاً للمتشردين في شيكاغو. وموظفين كبار تركوا وظائفهم ذات المرتبات المرتفعة لكي يخدموا في مناطق فقيرة ومنعزلة في ميسوري، وموظفي إعانة الفقراء في الصومال والسودان وأثيوبيا وبنجلاديش. وحاصلين على درجة دكتوراه انتشروا في غابات أمريكا الجنوبية يترجمون الكتاب المقدس إلى لغات غامضة. وكنت أقدر هؤلاء الخدام وأعتبرهم أمثلة مضيئة. وعندما أفكر في المجموعتين (النجوم والخدام) أجد أن الخدام يستحوذون على حبي، وأشتاق أن أقضي وقتًا بينهم على أن أقضيه مع النجوم لأنهم يمتلكون صفات العمق والغنى الروحي والفرح الذي لم أجده في أي مكان آخر. يعمل

الخدام بأجور مخفضة. وساعات طويلة بدون أية دعاية، ويضعون مواهبهم ومهارتهم بين الفقراء وغير المتعلمين. متبعين قول الرب: "من يضيع حياته من أجلي يجدها" وبدأت أصدق الآن أن الفقراء في الروح والودعاء هم الذين يباركون ولهم ملكوت السماوات وهم يرثون الرض.

"طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ". وفي فترة من فترات حياتي عندما كنت أناضل ضد الإغراءات الجنسية صادفتني مقالة نصحتني بأن أعود إلى كتاب صغير "بماذا أؤمن؟" كتبه كاثوليكي فرنسي يُدعى فرنسوا مورياك. ودهشت للغاية عندما وجدت أن مورياك رغم كونه من كبار السن خصص جزءًا كبيرًا من كتابه لمناقشة شهوته الخاصة. ويعتبر مورياك أن تجربة الشهوة الجنسية بمثابة ميدان معركة. وهو يرفض معظم الآراء التي تؤيد الطهارة الجنسية التي تعلمها من تربيته الكاثوليكية. كما أنه لا يتفق على أن الزواج يعالج الشهوة، ويشاركه في ذلك كثيرون؛ لأن الشهوة تشتمل على الجاذبية نحو مخلوقات أخرى، وتدفع للقيام بمغامرات ولقاءات. ويقول مورياك: "إن الرغبة الجنسية تشبه موجات قوية من المد والجزر قادرة على القضاء على كل المقاصد الطيبة".

وانتهى مورياك إلى أن التحكم الذاتي والكبت والمجادلات العقلانية أسلحة غير كافية لاستخدامها في محاربة النجاسة. ووجد أن هناك سبباً واحدًا لكي تكون طاهرًا، وهو ما قدمه المسيح في التطويبات: "طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ"، ويقول مورياك: "إن النجاسة تفصلنا عن الله، فالحياة الروحية تطيع القوانين تمامًا كما نفعل في العالم المادي. إن الطهارة هي حالة من الحب السامي يتفوق على أي أمر آخر إنه حب الله".

وبعد قراءة ما كتبه فرانسوا مورياك لم ينته كفاحي مع شهوة الجسد. ولكنني أصرح أن كل تحليلاته حقيقية. إن حب الله لنا يحتاج أن تكون كل قدراتنا طاهرة قبل أن نتمكن من تلقي الحب الإلهي. هذا هو الدافع لكي نبقى طاهرين.

"طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ"؛ تعلمت المعنى الحقيقي لهذه الطوبى من هنري نووين وهو قسيس اعتاد أن يُدَّرس في جامعة هارفارد. وهو في قمة وظيفته انتقل نووين من هارفارد إلى مجتمع يُدعى الفجر بالقرب من تورنتو لكي يعتني بشاب يُدعى آدم. والآن لا يخدم نوين أناسًا متعلمين، ولكن يخدم شاباً يعتبره الكثيرون لا فائدة منه وكان يجب أن يموت. ووصف نووين صديقه الذي يخدمه: "يبلغ آدم من العمر خمسة وعشرين عامًا. لا يستطيع الكلام، ولا أن يرتدي أو يخلع ملابسه، ولا أن يمشي بمفرده، ولا أن يأكل بدون مساعدة. لا يصرخ ولا يضحك. وأحيانًا ينظر إليك بعينيه. يعاني من الصرع، وأحيانًا يتصلب فجأة، ويصدر أنيناً كنباح الكلب، ومرة رأيت دمعة كبيرة على خده. أمضيت ساعة ونصفًا، وأنا أحاول أن أوقظه ليأخذ الأدوية، وأحمله إلى الحمام؛ ليغتسل ويحلق ذقنه وينظف أسنانه، ثم آخذه إلى المطبخ، ليتناول طعام الإفطار، ثم أضعه على الكرسي المتحرك، لآخذه إلى المكان الذي يمارس فيه تدريباته العلاجية".

وفي إحدى زياراتي إلى نوين في تورنتو لاحظته، وهو يقوم بعمله الروتيني مع آدم، وأعترف أن سؤلاً راودني عما إذا كان نووين يستفيد بهذا العمل من وقته على أفضل وجه. لقد قرأت الكثير من كتبه، وسمعته كثيرًا، وهو يتحدث، وشعرت أن لديه الكثير ليقدمه. وتساءلت: ألا يوجد شخص آخر يقوم برعاية آدم غير نووين؟ وعندما سألت نوين هذا السؤال بحذر شديد أبلغني أنني أسأت فهم ما يقوم به، وقال: "أنا لا أتخلى عن كل شيء كما تتصور. إنني أنا وليس آدم هو المستفيد من هذه الصداقة".

وبدأ نوين يعدد لي الفوائد التي ربحها. إن الساعات يقضيها مع آدم تمنحه سلامًا داخليًا لا يستطيع أن يحصل عليه من أي أعمال تحتاج إلى درجة عالية من التفكير، والتي تبدو له أنها مملة وروتينية. وأدرك نوين، وهو جالس بجوار هذا الطفل الكبير الذي لا معين له، أدرك

المنافسة بين سعيه للنجاح الأكاديمي وإرساليته المسيحية. لقد علمه آدم: "أن ما يجعلنا نشعربإنسانيتنا ليست عقولنا لكن قلوبنا، ليس قدرتنا على التفكير بل قدرتنا على الحب". وأدرك أيضًا حاجته لتفريغ ذاته قبل أن يمتلئ بروح الله، هذا التفريغ الذاتي حصل عليه الرهبان في البرية بعد بحث طويل وخضوع لنظام معين. وبعد جلستي مع هنري نووين عاد مرة أخرى إلى سؤالي كما لو كان غير مصدق أنني أسأله هذا السؤال. واستمر في تفكيره في الفوائد الأخرى من علاقته بآدم. كان في الحقيقة يستمتع بنوع جديد من السلام الروحي الذي لم يحصل عليه في جامعة هارفارد، لكن حصل عليه بجوار آدم العاجز. وتركت نوين وأنا أشعر بتبكيت على فقري الروحي. إن الرحماء هم الذي يتباركون حقًا لأنهم سيُرحمُون.

"طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ، لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللهِ يُدْعَوْنَ". ظهرت لي هذه الحقيقة بطريقة ملتويَة. حاول الروائي الشهير ليو تولستوي أن يكون صانع سلام، ولكن سرعة غضبه كانت العقبة أمامه. وقد كتب بطلاقة عن الموعظة على الجبل، وبعد نصف قرن قرأ الهندوسي غاندي كتاب تولستوي "ملكوت الله في داخلكم" وقرر أن يعيش طبقًا للمبادئ المذكورة في الموعظة على الجبل.

ويشتمل فيلم "غاندي" على مشهد جميل يشرح فيه غاندي فلسفته للمرسل تشارلي أندروز وهما يسيران معًا في إحدى مدن جنوب أفريقيا، وجدا أن مجموعة من السفاحين سدوا الطريق. نظر القس أندرو إلى العصابة، وقرر الهرب، ولكن غاندي أوقفه: "ألم يقل الكتاب إذا لطمك عدوك على خدك الأيمن حوّل له الأيسر". قال أندروس: أنه يعتقد أن هذا القول استُخدم مجازًا. رد عليه غاندي: "أنا لست متأكدًا". إنني أشك لقد كان يعني أننا يجب أن نظهر شيئًا من الشجاعة. كُنْ مستعدًا لتلقي ضربة أو ضربات لتظهر أنك لن ترد عليه أو تتحول بعيدًا. وإذا فعلت هذا سوف تستدعي الوازع الإنساني الذي يقلل من كراهيتهم، ويزيد من احترامهم لك. أعتقد أن هذا ما كان

يقصده المسيح. وقد استخدم يسوع هذا الأسلوب ونجح".

وبعد عدة سنوات درس قسيس أمريكي يُدعى مارتن لوثر كنج أسلوب غاندي، وقرر ممارسته عملياً في الولايات المتحدة. ولكن الكثير من السود انتقدوا مارتن لوثر على رفضه للعنف، ولجؤوا إلى ما يُسمى بالقوة السوداء وقالوا له: "هل بعد أن ضُربت على رأسك بعصا رجل الشرطة اثنتا عشرة مرة تتساءل عن قوة تأثير عدم العنف"، ولكن مارتن لم يتراجع، وعندما اندفع المتظاهرون في لوس أنجلوس وشيكاغو وهارلم انتقل مارتن من مدينة إلى أخرى محاولاً تهدئة الموقف مذكرًا إياهم أن التغيير الأخلاقي لا يتحقق بأعمال غير أخلاقية. لقد تعلم هذا المبدأ من الموعظة على الجبل ومن غاندي أيضًا. وكان ينادي في كل خطبة برسالة المسيحية التي تقول دائمًا: "إن الصليب الذي نحمله يسبق التاج الذي نلبسه" لكي تكون مسيحيًا يجب أن تحمل صليبك بكل ما فيه من مصاعب وحزن وتوتر احمله حتى يترك علامته وأثره عليك، ويفتديك، ويقودك إلى الطريق الأفضل الذي لا نحصل عليه إلا من خلال المعاناة".

كان لمارتن لوثر بعض الضعفات، ولكنه فعل شيئًا واحدًا صحيحًا، ففي مقابل كل الأمور الشاذة، وميوله للتحفظ الذاتي، فقد ظل أمينًا في تطبيق مبدأ صانعة السلام. وعندما طالب الآخرون بالثأر كان ينادي بالحب. واتبعت مواكب الحقوق المدنية الخط الصحيح قبل أن تستخدم السلطات الهروات وخراطيم النار. وهذا ما حقق لهم النصر الذي كانوا يسعون إليه منذ فترة طويلة. ويشير المؤرخون إلى حادثة واحدة حصلت فيها الحركة على تأييد جماهيري لقضيتهم. ظهر هذا على كوبري خارج مدينة سيلما في ألباما عندما أطلق عمدة المدينة رجال الشرطة على المتظاهرين السود غير المسلحين. وعندما فزع جمهور الأمريكيين من منظر العنف الظالم لرجال الشرطة، وافقوا على مطالب الحقوق المدنية.

إنني نشأت في أتلانتا، وأعترف أنني أشعر بشيء من

العار لأنه عندما قاد مارتن لوثر المظاهرات كنت أؤيد العمدة الأبيض ورجال الشرطة ضدهم. كنت متسرعًا في الحكم على أخطاء مارتن الأخلاقية، ومبطئًا في محاسبة نفسي على خطيتي. ولكن لأن مارتن ظل أمينًا ومقدمًا جسده كهدف وليس كسلاح عندئذ نفذت إليَّ أعمق المبادئ الأخلاقية.

إن الهدف الحقيقي الذي كان مارتن يردده دائمًا ليس هزيمة الرجل الأبيض، لكن إيقاظ الشعور بالخجل داخل المستبدين، وتحدي شعورهم الزائف بالتفوق. والنهاية هي الصلح والفداء وخلق مجتمع الحب. وهذا ما حققه لوثر أخيرًا حتى معي أنا الذي كنت مؤمنًا بالعنصرية.

مات مارتن لوثر كشهيد مثلما مات غاندي قبله. وبعد موته تبنى أناس كثيرون مبدأ عدم العنف كوسيلة للمطالبة بالعدالة. وبعد استشهاد أكينو في الفلبين أسقط الشعب الحكومة بتجمعهم في الشوارع ليصلوا، وتوقف الدبابات أما الفلبينيين الراكعين للصلاة، كما لو كانت هناك قوة خفية أوقفتهم. وفيما بعد في ١٩٨٩ في بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية وبلغاريا ويوغوسلافيا ورومانيا ومنغوليا وألبانيا والاتحاد السوفيتي ونيبال وشيلي أكثر من نصف بليون نسمة تخلصوا من الكبت والاستغلال بالطرق السلمية وعدم استخدام العنف. وفي كثير من هذه الأماكن، وخاصة بلاد شرق أوربا قادت الكنيسة المسيحية الطريق نحو هذا الاستقلال. كان المتظاهرون يسيرون في الشوارع حاملين الشموع ومرنمين ومصلين. كما حدث في أيام يشوع عندما انهارت أسوار أريحا. إن صانعي السلام سيدعون أبناء وبنات الله. وطوبى للذين يُضطهدون من أجل البر.

"طُوبَى لِلْحَزَانَى"؛ لأنني كتبتُ كتبًا مثل: "أين الله في وقت الألم؟*" "وخيبة الأمل مع الله"، قضيت وقتًا بين الحزاني. لقد أخافوني في البداية، وأجبتهم على بعض

* صدرت الترجمة العربية عن مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع

أسئلتهم، وشعرت بالحرج، وأنا أشاهد أحزانهم. أتذكر مرة عندما دعاني أحد جيراني لأذهب معه للعلاج النفسي إلى مستشفى قريبة لزيارة أناس كانوا على وشك الموت. وواصلت زيارتهم لمدة عام. لا أستطيع القول بأنني استمتعت باجتماعاتهم. ورغم هذا فقد أصبح اجتماعهم بالنسبة لي واحدًا من أكثر الأحداث ذات المعنى العميق كل شهر، وعلى النقيض من الحفلات حيث يحاول كل المشاركين أن يتظاهروا أمام بعضهم البعض بملابسهم وألقابهم ووظائفهم وسياراتهم الجديدة. ولكن ماذا تعني هذه الأشياء لأناس يستعدون للموت؟ وأكثر من أي أناس آخرين التقيت بهم، فإن أعضاء هذه المجموعة ركزوا على قضايا هامة. وكم كنت أرغب أن يحضر هذا الاجتماع البعض من أصدقائي السطحيين والباحثين عن اللذة.

وعندما كتبت فيما بعد عما تعلمته من الحزانى، والذين يعانون، بدأت أستمع إلى آراء الآخرين. لديَّ ثلاث ملفات امتلأت من هذه الخطابات. وقد جاءت هذه الخطابات من الذين يتقلدون مناصب عالية. أحد هذه الخطابات مكون من ست وعشرين صفحة، وكتبته أم كانت تجلس في صالة الاستقبال خارج حجرة العمليات حيث يجري الأطباء عملية جراحية لابنتها التي تعاني من ورم في المخ؛ وعمرها أربعة أعوام. وخطاب آخر من شخص يعاني من شلل رباعي، وكتب خطابه بنفخ الهواء عبر أنبوب التي يُترجمها الكمبيوتر إلى حروف، ثم يطبع على جهاز الطباعة (البرينتر). وكثيرون من الذين كتبوا لي لم تكن لقصصهم نهايات سعيدة، البعض يشعرون بأن الله تخلى عنهم. وقليلون هم الذين وجدوا إجابة لسؤالهم: "لماذا؟" ولكنني رأيت أحزاناً كثيرة حتى أنني اكتسبت الكثير من الإيمان بمواعيد الرب الذي قال: "طُوبَى لِلْحَزَانَى، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ".

أعرف إرساليتين صغيرتين تديرهما منازل خاصة اجتازت الألم. الإرسالية الأولى أسستها سيدة في كاليفورنيا اكتشفت أن ابنها كان على وشك الموت بالإيدز. حصلت هذه السيدة على بعض المساندة والتعضيد من كنيستها

ومجتمعها بسبب هذا الابن الشاذ جنسيًا. وبعد موته شعرت بالوحدة لذا قررت أن تكتب خطابات لمن هم في مثل حالتها. وكان لهذه الخطابات أثر طيب، وكونت مجموعة من الوالدين السعداء. وبالرغم من أنها تقدم مساعدة قليلة، فالمئات من الوالدين يعتبرون هذه المرأة الشجاعة كمنقذة لحياتهم.

امرأة أخرى فقدت ابنها في حادث اصطدام طائرة. ولعدة سنوات لم تتمكن من الهروب من سحابة الحزن التي غطت حياتها. وتركت غرفة ابنها كما هي وكما تركها. وأخيرًا كانت تسمع عن حوادث صدام طائرات كثيرة في نشرات الأخبار، وبدأت تفكر في العائلات التي تواجه نفس مأساتها. وفكرت فيما يمكن أن تقدمه من مساعدة لهم. وعندما كانت تسمع بحادث اصطدام طائرة ترسل للعائلة المنكوبة مجموعة خطابات وبعض المواد الأخرى التي قد يحتاجونها. وبدأ يراسلها نصف عدد الأسر التي اتصلت بهم. إن نشاطها لم يحل مشكلة حزنها على ابنها ولكن أعطاها الشعور بأنها ذات تأثير ونفع للناس، ولم تعد تشعر أنها ضعيفة أمام الحزن.

"طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ"، كل من ذكرتهم في حديثي عن التطويبات يوضحون لنا هذا الوعد الأخير. الخدام الذين استثمروا حياتهم للعمل بين الفقراء والمحتاجين. وفرانسوا موريياك الذي ناضل لكي يعيش طاهرًا، وهنري نووين وهو يعتني بآدم، ومارتن لوثر الذي رفض العنف، والسيدة التي فقدت ابنها في حادث الطيران، وتغلبت على أحزانها، كل هؤلاء يستجيبون لآلام الجوع والعطش للبر. وكلهم نالوا المجازاة، ليس فقط في الأبدية، لكن في الحياة الحاضرة أيضًا.

قضت راهبة ألبانية ستة عشر عامًا في دير تُعلِّم الجغرافيا لفتاتين إحداهما بنغالية والثانية بريطانية من أغنى الناس في كلكتا الهند. وفي أحد الأيام، وهي في رحلة بالسكة الحديد إلى الهملايا سمعت صوتًا يدعوها لأن تُغير مسارها، وتهتم بأفقر الفقراء. هل يشك أحد في أن الأم

تريزا حققت ذاتها في خدمتها مع الفقراء أفضل جدًا من عملها في البداية؟ ولقد وجدت هذا المبدأ يولد في القديسين والناس العاديين حتى أنني الآن فهمت ببساطة لماذا يكرر الإنجيل قول المسيح أكثر من مرة: "إن من وجد حياته يضيعها ومن أضاع حياته من أجلي يجدها".

لقد اخبرنا المسيح بأنه جاء: "لكي تكون لنا حياة، وليكون لنا أفضل"، وفي تناقض ظاهري نحن نضيع هذه الحياة الأفضل بطرق قد لا نقدرها. قد نتخذ مواقف شجاعة من أجل العدالة أو الاهتمام بالضعفاء والمحتاجين أو الاهتمام بأمور الله، وليس أمورنا نحن. إن كل الذين ذكرتهم سابقًا قاموا بتضحيات تجعلهم، وكأنهم مازالوا أحياء، ولم يموتوا بعد. "طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ، لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ".

ويقدم يسوع في التطويبات مفتاحًا للحياة الأفضل، وإن كان الأمر يبدو متناقضًا في الظاهر. فقد شبه ملكوت السماوات بكنز موجود في حقل حتى إن أي مستثمر ذكي سيبيع كل ما يملك ليشتري هذا الحقل. إن قيمته حقيقية ودائمة أكثر من أي شيء آخر ممكن أن يقدمه العالم، لأن هذا الكنز سيعطي ربما هنا وفي الأبدية أيضًا. ألا نهتم في البحث عن هذا الكنز؟

عندما سمعت التطويبات لأول مرة كانت تبدو لي، وكأنها مبادئ مستحيلة أعطاها متصوف حالم. والآن أراها كحقائق قد أعلنها إنسان واقعي وعملي. إن المسيح يعرف كيف تسير الحياة في ملكوت السماوات وكذلك على الأرض. ففي حياة تتميز بالفقر والحزن والتواضع والجوع للبر والرحمة والطهارة وصنع السلام والاضطهاد، فإن يسوع قد جسم بنفسه هذه التطويبات. بل ربما وضعها لنفسه كما لنا نحن أيضًا. لأنه كانت لديه الفرصة لممارسة هذه الحقائق الصعبة.

٧

رسالة :

الموعظة على الجبل، عظة هجومية

عندما نقرأ تعاليم المسيح ندرك مدى فشلنا في الوصول إلى الكمال. إن درجة اقترابنا لهذا الكمال لا يمكن رؤيتها، فكل ما نستطيع رؤيته هو مدى انحرافنا.

ليوتولستوي

٧

رسالة:

الموعظة على الجبل، عظة هجومية

تمثل التطويبات الخطوة الأولى نحو فهم الموعظة على الجبل. وبعدما اعتقدت أنني فهمت الحقائق المذكورة في التطويبات، فإنني مازلت أطيل التفكير في القسوة التي لا تصل إلى حل وسط في بقية عظة المسيح. وبدأت ألهث عندما قرأت: "كُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ". قال المسيح هذا الكلام بين وصيتين أن نحب أعداءنا، ونعطي كل أموالنا. كُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ؟ ما الذي يقصده المسيح بهذا؟

لا يمكنني أن أصرف النظر عن هذا التطرف؛ لأنه يظهر في مكان آخر في الأناجيل. فعندما سأل الرجل الغني المسيح: "ماذا أفعل لكي أرث الحياة الأبدية"؟ قال له يسوع: "اذهب أعط كل أموالك للفقراء ـــ كل أموالك وليس ٥٠٪ ـــ بل كل أموالك". وعندما سأله أحد التلاميذ ما إذا كان عليه أن يسامح أخوه سبع مرات، أجابه المسيح سبعين مرة سبع مرات. لقد علمت أديان أخرى شيئًا مختلفًا عن هذا القانون الذهبي، وأعطت صياغة محدودة وسلبية: "لا تفعلوا بالآخرين ما لا تريدون أن يفعلوا بكم"، أما يسوع فقد أطلق هذا القانون بلا حدود: "فِي كُلِّ شَيْءٍ افعلوا

للآخرين ما تريدون أن يفعلوا بكم".

هل عاش أحدكم حياة كاملة كالله؟ هل اتبع أحدكم هذه القاعدة الذهبية؟ كيف تتجاوب مع هذه المُثل المستحيلة؟ إننا كبشر نفضل الفهم والتوازن. شيء ما قريب من المعنى الذهبي لأرسطو، وليس قاعدة المسيح الذهبية.

طلبت صديقتي فيرجينيا ستيم من طلبتها في الجامعة كتابة مقال قصير عن الموعظة على الجبل، وتوقعت أن تقرأ كلمات تدل على احترامهم وتقديرهم للعظة. ولكن تعليقات الطلبة أفزعتها كثيرًا. قال أحدهم: "في اعتقادي أن الدين هو خدعة كبرى"، وكتب آخر: "هناك عبارة تقول لا تصدق كل ما تقرأ، وأعتقد أن هذا ينطبق على الموعظة على الجبل". واستعادت فيرجينيا معلوماتها التي تلقتها في مدارس الأحد عن الموعظة على الجبل. واللوحات التوضيحية وصورة المسيح، وهو جالس على جانب التل الأخضر بجوار الأطفال، ولم ينتبها أي شعور بالغضب أو الإشمئزاز، ورجعت مرة أخرى لتعليقات الطلبة:

> "إن المادة التي تقدمها الكنائس جافة للغاية، ولا تسمح بأي نوع من المرح الذي قد يعتبرونه خطية".
>
> لم تعجبني العظة على الجبل، فهي تحثني لأن أكون كاملاً، ولا يوجد أحد يستطيع ذلك".
>
> "إن الأمور المطلوبة في هذه العظة سخيفة ومضحكة، من نظر إلى امرأة فهو زاني. هذا قمة التطرف، وهو تصريح غير إنساني لم أسمعه من قبل".

وعند هذه النقطة كتبت فيرجينيا ما يلي: "بدأت أتشجع إذ وجدت نوعًا من البراءة المهذبة، حيث لم يجرؤ أحد الطلبة أن يقول: إن يسوع غبي. وهذا هو الأمر الهام إذ وجدت استجابة نقية وأصيلة للإنجيل. كما وجدت أن الأمر مُشجع للغاية إذ أن الكتاب المقدس ظل مزعجًا للآذان الجاهلة كما كان في القرن الأول. وهذا يؤكد أهميته بالنسبة لي. وبينما فقدت النصوص الكتابية تقريبًا تأثيرها الصارم في القرن

الماضي، فإن انتشار الأمية الكتابية على نطاق واسع ينبغي أن يدفعنا هذا إلى موقع قريب من قوة تأثيرها التي كانت في القرن الأول".

يمكننا أن نقول عن الموعظة على الجبل أنها عظة هجومية ومزعجة. وبينما كنت أراجع خمسة عشر فيلمًا تعالج مشهد الموعظة على الجبل رأيت منظرًا واحدًا يشبه المنظر الأصلي. وفي فيلم من إنتاج B. B. C. عنوانه "ابن الإنسان" يصور الموعظة على الجبل بخلفية من الفوضى والعنف. فالجنود الرومان قاموا بغزو قرية في الجليل للانتقام من البعض الذين أساؤوا إلى الإمبراطور. وقيدوا اليهود الذين في سن الحرب، وضربوا زوجاتهم وأطفالهم بالحراب، ليلقنوا هؤلاء اليهود درسًا إرهابيا. في هذا المنظر الذي اتسم بالشغب والدماء والدموع إذ بهم يسمعون يسوع يقول لهم: "أحبوا أعداءكم وصلوا لأجل الذين يضطهدونكم"، يسوع يقول لهم: "أحبوا أعداءكم وصلوا لأجل الذين يضطهدونكم"، ويمكنك أن تتخيل استجابة الذين سمعوا هذه النصيحة غير المقبولة، وغير المنطقية. إن الموعظة على الجبل لم تحيرهم فقط بل أثارت غضبهم.

وفي بداية العظة وجه يسوع سؤالاً مباشرًا أزعج معظم الذين سمعوه: هل هو إنسان ثوري أم هو نبي يهودي يمكن تصديقه؟ وقد وصف يسوع علاقته بالتوراة فيما يلي:

"لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ"، فهذه الآيات الأخيرة شدت انتباه الناس. وبدأ الكتبة والفريسيون يتجادلون معًا. لقد صنفوا الناموس إلى ٦١٣ قانونًا، ٢٤٨ وصية، ٣٦٥ تحريماً، ودعموا هذه القوانين بـ ١٥٢١ تصحيح ولكي يتجنبوا كسر الوصية الثالثة: "لا تذكر اسم الرب إلهك باطلاً"، فرفضوا أن ينطقوا اسم الله إطلاقا. ولكي يتجنبوا الاغراءات الجنسية تجنبوا النظر إلى النساء. ولكي يحفظوا يوم السبت سجلوا ٣٦ نوعًا من النشاط التي تعتبر عملاً لا يمكن ممارسته يوم السبت. كيف يمكن بر

الإنسان العادي أن يتجاوز ما هو مطلوب من رجال الدين؟

تعطي الموعظة على الجبل تفصيلات لما كان يعنيه يسوع تمامًا. وهذا التحليل هو ما لم يقبله طلبة القرن العشرين في جامعة تكساس كما لم يقبله يهود فلسطين في القرن الأول. وعندما استخدم يسوع التوراة كنقطة بداية، فإنه دفع الناموس في نفس الاتجاه أبعد من أي فريسي جرؤ على فعل هذا، وأسرع من أي راهب يجرؤ على أن يعيشه. لقد قدمت الموعظة على الجبل قمرًا جديدًا في الكون الأخلاقي الذي مارس قوته الجاذبية الخاصة منذ ذلك الوقت.

لقد وضع المسيح قوانينا غير معقولة يستحيل تطبيقها وطلب منا أن نسير بمقتضاها. فكّر في الأمثلة الآتية:

لكل مجتمع إنساني في التاريخ قانون جنائي. وبالطبع هناك اختلافات. فتسمح الولايات المتحدة بالقتل في حالة الدفاع عن النفس. ولكن لم يصل أي مجتمع لما وصل إليه يسوع من تعريف القتل: "إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ"، ولأنني تربيت مع أخي الأكبر في هذه الوصية. هل يمكن لأخوين مراهقين لا يستخدمان كلمات مثل: "يا غبي أو يا أحمق".

لم يقترح ولا مجتمع واحد في العالم قانونًا صارمًا كالذي قاله يسوع: "إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ. فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَاقْلَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ، لأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلاَ يُلْقَى جَسَدُكَ كُلُّهُ فِي جَهَنَّمَ". لقد سمعت مبررات لخصي الرجال لعديد من الحاخامات، ولكني لم أسمع مطلقًا اقتراحاً بتشويه الوجه بسبب الشهوة الجنسية القوية. وفي الحقيقة فإن الشهوة الجنسية في أمريكا تكون تسلية قومية معترف بها قانونيًا، ويحتفل بها في الإعلانات عن البلوجينز، ومباريات الرياضة السنوية التي تصور المايوهات، وفي العشرين مليون نسخة من المجلات الإباحية التي تُباع كل شهر. وعندما حاول مرشح الرئاسة

جيمي كارتر أن يشرح الآية السابقة لمجلة بلاي بوي، فإن الصحافة قاومته قائلة: "إن الرغبة الجنسية تسري في دمائنا كما يسري اللعاب في الفم".

أما فيما يختص بالطلاق فقد اختلف الفريسيون في أيام المسيح في تفسير قوانين العهد القديم. قال الحاخام هليل: "أن الرجل بإمكانه أن يطلق زوجته إذا فعلت شيئًا يضايقه، حتى وإن كان احتراق الطعام، وما على الزوج إلا أن يقول: "أنت طالق" ثلاث مرات لكي يجعل الطلاق أمرًا نافذاً". أما يسوع فقال لهم: "إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ لِعِلَّةِ الزِّنَى يَجْعَلُهَا تَزْنِي، وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقَةً فَإِنَّهُ يَزْنِي".

وقد رفض يسوع تمامًا مبدأ العنف. ومن يستطيع أن ينفذ ما قاله يسوع: "مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا". وبدأت أحملق في هذه الوصايا الصارمة في الموعظة على الجبل واسأل نفسي كيف سأتجاوب معها؟ هل المسيح يتوقع مني أن أعطي كل من يستجدي في طريقي؟ هل أتخلى عن كل حقوقي؟ هل ألغي كل بوالص التأمين، وأثق في الرب من جهة المستقبل؟ هل أستغني عن التليفزيون لكي أتفادى شهوة الجسد؟ كيف أستطيع تفسير مثل هذه المُثل الأخلاقية في حياتي اليومية؟

ذات يوم واصلت قراءتي للبحث عن مفتاح يساعدني على فهم الموعظة على الجبل، وشعرت بارتياح عندما علمت أنني لست الوحيد الذي يفعل هذا. فعبر التاريخ الكنسي حاول الكثيرون ذلك. فقد قسم توما الإكويني تعاليم المسيح إلى تعاليم قابلة لأن تُدرك عقليًا والتي تشتمل على نصائح، أو ما يمكن أن نُسميه بلغتنا متطلبات واقتراحات. وتشمل التعاليم القابلة لأن تُدرك عقليًا على المبادئ أو الوصايا الأخلاقية مثل الوصايا العشرة. أما عن الوصايا الأكثر مثالية مثل ما قاله عن الغضب والشهوة، فيطبق عليها الإكويني مستوى مختلفًا. وبالرغم من قبولنا لها كنموذج طيب نحاول تطبيقه، ولكن ليس لها القوة والتأثير الأخلاقي الذي لوصايا المسيح الأخلاقية. وفيما بعد قسمت

الكنيسة الكاثوليكية ما قاله الإكويني إلى قائمتين خطايا مميتة، وأخرى يمكن أن تُغتفر.

أما مارتن لوثر فقد فسر الموعظة على الجبل على ضوء مبدأ المسيح: "أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله"، فيحتفظ المسيحي بنوعين من المواطنة: واحدة لملكوت السماوات والأخرى لملكوت العالم، فينطبق التصرف الذي جاء في الموعظة على الجبل على ملكوت السماوات، وليس على العالم. فمثلاً الوصيتان: "أحبوا أعداءكم، لا تقاوموا الإنسان الشرير"، لا يمكن تطبيقها في العالم. فلكي تمنع الحكومات أي نوع من الفوضى السياسية أو الاجتماعية عليها أن تقاوم الشر، وتهزم الأعداء. ولذلك فيجب على المسيحي أن يتعلم كيف يفرق بين الرسمي والشخصي. فمثلاً الجندي المسيحي يجب أن ينفذ التعليمات بالحرب والقتل للأعداء حتى وإن كان يتبع وصية المسيح بمحبة الأعداء في قلبه.

وفي أيام لوثر اختارت مختلف الحركات التي كانت ضد المعمودية أسلوبًا تقدميًا مختلفًا. وكل هذه المحاولات التي أرادت أن تقلل من قوة واستقامة وصايا المسيح أسيء قيادتها. ألم تهتم الكنيسة الأولى بوصية المسيح بمحبة الأعداء أكثر من أية وصية أخرى في الأربعة قرون الأولى؟ اقرأ ببساطة الموعظة، وسترى أن المسيح لم يفرق بين الوصايا والنصائح أو بين النصائح الشخصية والمبادئ الأخلاقية العامة. لقد قال: لا تقاوم الشرير، ولا تحلف، وأعط المحتاج، وأحب أعداءك. ويجب أن نتبع وصاياه بطريقة حرفية ما أمكن ذلك. ومن أجل هذا السبب تعهدت بعض المجموعات ألا تكون لها ممتلكات شخصية. وآخرون مثل الكويكرز رفضوا أن يحلفوا، أو يرفعوا قبعاتهم كتحية لأي شخصية رسمية، وعارضوا أن يكون هناك جيش في البلاد أو حتى شرطة عادية، وفيما بعد قتل الآلاف من هذه الحركات والمجموعات في أوروبا وانجلترا وروسيا والذين ظلوا أحياء منهم عبروا المحيط إلى أمريكا حيث حاولوا إقامة مستعمرات ومجتمعات

مؤسسة على مبادئ الموعظة على الجبل.

وفي أمريكا في القرن التاسع عشر ظهرت حركة لاهوتية بصياغة جديدة للموعظة على الجبل. وفسرت هذه الطائفة التي تؤمن بالتدبير الإلهي لشئون العالم هذه التعاليم على أنها آخر أثر لعصر الناموس الذي سيحل محله عصر النعمة فور موت المسيح وقيامته، وبالتالي لسنا بحاجة لأن نتبع تلك الوصايا المتزمتة.

وجاء ألبرت شفيتزر بتفسير آخر إذ رأى أن الموعظة على الجبل ما هي إلا مجموعة من متطلبات مؤقتة لأزمنة غير عادية. ولأنه كان مقتنعاً أن العالم سوف ينتهي سريعًا كما ورد في سفر الرؤيا، بأن المسيح وضع لذلك نوعًا من القانون المادي، ولأن العالم لم ينته يجب أن ننظر إلى هذه المبادئ والتعليمات نظرة مختلفة.

درست كل هذه التفسيرات محاولاً فهم الموعظة على الجبل، محاولاً أن أجد طريقة للتخلص من قسوة متطلباتها. كل مدرسة فكرية ساهمت بأفكار هامة رغم أن لكل منها نقطة سوداء. فتقسيم الإكويني الموعظة إلى مبادئ أخلاقية ونصائح يجعل الأمر سهل الفهم، ولكن المسيح لم يضع هذا التقسيم، بل إنه قد سوى بين المبدأ الأخلاقي: "لاَ تَزْنِ" والنصيحة: "إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا ، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ". ويبدو أن الحل الذي وضعه لوثر لفهم الموعظة على الجبل كان بارعًا وحكيمًا، ولكن الحرب العالمية الثانية أوضحت مساوئ الانفصام التي قد يسمح بها هذا التفسير. فالمسيحيون الذين اتبعوا مبادئ لوثر خدموا في جيش هتلر بضمير صاف قائلين: "نحن نتبع الأوامر". لقد نفذوا أوامر الدولة بينما كانوا يحتفظون بانتمائهم للمسيح.

أما المجموعة التي كانت تؤمن بإعادة العماد، والآخرون الذين دعوا إلى الاتباع الحرفي للموعظة على الجبل، فإن رفضهم للعنف أمام الاضطهاد ظل نقطة مضيئة في تاريخ الكنيسة. ورغم ذلك فقد اعترفوا بفشلهم في التنفيذ الحرفي لكل وصية في الموعظة. أما جماعة الكويكرز فقد وجدوا

طرقا للالتفاف حول هذه الوصايا لكي يساندوا الثورة الأمريكية. وماذا عن تصريح يسوع الواضح ضد الغضب والشهوة؟ فمنذ عدة قرون نفذ أوريجان حرفيًا تحذير يسوع ضد الشهوة، ولكن الكنيسة بدافع من الخوف أوقفت الحل الذي اقترحه، وهو الخصي.

ولكن أعضاء الجماعة الذين يؤمنون بالتدبير الإلهي لشئون العالم، والأخرون الذين ينادون بما جاء في سفر الرؤيا، يجدون مخارج ذكية للهروب من ورطة الوصايا المستحيلة في موعظة المسيح. ولكني أعتقد أنها نوع من المراوغة. إن يسوع نفسه لم يعط أي إشارة أن وصاياه تُطبق لفترة محدودة أو في ظرف خاص، ولكنه قالها مدعمة بقوله: "ولكني أقول لكم"، ومدعمة أيضًا بأنٍ: "كل من يكسر أية وصية صغيرة من هذه الوصايا ويُعلم بوصايا أخرى سيدعى الأصغر في ملكوت السماوات".

ورغم محاولاتي الجادة فلم أجد طريقة سهلة للاختراق أو الالتفاف حول ما جاء في الموعظة، والتفكير في كلمات المسيح، فإن هذا أبقاني في حالة من التوتر الروحي. فإذا كانت الموعظة على الجبل تضع الأساس لمستوى القداسة لدى الله، فإنني أذعن لها في البداية. إن الموعظة لا تساعدني على أن أتحسن، ولكنها تكشف لي ببساطة أنه ليست لدي أية طريقة لتنفيذها.

وأخيرًا، وجدت المفتاح لفهم الموعظة، ليس في كتابات اللاهوتيين الكبار، ولكن في مكان لم أكن أتوقعه. في كتابات اثنين من الروائيين الروس في القرن التاسع عشر: تولستوي وديستوفسكي.

تعلمت من تولستوي الاحترام العميق للمبادئ الكاملة لله، والتي يتعذر تغييرها. فالمبادئ الأخلاقية التي قرأها تولستوي في الأناجيل جذبته كما لو كانت شعلة، بالرغم من أن فشله في اتباعها استغرق انتباهه. وحاول تولستوي أن يتبع هذه المبادئ حرفيًا مما جعل أفراد عائلته يشعرون كما لو أنهم ضحايا بحثه عن القداسة. فمثلاً بعد ما قرأ

وصية المسيح للرجل الغني بأن يبيع كل ماله ويتبعه قرر تولستوي أن يتخلى عن كل حقوقه في طبع كتبه، ويتخلص من ممتلكاته الواسعة. وارتدى ملابس الفلاحين، وصنع أحذيته بنفسه، وبدأ يعمل في الحقول. وعندما رأت زوجته سونيا أن مورد العائلة المالي كاد أن ينفذ بدأت تحتج إلى أن تراجع بعض الشيء.

وبينما كنت أقرأ مذكراته كنت أعود بذاكرتي عندما كنت أفكر في اتجاهي نحو الكمال. وتسجل هذه المذكرات الكثير من المعارك بينه وبين عائلته ومعارك أكثر بينه وبين نفسه. وفي محاولته الوصول نحو الكمال حاول أن يضع لنفسه قوائم جديدة من القوانين. فتخلى عن الصيد والتدخين وشرب الخمر واللحوم، وخطط لقوانين أخرى لتقوية الإرادة العاطفية والمشاعر السامية، والتخلص من المشاعر السيئة. ورغم هذا فلم يتمكن من تحقيق التنظيم الذاتي الضروري لحفظ هذه القوانين والقواعد. فقد حاول أكثر من مرة أن يحلف لكي يعيش طاهرًا، وطلب أن يقيم في غرفة نوم مستقلة. ولكن لم يتمكن من أن يظل كذلك لفترة طويلة، وأعلنت سونيا زوجته عدم قدرته على ذلك لكل العالم، وحملت للمرة السادسة عشرة.

استطاع تولستوي في بعض الأحيان أن يحرز نوعًا من الانتصار. فبعد فترة طويلة كتب روايته "القيامة" عندما بلغ ٧١ عامًا لكي يؤيد بثمنها بعض الجماعات الدينية المضطهدة؛ ليستطيعوا الهجرة إلى أمريكا. وكما ذكرت سابقاً، فإن فلسفة تولستوي في عدم تأييد العنف المأخوذة من الموعظة على الجبل كان لها تأثيرها البعيد في أفكار من جاء بعده مثل: غاندي ومارتن لوثر كنج.

ورغم ذلك فقد فشل تولستوي في ممارسة ما ينادي به، وقالت عنه زوجته ما يلي: "لم تكن له العواطف الصادقة والحقيقية. لم ينبع عطفه من قلبه بل من مبادئه. كان يساعد العمال في حمل جرادل المياه، ولكنه لم يمنحني فترة راحة طوال ٣٢ سنة معه. لم يعط طفلاً من أطفاله شربة ماء،

أو يقضي خمس دقائق بجوار سريره لكي يعطيني فرصة للراحة، ولو قليلاً من عملي طوال اليوم".

إن كفاح تولستوي المتواصل لم ينتج عنه أي شعور بالسلام أو الأمن حتى في لحظات موته، فكان يسجل في مذكراته مركزًا على فشله. وعندما كان يكتب عن محاولته أن يعيش بالإيمان كانت تسيطر عليه فكرة التنافر بين الواقعية والمثالية، ولم يتمكن من إسكات تبكيت ضميره لأنه كان يعلم أن ضميره على حق.

لم يكن تولستوي سعيدًا، وكان يشجب بعنف الفساد الموجود في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في زمانه حتى حُرم كنسياً. وانهارت كل خططه لتحسين ذاته. واضطر إلى أن يخبئ كل الحبال والبنادق من عقاراته، لكي يقاوم تجربة الانتحار. وفي النهاية هرب من الشهرة والعائلة والممتلكات، ومات كمتشرد في محطة ريفية للسكة الحديد.

ماذا تعلمت من الحياة المأسوية لتولستوي؟ لقد قرأت الكثير من مؤلفاته الدينية وقد ألهمتني رؤيته المتعمقة في المبادي الإلهية. وتعلمت أنه على عكس ما يقوله الآخرون بأن الإنجيل يحل كل مشاكلنا بطرق كثيرة في قضايا العدالة والمال، فإن الإنجيل يزيد من أثقالنا. لقد رأى تولستوي ذلك، ولكن لم يقلل من المثل المذكورة في الأناجيل.

أجاب تولستوي منتقديه قائلاً: "لا تحكموا على قداسة المبادئ الإلهية بعدم قدرتي على تنفيذها. ولا تحكموا على المسيح بأولئك الذين يحملون اسمه، ولا ينفذون وصاياه بطريقة كاملة"، والسطور التالية جزء من خطابه، وهو يجيب على منتقديه، وهو في نهاية حياته. ويلخص هذا الجزء رحلته الروحية، وهو في نفس الوقت تأكيد واضح للحق الذي آمن به في قلبه، وطلب حزين للنعمة التي يعترف أنه لم يدركها بطريقة كاملة. قال له صديقه ليف نيكولايفتش: "أنت تبشر بطريقة جيدة، ولكن هل أنت تنفذ ما تعظ به"؟ هذا السؤال يوجه لي باستمرار بطريقة استفزازية كما لو أنهم يريدون مني أن أتوقف "أنت تعظ،

ولكن كيف تسلك؟ وأجيبهم بالقول: أنني لا أعظ بما لا أستطيع أن أبشر به بالرغم من أنني أود ذلك بكل مشاعري. أشعر أنني مذنب ورديئ وأستحق العقاب، لفشلي في تنفيذ الوصايا. وفي نفس الوقت ـــ لا لكي أبرر نفسي ـــ بل لكي أوضح مدى حاجتي إلى الثبات على المبدأ أقول: "انظر إلى حياتي الحالية ثم إلى حياتي السابقة وسوف ترى أنني حاولت فعلاً ان أنفذ هذه الوصايا. أعرف أنني لم أتمكن من تحقيقي ١ على ١٠٠٠ منها، وأشعربالخجل بسبب ذلك. ولكنني فشلت في ذلك لا لأنني لا أريد ذلك، ولكن لأنني لم أستطع: علمني كيف أهرب من شبكة التجارب المحيطة بي وسوف أتبع كل الوصايا وبدون أية مساعدة. كم أود أن أحققها في حياتي".

ويواصل تولستوي قائلاً: "هاجمني، وأنا أفعل ذلك مع نفسي، ولكن لا تهاجم الطريق الذي أسلكه، والذي أشير به على كل من يسألني أين أجده. فإذا عرفت الطريق إلى المنزل، ثم أسير نحوه، وأنا مترنح الخطى، فهل عدم ثباتي في السير يدل على أن الطريق غير صحيح. وإذا كان كذلك فأرجو أن تشير عليَّ بطريق آخر. ولكنني إذا كنت أترنح وأسير في طريق خاطئ ساعدني وأرشدني إلى الطريق الصحيح تماما كما أنني على استعداد لمساندتك. لا تفرح لأنني ضللت الطريق، ولكن ساعدني وساندني".

إنني أشعر بالحزن، وأنا أقرأ كتابات تولستوي الدينية. إنها بمثابة أشعة X التي تكشف تفاصيل قلب الإنسان والتي جعلت تولستوي كاتبًا روائياً عظيمًا حولته أيضًا إلى مسيحي معذب. ومثل سمكة السالمون التي تضع بيضها كان تولستوي يناضل طوال حياته، وفي النهاية انهار بسبب الصراع والإنهاك الروحي. ورغم هذا، فإنني أشعر بأنني مدين له لملاحقته الدؤبة للإيمان الأصيل والحقيقي والتي تركت فيَّ أثراً عميقًا. ووجدت في رواياته وقصصه القصيرة مصدراً للقوة الأخلاقية. وبدون أدنى شك فقد رفع نظرتي للأمور.

كتب أ. ن ويلسون الذي أرَّخ لحياة تولستوي: "إنه كان يعاني من عدم القدرة اللاهوتية لفهم التجسد، كانت عقيدته منصبة على الناموس أكثر منه على النعمة ومحاولة تحسين ذاته أكثر من إيمانه بقدرة الله على أن يُخلص عالمًا ساقطًا. ولشفافيته الشديدة استطاع تولستوي أن يرى نقصه وعدم قدرته في ضوء وصايا الله، ولكنه لم يخط خطوة للأمام، ليثق في نعمة الله التي تُمكنه من التغلب على عجزه".

وبعد ما قرأت تولستوي، اكتشفت فيودور دستوفيسكي وهما من أشهر الكُتَّاب الروس في ذلك الوقت. ومن الأمور الغريبة أنهما لم يتلقيا أبدًا، كما أن لهما أسلوبين مختلفين في الكتابة. فبينما كانت كتابات تولستوي مضيئة ومشرقة كانت كتابات دستوفيسكي مظلمة وكئيبة. وبينما كان يحاول تولستوي أن يُحسن من ذاته، أضاع دستوفيسكي صحته في شرب الخمر، وتبديد الثروة في المقامرة. وارتكب دستوفيسكي أخطاء كثيرة، ولكنه فعل شيئًا واحدًا صحيحًا فإنه عبَّر عن إيمانه بالنعمة والغفران بنفس قوة تولستوي.

وفي بداية حياته اجتاز دستوفيسكي اختبار القيامة. فقد قُبض عليه واتُهم مع مجموعة. وحكم عليهم بالخيانة من قبل القيصر نيقولا الأول، وحكم بإعدامهم. وارتدى المتآمرون الزي الأبيض، واقتادوهم لميدان عام، وعُصبت أعينهم، وساروا أمام الجمهور، ورُبطوا في الأعمدة، وكادت أن تُسمع كلمة: "اطلق النار"، وإذا بفارس جاء يعدو بعفو من القيصر محولاً العقوبة من الإعدام إلى السجن المؤبد.

لم يفق دستوفيسكي من التجربة التي كاد فيها أن يموت، وأصبحت حياته بالنسبة له ذات قيمة كبيرة، وقال: "إن حياتي الآن سوف تتغير وأولد من جديد". وهو في طريقه بالقطار نحو سيبيريا حيث يقضي مدة سجنه، سلمته امرأة تقية نسخة من العهد الجديد، وهو الكتاب الوحيد المسموح به في السجن. ولأنه اعتقد أن الله أعطاه فرصة أخرى لافتقاده، انكب دستوفيسكي على قراءة العهد الجديد طوال فترة السجن. وبعد عشر سنوات خرج من السجن بإيمان

ثابت، كما شرح في العديد من كتاباته المشهورة قائلاً: "لو أثبت لي أحدهم أن يسوع لا يقول الحق، فإنني أفضِّل أن أظل مع يسوع من أن أبقي مع الحق".

وقدم السجن لدستوفيسكي فرصة أخرى. فقد أُجبر على العيش مع اللصوص والقتلة والسكارى، هؤلاء هم الذين ساعدوه في تحليلاته التي لا تُبارى عنهم في رواياته مثل شخصية راسكولينكوف في روايته الجريمة والعقاب. وكانت وجهة نظر دستوفيسكي في وجود العنصر الطيب في الإنسان قد اصطدمت بقوة الشر الموجودة في زملائه نزلاء الزنزانة، ورغم ذلك فقد رأى صورة الله حتى في أسوأ المساجين. وكان يعتقد أنه من خلال حب الناس يستطيع الإنسان أن يحب: "نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً"، هكذا يقول الرسول يوحنا.

لقد تواجهت مع النعمة في روايات دستوفيسكي. فرواية الجريمة والعقاب تصور إنسانًا حقيرًا وخسيسًا، ارتكب جريمة بشعة. إلا أن النعمة دخلت في حياة راسكو لينكوف أيضًا، من خلال شخصية سونيا المومس التي اهتدت للمسيحية، التي تبعته طوال الطريق إلى سيبريا، وقادته إلى التوبة، وربما تكون رواية "الإخوة كرامازوف" أعظم رواية كُتبت حتى الآن، والتي تلفت الانتباه للتناقض بين إيفان الذي يعتنق مذهب اللا أدريين، وأخوه التقي أليوشا. ويستطيع إيفان أن ينتقد فشل الجنس البشري وكل نظام سياسي، ولكنه لم يُعط أية حلول. لم يكن عند أليوشا أية حلول للمشكلات العقلية التي يثيرها لإيفان، ولكن كان عنده حل للبشرية: الحب. فيقول أليوشا: "إنني لا أعرف الحل لمشكلة الشر، ولكنني أعرف الحب". وأخيرًا في رواية "الأبله" يقدم دستوفيسكي صورة المسيح على هيئة أمير مصاب بالصرع. كان الأمير مايشكين يتحرك بطريقة غامضة بين دوائر الطبقة الروسية العليا. فاضحًا ريائهم، بينما يلقي الضوء أيضًا على حياتهم التي كلها صلاح وصدق.

هذان الكاتبان الروسيان أصبحا بالنسبة لي مرشديَّ الروحيين في رحلتي الروحية، فتعلمت من تولستوي الحاجة للنظر إلى الداخل إلى ملكوت الله الذي في داخله. وأدركت كم أنا بائس لأنني لم أتبع المُثل العليا للإنجيل. ولكن تعلمت من دستوفيسكي مدى قيمة تأثير النعمة. ليس فقط أن ملكوت الله في داخلي، ولكن المسيح نفسه هناك أيضًا. "حيثما كثرت الخطية ازدادت النعمة جدًا"، هكذا قال الرسول بولس في رسالته إلى رومية.

وتوجد طريقة واحدة لأي منا لكي يحل مشكلة التوتر بين المُثل العليا للإنجيل وبين حالتنا الواقعية السيئة: أن نتقبل أننا لن نصل إلى هذا القياس، فسوف يُحكم علينا ببر المسيح الذي يعيش فينا، وليس برنا الذاتي. وعبر عن ذلك تولستوي بنصف الحقيقة: "أي شيء يمنحني الشعور بالراحة على المستوى الأخلاقي الذي وضعه الله لنا، وأي شئ يجعلني أشعر أنني وصلت إلى النهاية هو خداع قاس". ولكن دستوفيسكي وصل إلى النصف الآخر من الحقيقة: "أي شيء يزعجني أمام غفران محبة الله"، هو أيضًا خداع قاس: "لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع"، لم يُدرك تولستوي هذه الرسالة إدراكًا كاملاً.

مُثل عليا ونعمة كاملة: بعدما تعلمت هذه الرسالة الثنائية من هؤلاء الكُتَّاب الروس، رجعت إلى المسيح فوجدت أن هذه المعاني تغمر الأناجيل، وخاصة الموعظة على الجبل. في إجابة المسيح على الشاب الغني، وفي مثل السامري الصالح، وفي تعليقاته عن الطلاق والمال أو أي قضية أخلاقية أخرى، لم يُقلل المسيح من قيمة المبادئ الإلهية. فهو الذي قال: "كُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل"، "تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قدرتك". لا تولستوي ولا فرنسيس الأسيزي ولا الأم تريزا ولا أي شخص آخر نفذ هذه الوصايا بطريقة كاملة.

ورغم هذا فإن يسوع قدم بكل اللطف النعمة الكاملة. لقد غفر يسوع للزانية واللص على الصليب، وللتلميذ الذي أنكره وقال: إني لا أعرفه. وطلب من نفس هذا التلميذ

الخائن أن يؤسس الكنيسة كما أنه سامح شاول الذي كان يضطهد الكنيسة. إن النعمة تمتد حتى إلى الذين سمروه على الصليب: "يا أبتاه اغفر لهم؛ لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون"، كانت هذه من بين أواخر الكلمات التي تفوه بها المسيح على الأرض.

ولعدة سنوات شعرت بعدم استحقاقي أمام المُثل الكاملة المذكورة في الموعظة على الجبل، لدرجة أنني لم ألحظ فيها شيئًا عن النعمة، وفي إحدى المرات أدركت رسالة الموعظة على الجبل المزدوجة، واكتشفت أن النعمة تنتشر عبر كل العظة. تبدأ بالتطويبات: "طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، طُوبَى لِلْحَزَانَى، طوبى للمتواضعين .."، ثم تنتقل إلى الصلاة الربانية: "اغفر لنا ذنوبنا .."، لقد بدأ المسيح هذه العظة بكلمات رقيقة لأولئك المحتاجين، وأن النعمة لليائسين والمحتاجين والمكسورين، لنا جميعنا.

ولعدة سنوات أيضًا كنت أعتقد أن الموعظة على الجبل مثل الرسم البياني للسلوك الإنساني الذي قد لا يتمكن أحد من اتباعه. وعندما قرأتها مرة ثانية وجدت أن المسيح لم يعط هذه الكلمات لكي يُرهقنا بل ليخبرنا: ماذا يُشبه الله. إن شخصية الله هي مركز الموعظة على الجبل. لماذا يجب أن نحب أعداءنا؟ لأن إلهنا يشرق شمسه على الصالحين والطالحين، لماذا يجب أن نحاول أن نكون كاملين؟ لأن الله هو كامل. لماذا يجب أن يكون كنزنا في السماء؟ لأن الله يعيش هناك، وسوف يُكافئنا بسخاء. لماذا يجب أن نعيش بلا خوف أو قلق؟ لأن الله الذي يهتم بالزهور والأعشاب التي بالحقل وعد بأن يهتم بنا. لماذا يجب أن نصلي؟ "إذا كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحري أبوكم الذي في السماوات فهو يعطي هباته لكل من يطلب".

كيف لم أدرك كل هذه المعاني؟ إن المسيح قال العظة على الجبل ليس لأفعل كما فعل تولستوي، وقطب حاجبيه في يأس على فشله في تحقيق الكمال، ولكن قالها؛ لكي ينقل إلينا المُثل السماوية التي يجب أن نحاول أن نصل إليها، ولكي يوضح أيضًا أنه ولا واحد منا يستطيع أن

يصل إلى كل ما جاء بها. إن هذه الموعظة تجعلنا نُدرك المسافة العظيمة بيننا وبين الله، وأية محاولة لتقصير هذه المسافة تفقدها معناها.

وأسوأ خطأ هو أن نحوّل هذه العظة إلى صورة أخرى من صور الناموس. إنها يجب أن تضع نهاية للناموس. والناموس كما يقول الفريسيون دائمًا: "أنه سوف يفشل ليس لأنه صارم، بل لأنه ليس صارمًا بالدرجة الكافية". إن الموعظة على الجبل تثبت أننا نقف كلنا أمام الله في مستوى واحد: القتلة والزناة واللصوص ... كلنا بائسين. وهذه الحقيقة هي الحالة المناسبة للإنسان الذي يريد أن يعرف الله. ولأننا فشلنا في تطبيق المُثل السماوية ليس لنا ملجأ آخر غير الشبكة الأمينة لنعمة الله الكاملة.



إرسالية:

ثورة النعمة

ليس في النعمة إلزام وقهر!
إنها كالغيث يَنْهَل رقيقًا من سَمَاهُ
دونما نهي وأمر!
بوركت تلك الفضيلة مرتين
إنها تبارك الرحيم
مثلما تبارك المُستَرحم!
شكسبير — مسرحية "تاجر البندقية



إرسالية:

ثورة النعمة

عندما كان يقرأ الفصل الذي كنت أدرسه في كنيسة شيكاغوا في الأناجيل، وشاهدت معهم الأفلام عن حياة المسيح لاحظنا نماذج مثيرة. كلما كنت الشخصيات سيئة وغير أخلاقية، كلما كانت تسعى وتلتف حول المسيح، لأنهم وجدوا فيه جاذبية خاصة: المرأة السامرية التي لفظها المجتمع، وعسكري من جنود هيرودس الطاغية، وزكا العشار، والمراة التي بها سبعة شياطين.

وعلى نقيض هؤلاء حصل يسوع على استجابات فاترة من نماذج أخرى يحترمها الآخرون كالفريسيين والغُيُررين الذين كانوا يعتقدون أن المسيح رجل دنيوي. أو الشاب الغني الذي مضى حزينًا أو حتى نيقوديموس المثقف الذي جاء إلى يسوع ليلاً حتى لا يراه أحد.

وقد لفت الفصل نظري لمدى غرابة هذه النماذج التي بدأت تظهر في كنائسنا، والتي يمُثّل أصحابها أولئك الذين يُشككون في إرسالية المسيح عندما كان على الأرض. ما الذي حدث حتى تبقى هذه النماذج كما كانت في أيام المسيح؟ لماذا ينفر الخطاة منا؟

تذكرت قصة قالها لي أحد أصدقائي العاملين في خدمة الساقطين المطرودين في شيكاغو. جاءت إليه مرة امرأة عاهرة بملابس رثة وصحة معتلة، ولا تستطيع شراء الطعام لابنتها التي تبلغ من العمر سنتين. غسلت الدموع عينيها، واعترفت أنها كانت تؤجِّر طفلتها لرجال مغرمين بالفتيات الصغيرات حتى تستطيع شراء المخدرات. كان صديقي يستمع إليها بصعوبة شديدة في صمت كامل، ولا يعلم ماذا يفعل. ثم سألها أخيرًا: لماذا لا تذهب إلى الكنيسة طلبًا للمساعدة؟ وقال لي: "لن أنسى نظرة الدهشة التي ارتسمت على وجهها، ثمر صاحت المرأة قائلة: كنيسة! ولماذا أذهب إلى هناك؟ سوف يزيدون من شعوري بأنني امرأة سيئة أكثر مما أنا فيه الآن؟

وقلت لفصلي: إننا خَلقنا مجتمعًا من الناس المحترمين في كنائسنا. أما الفقراء والبسطاء الذين كانوا يلتفون حول يسوع عندما كان على الأرض، فلا يجدون منا أي ترحيب. كيف استطاع يسوع—أطهر إنسان في التاريخ—أن يجتذب هؤلاء الناس؟ ولماذا لا يُتبع مثاله اليوم؟

اقترح واحد من الفصل، وقال: "إن التقيد الحرفي والمتزمت بالدين في الكنيسة خلق حاجزاً جعل هؤلاء الناس الذين لا يشعرون بالارتياح من وجودهم في الكنيسة". وتحول النقاش في الفصل إلى اتجاه جديد. وأخبرتهم عن مدى دهشتي، وارتباكي في بداية السبعينيات عندما منع معهد مودي للكتاب المقدس—القريب من الكنيسة— الشباب ذوي اللحي والشوارب وذوي الشعر الطويل، من دخول المعهد بالرغم من وجود صورة زيتية لمودي بنفس هذه الصفات يراها الشباب، وضحك كل من في الفصل ما عدا جريج الذي بدأ يتململ على مقعده، ورأيت الغضب والاحمرار على وجهه. ثم رفع يده في غضب شديد وتلعثم وقال: "إنني أريد أن أغادر هذا المكان. أنتم تنتقدون الآخرين لكونهم فريسيين. ولكني سأخبركم من الفريسيون الحقيقيون. أنتم هم الفريسيون—وأشار إليَّ—وكل من في الفصل. إنكم تعتقدون أنكم أقوياء وناضجون وفي مرتبة

أعلى من الآخرين. إنني أصبحت مسيحيًا في كنيسة مودي التي تنتقدوها وتحتقروها وتتحدثون في حق آثامها، وهم غائبون. وهذا تمامًا ما يفعله الفريسيون، وأنتم فريسيون".

واتجهت كل العيون نحوي منتظرة الإجابة، ولكن ليس لديّ ما أقوله فقد أمسكنا جريج، ونحن متلبسون بالجريمة. نحن الذين في غطرسة روحية نحتقر الآخرين، ونعتبرهم فريسيين، وشعرت بالارتباك وبأنني مُحاصر.

ثم رفع بوب يده—أشعر بأنني مدين له طوال حياتي لأنه أنقذني—وبدأ يقول مُلطفًا: "أنا سعيد يا جريج أنك لم تترك المكان، فنحن نحتاج إليك هنا، وأود أن أخبرك لماذا حضرت أنا لهذه الكنيسة: "كنت مدمناً للمخدرات، ولم أكن أتخيل أنني سأقترب من الكنيسة طلبًا للمساعدة، وفي كل يوم ثلاثاء تسمح الكنيسة للمدمنين بأن يلتقوا في البدروم الذي نحن فيه الآن، وواظبت على الحضور، ثم قررت الصعود للكنيسة التي ترحب بهذه العينة من البشر، وحضرت الخدمة في البداية شعرت بأنني غريب بينهم، فكانوا يرتدون الملابس الفاخرة بينما كان أفضل ما عندي هو جينز وتي شيرت، وابتلعت كبريائي، وبدأت أواظب على حضور يوم الأحد صباحاً بالإضافة إلى اجتماع يوم الثلاثاء مساءً. لم يتجنبني أحد بل اقتربوا مني. وأعترف أنني قد عرفت الرب هنا في هذه الكنيسة.

وبينما كان بوب يتكلم بهذه الفصاحة البسيطة شعرت كما لو أن طاقة هواء قد انفتحت، وتبدد كل توتر. وشعر جريج بنوع من الاسترخاء، وقدمت اعتذاراً عن فريسيتي، وانتهى الفصل، ونحن في اتحاد كامل معًا. لقد جمعنا بوب كلنا في أرضية مشتركة كخطاة محتاجين إلى الله. كم من الوقت تحتاجه الكنيسة؛ لكي تكون ملجأ للعاهرات والعشارين والفريسيين حيث يجتمعوا معًا فرحين؟

لقد كان يسوع صديقًا للخطاة. لقد كانوا يحبون الالتفاف حوله، وكانوا يتوقون لصحبته. وفي نفس الوقت، وجد الناموسيون فيه حجر صدمة، وأنه ثوريًا. ما من يسوع الذي لم نعرفه؟

يقول المثل: "عرفني من صديقك أقل لك من أنت". وأتخيل كما يكون رعب الناس في فلسطين في القرن الأول لو طبقوا هذا المثل على يسوع الناصري. يذكر لنا الكتاب أن المسيح قَبِل ثماني دعوات للغداء. ثلاثة منهم ــــ عرس قانا الجليل، ومع مرثا ومريم، ومع تلميذي عمواس بعد القيامة ــــ كانت دعوات في مناسبات اجتماعية مع أصدقاء. أما الخمس دعوات الباقية، فتتحدى كل القيم الاجتماعية.

في إحدى المرات تناول المسيح طعامًا مع سمعان الأبرص. ولأنني كنت أعمل مع الدكتور بول براند، وهو متخصص في علاج البرص تناولت مرة الطعام مع مرضى البرص. إن مدى التقدم العلمي لم يفعل إلا القليل للتخفيف من شعور الأبرص بالعار الاجتماعي من البرص. وأخبرني مرة رجل هندي متعلم ومحترم: أنه في يوم زواج ابنته جلس في السيارة بالخارج يبكي. ولم يجرؤ على الدخول للكنيسة، وعلامات البرص على جسمه لئلا يهرب المدعوون. كما أنه لم يتمكن من دعوة أحد لمنزله حسب التقاليد، فمن يقبل أن يدخل بيت الأبرص؟

وفي فلسطين أكد الناموس الشعور بالعار لدى الأبرص الذي كان عليه أن يعيش خارج المحلة، وينادي قائلاً: "نجس" عندما يقترب منه أي شخص. ورغم هذا فقد تجاهل يسوع كل هذا، وذهب إلى بيت سمعان الأبرص. وأثناء تناول الطعام حضرت امرأة خاطئة، وصبت قارورة طيب كثير الثمن على رأس يسوع. وطبقًا لما جاء في إنجيل مرقس ترك يهوذا الإسخريوطي المأدبة في اشمئزاز، وذهب إلى الكهنة ليخون يسوع.

وفي مشهد آخر تناول المسيح طعام الغذاء مع رجل آخر يدعى سمعان. وهنا أيضًا جاءت امرأة خاطئة، وغسلت قدمي يسوع بدموعها، ومسحتهما بشعر رأسها، وهنا ــــ ولكون سمعان فريسيًا ــــ اعترض على ما فعلته هذه المرأة الحمقاء. وأجابه يسوع إجابة توضح لنا لماذا كان المسيح يفضل صحبة العشارين والخطاة على أناس معروفين كسمعان، وقال له: أتنظر هذه المرأة؟ إني دخلت بيتك،

وماء لرجليَّ لم تُعط، وأما هي فقد غسلت رجليَّ بالدموع، ومسحتهما بشعر رأسها. قُبلة لم تقبلني، وأما هي فمنذ دخلت لم تكف عن تقبيل رجليَّ. بزيت لم تدهن رأسي، وأما هي فقد دهنت بالطيب رجليَّ. من أجل ذلك أقول لك: "قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ، لأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيرًا . وَالَّذِي يُغْفَرُ لَهُ قَلِيلٌ يُحِبُّ قَلِيلاً". (لوقا ٧: ٤٤ - ٤٨).

ومرة قبل يسوع ضيافة أحد رؤساء الفريسيين. ولأن لهم مشاعر مزدوجة كان القادة الدينيون يتبعون يسوع، ويدعونه لتناول الطعام معهم، وهم يفحصونه بدقة في كل تصرفاته. وقد شفى مريضاً بالاستسقاء في يوم سبت، وعقد مقارنة قاسية بين المآدب الاجتماعية الفخمة للفريسيين، ومأدبة الله التي يصنعها للمساكين والجُدع والعُرج والعُمي لكي يكافئ في قيامة الأبرار.

وآخر مأدبتين كانتا في منازل العشارين الذين كانوا يجمعون الضرائب مقابل عمولة، ولكنهم كانوا يبتزون المال من الناس بقدر ما يستطيعون. وكان اليهود يعتبرونهم خونة يخدمون الإمبراطورية الرومانية. فكلمة العشار مرادفة للص والقاتل، وكانت المحاكم اليهودية لا تأخذ بشهادة العشار معتبرة أن شهادته باطلة، ولا تُقبل أمواله كصداقة للفقراء، ولا يتعاملون معه معتبرين أن ماله حرام.

وبطريقة واضحة ومحددة دعي يسوع نفسه إلى منازل العشارين. فعندما رأى زكا على الشجرة ناداه لكي ينزل، وقال له: "ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك". وأعرب الناس عن عدم موافقتهم، ولكن المسيح رد عليهم بالقول: "إن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلص ما قد هلك. لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى".

وعندما قرأت عن أصدقاء يسوع على الموائد، بدأت أبحث عن مفتاح يوضح لي: لماذا جعل يسوع الخطاة يشعرون بالارتياح. والمتدينين يتضايقون منه؟ ووجدت هذا الأمر في مشهد من الأناجيل حيث جمع بين الفريسيين

والخطاة بطريقة تلقائية. فقد أمسك الفريسون امرأة زانية، وهي جريمة عقوبتها الرجم حتى الموت، وسألوا يسوع ماذا سيفعل بشأنها؟ وهم بذلك كانوا يأملوا في أن يضعوه في موقف صراع بين الأخلاق والرحمة.

وانحنى يسوع، وبدأ يكتب على الأرض، ثم قال لهم: "من كان منكم بلا خطية ليرمها أولاً بحجر"، وعندما رحل الجميع قال لها يسوع: "أين هم المشتكون عليك؟ أما دانك أحد؟ ولا أنا أدينك اذهبي، ولا تخطئي أيضًا". إن هذا المشهد يكشف مبدأ يسوع الواضح في الحياة. إنه يجعل الخطية المستترة تطفوا على السطح، ورغم هذا يغفر لكل من يعترف بها. لقد منح الزناة غفراناً وحياة جديدة بينما ذهب الفريسيون مُثقلين بخطاياهم. ربما استجاب العشارون والزواني وخطاة آخرون معروفون لأنهم كانوا يعرفون أنهم خطاة وجذبهم غفران الله.

واجهت رسالة المسيح استجابة مزدوجة بين يهود القرن الأول. فالكثيرون منهم فضلوا أسلوب يوحنا المعمدان الذي نادى بالدينونة وغضب الله على الخطاة، فضلوا هذا على رسالة يسوع عن النعمة المعروضة على الجميع. وأنا أستطيع أن أفهم هذا التفضيل الغريب للناموس بسبب البيئة القانونية التي نشأ فيها من فضلوا الناموس. النعمة متزعزعة وسريعة الزوال، ويصعب أن تستحوذ على تفكيري. أما الخطية فهي أمر خطير وهدف سهل للانقضاض عليه. وفي ظل الناموس كنت أعرف مركزي ومكاني.

أثناء محاولة ويندي كامير اليهودي لفهم المسيحية اعترف قائلاً: "فيما يختص بالإيمان فإن عقيدة الخلاص بالنعمة فقط لا تستهويني إطلاقًا. إنه عدم احترام للعدالة. إنهم يصورون لنا إلهًا يفضل الإيمان على العمل. إنني أفضل إلهًا ينظر إلينا باحتقار، ويقول: يجب أن يوقف البشر قلقهم على ما إذا كنت موجودًا أم لا، وليبدأوا في طاعة وصاياي". وفي الحقيقة نحن كمسيحيين قد يكون

من السهل علينا أن نتبع إلهًا يقول ببساطة: "أطيعوا وصاياي".

وتخيل اليهود في أيام المسيح سُلَّماً يصعد ويرتفع إلى أن يصل إلى الله. فهناك هيئة كهنوتية عبَّر عنها التوراة في نظام الهيكل. فالأمم مثل السامريين يُسمح لهم أن يكونوا في الدار الخارجية فقط ويفصلهم حاجز عن الجزء الخاص باليهوديات. ويستطيع الرجال اليهود أن يتقدموا مرحلة للأمام. أما الكهنة فيدخلون إلى القدس، وأخيرًا رئيس الكهنة يمكنه الدخول إلى قدس الأقداس مرة واحدة في السنة.

واتبع المجتمع اليهودي نظامًا للطوائف الدينية مبني على درجات في القداسة، وكان الفريسيون يؤكدون هذا النظام يوميًا. فكل مبادئهم عن غسل الأيدي وتجنب كل ما هو نجس هي محاولة، ليكونوا مقبولين لدى الله. ألم يضع الله قائمة بالحيوانات المقبولة وغير المقبولة للذبيحة؟ ألم يمنع الله الخطاة والمرأة الحائض والذين بهم عيوب جسدية من دخول الهيكل؟

وظهر يسوع وسط هذا النظام من الطوائف الدينية. واندهش الفريسيون إذ أن يسوع كان يتعامل بلطف وتلقائية مع الأطفال والخطاة والسامريين. كما أنه أحب النجسين: البرص والمعاقين ونازفة الدم والمجانين والذين بهم شياطين. ورغم أن الناموس وُضع يومًا للتطهير لكل من يلمس مريضاً قام يسوع بالشفاء الجماعي حيث لمس العشرات من المرضى، ولم يهتم بما يقوله الناموس في هذا الصدد.

ولكي نأخذ مثالاً لهذه التغييرات الثورية التي أحدثها يسوع فلننظر إلى مشاعره نحو المرأة في تلك الأيام. في كل خدمة بمجامع اليهود يصلي الرجال قائلين: "اشكرك ياإلهي لأنك لم تخلقني امرأة". أما النساء اللائي يجلسن في مكان منفصل نادرًا ما يعرفن شيئًا عن تعاليم التوارة، وفي الحياة الاجتماعية. فقلة من النساء كن يتحدثن مع الرجال

من خارج نطاق العائلة، ولا يصح لأي امرأة أن تلمس رجلا غير زوجها. ورغم هذا فقد تعامل المسيح بحرية مع النساء. لقد اختار المرأة السامرية التي كان لها خمسة أزواج لكي تقود نهضة روحية، وقبل الطيب من امرأة خاطئة، وكانت النسوة يتبعنه حيثما يمضي. واستشهد المسيح بهن في كثير من أمثاله وأجرى لهن الكثير من المعجزات. وكما قال الرسول بولس فيما بعد: "لأنه في المسيح لا يهودي ولا يوناني ولا عبد ولا حر ولا ذكر ولا أنثى.. ".

لقد غيَّر يسوع كل المعتقدات في عصره والخاصة بالنساء والمظلومين. فكان الفريسيون يؤمنون بأن من يلمس نجساً يتنجس، ولكن يسوع لمس الأبرص، ولم يتنجس، بل طهره. وعندما غسلت المرأة الخاطئة قدمي يسوعٍ بدموعها ذهبت مغفورة الخطايا. وأعلن يسوع إنجيلاً جديدًا هو إنجيل النصر، لكي يتطهر أي إنسان، فلا داعي لأن نقوم برحلة إلى أورشليم، ويقدم الذبيحة، وينفذ طقوس التطهير. كل ما عليه أن يفعله هو اتباع يسوع.

وباختصارٍ فقد حول يسوع التركيز من قداسة الله إلى رحمته. وبدلاً من الرسالة التي تقول: "لا يُسمح لمن فيه عيب بالدخول" أعلن: "أنه في ملكوت السماوات الكل مقبول". وهو في طريق لقائه بالأمم أكل مع الخطاة، ولمس المرضى، ووسَّع دائرة رحمة الله. وكنتيجة لأعمال يسوع تعرض نظام الطوائف الدينية للخطر، ولهذا فنذكر في الأناجيل أكثر من عشرين مناسبة تآمر فيها رجال الدين ليقتلوه.

وفي إحدى قصص يسوع قارن بين الفريسي والعشار اللذين صعدا إلى الهيكل. وتفاخر الفريسي بأصوامه وصدقاته، وأنه ليس مثل اللصوص والزناة...، ولا مثل هذا العشارِ الذي كان يقف بجانبه. بينما طرق العشار على صدرِه قائلاً: "ارحمني اللهم أنا الخاطئ"، ووصلِ يسوع للنهاية قائلاً: "أقول لكم إن هذا الرجل (العشار) خرج مبررا دون ذلك".

هل يمكننا أن نستنتج من قصة يسوع أن الأعمال الحسنة لا قيمة لها، وأنه لا يوجد فرق بين الذي يتبع الناموس واللص والزاني... بالطبع لا. إن السلوك مهم للغاية، ولكنه لا يجعلنا مقبولين لدى الله. وعلق أ. ن. ويلسون على هذه القصة بالقول: "إن كل ما يهم في هذه القصة هو قدرة الله على الغفران".

وفي كل تعاملاته الاجتماعية مارس يسوع التغيير والانقلاب العظيم الذي وضعه موضع التطبيق. فنحن في هذا العالم عادة ما نحترم الأغنياء والناجحين. أما النعمة فتعرفنا بعالم ذي منطق جديد.

ولأن الله يحب الفقراء والمعذبين والمضطهدين هكذا ينبغي أن نفعل نحن أيضًا. يجب أن ننظر إلى العالم من خلال ما يسميه أيرناوس: "عيون شفتها النعمة".

أظهرت أمثال يسوع مدى أهمية هذه الرسالة إذ قد جعل الفقراء والمحتاجين أبطال قصصه. وتصور إحدى هذه القصص رجلاً فقيرًا يدعى لعازر الذي استغله رجل غني. في البداية كان الغني يتنعم بلبس إلبز والأرجوان والطعام الفاخر بينما هذا الشحاذ الفقير طرح عند بابه مضروباً بالقروح. ولكن الموت قلب الموازين. سمع الغني إبراهيم يناديه قائلاً: "يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك، وكذلك لعازر البلايا، والآن هو يتعزى وأنت تتعذب" (لوقا ١٦: ١٩ - ٢٥).

ولفترة وجيزة اتبعت الكنيسة هذا المنطق الجديد، وكنتيجة لهذا اشتهر المسيحيون في داخل الإمبراطورية الرومانية بسبب دعمهم للفقراء والمتألمين. كما قاموا بحماية أصدقائهم من المحتلين البرابرة. وعندما انتشر الطاعون قام المسيحيون برعاية المرضى والاهتمام بهم في حين سلم الوثنيون من حولهم المرضى إلى السلطة عند ظهور أعراض المرض عليهم. وقد نفذت الكنيسة في القرون الأولى تعليمات المسيح التي دعاهم فيها لرعاية الغرباء، وإطعام الجياع، وزيارة المسجونين.

وعندما أقرأ قصص المسيح، وأدرس تاريخ الكنيسة الأولى ينتابني شعور متناقض من الانتعاش والضيق في ذات الوقت. ويبكتني السؤال الذي أثرته سابقاً مع فصلي في كنيسة شيكاغو. ففي ضوء مثل المسيح الواضح كيف أصبحت الكنيسة الآن مجتمعًا للأغنياء والمحترمين بينما لا يضيق صدرها بالفقراء؟

أقيم الآن في كولورادو، وحيث أواظب على كنيسة معظم الناس فيها من الطبقة المتوسطة. ويروعني عندما أفتح العهد الجديد، وأرى التربة المختلطة التي نمت فيها الكنيسة. أما كنيسة الطبقة المتوسطة اليوم، فإنها لا تشبه تلك التي ذُكرت في الأناجيل أو في سفر الأعمال. عندما تخيلت نفسي أنني عُدت إلى زمن المسيح حاولت ان أصور المشهد. يلتف حول المسيح الفقراء والمرضى والعشارين والخطاة والزواني منتظرين رسالة الشفاء والغفران. أما الأغنياء والأقوياء، فكانوا يقفون على جانب الطريق، ليتجسسوا على يسوع محاولين أن يوقعوه في خطأ. إنني أعرف كل هذه الحقائق عن زمن المسيح، ورغم هذا فبسبب الراحة التي أجدها في كنيسة الطبقة المتوسطة في بلد غني كالولايات المتحدة؛ لا أستطيع أن أرى جوهر هذه الرسالة التقدمية للمسيح.

ولكي أحاول تصحيح هذه الرؤية قرأت بعض الخدمات التي تصدر عن المجتمعات الكنسية في العالم الثالث. إن الإنجيل في نظر العالم الثالث يبدو مختلفًا عن الإنجيل الذي يعظون به في الولايات المتحدة. إن الفقراء والأميين لا يمكنهم أن يندمجوا مع النص الذي كُتب عن إرسالية المسيح: "لأنه مسحني لأبشر المساكين ولأنادي للمأسورين بالإطلاق"، إنهم يعتبرون هذا النص أخبارًا سارة. وهم يفهمون هذا التحول العظيم لا كشيء مجرد، بل كوعد الله لأمل قوي وجريء كتحدي المسيح لأتباعه. وبالرغم من المعاملة السيئة من الآخرين للفقراء، فهناك تأكيد من الله بأنهم غير مرفوضين.

أكد كاتب ياباني يُدعى سوزاكواندو في كتاباته عن التحول العظيم الذي أحدثه يسوع كالعنصر الأساسي في رسالته. وفي بلد مثل اليابان، والتي تمثل الكنيسة فيها نسبة ١٪ من تعداد السكان تأثر أندو بأم مسيحية تقية، وشعر بهذا التحول والتغيير في حياته حتى إن زملاءه في الفصل ضايقوه، لارتباطه بالعقيدة الدينية الغريبة. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية سافر إلى فرنسا آملاً أن يجد هناك زملاء روحيين. ولكنه واجه الاضطهاد مرة أخرى ولكن لسبب عنصري وليس ديني.

واجتاز أندو أزمة شديدة في إيمانه عندما وجد نفسه مرفوضاً في بلاده، ومرفوضاً في ملجئه الروحي. وبدأ في زيارة فلسطين محاولاً البحث في حياة يسوع هناك، وفي أثناء ذلك اكتشف شيئًا مهماً: عرف أن يسوع كان أيضًا مُضطهداً ومرفوضاً، وضحك منه الجيران، وهزأت به أسرته، وتخلى عنه أصدقاؤه، ووصفه الناس بالإرهابي، وعلم أنه طوال إرسالية يسوع انجذب نحوه الفقراء والمرفوضون والرعاع والمنبوذون.

هذه الرؤية الجديدة عن يسوع أثرت تأثيرًا شديدًا في أندو. فعندما كان بعيدًا عن اليابان كان ينظر إلى المسيحية على أنها انتصار وقوة. فقد درس تاريخ الإمبراطورية الرومانية والحروب الصليبية وأعجب بالصور الفخمة بكاتدرائيات أوروبا، وحلم بأن يعيش في بلد حيث يمكن للإنسان أن يعيش مسيحيًا دون أية إهانة أو احتقار. والآن بعد دراسة الكتاب المقدس وجد أن يسوع نفسه قد أهين. لقد كان العبد المحتقر، وكما قال عنه أشعياء: "مُحتقر ومخذول من الناس رجل أوجاع ومختبر الحزن... وكمستر عنه وجوهنا لم نعتد به". وشعر أندو أن يسوع يستطيع أن يفهم المهانة والاحتقار الذي تعرض له أندو.

وشعر أندو أن يسوع متَّعه بحب الأب والأم. وبالتأكيد فإن الرحمة تظهر في العهد القديم أيضًا، ولكنها تختفي بسهولة وسط التأكيدات المتكررة لديونة الناموس. وإذا كان المسيح قد خاطب أناسًا لهم هذه الخلفية الناموسية

المتزمتة، فإنه أخبرهم عن إله يفضل أن يستمع إلى طلبات الإنسان العادي الخاطئ على توسلات المتدينين المحترفين. لقد شبه الله بالراعي الذي يترك ٩٩ خروفًا من خرافه، ويبحث عن الخروف المفقود، وشبهه بأب لا يستطيع أن يوقف تفكيره عن ابن متمرد، بالرغم من أن لديه ابناً آخر محترمًا ومطيعًا، كما شبهه برجل غني صنع مأدبة، وفتح الأبواب للرعاع والسكيرين والفقراء.

إن الحنو والشفقة كانا يحركان يسوع الذي كان يحنو على كل المكروهين وغير المستحقين والمهمشين في المجتمع والذين نتمنى أن يرحلوا عنا لكي يبرهن لنا أن الله يهتم بهم اهتمامًا شديدًا. ذات مرة اقتربت منه امرأة نجسة كانت تخشى أن تقترب منه، لمست ثوبه راجية ألا يراها، ولكنه لاحظها، وعلمت مثل كل المهمشين الآخرين بأنه لا أحد يستطيع أن يهرب من نظرات يسوع. وبرهن يسوع شخصيًا أن الله يحب كل الناس ليس كأمم وجماعات بل كأفراد أيضًا. إن أمرنا يهم الله. وكما قال القديس أوغسطينوس: "لأنك أحببت من لا يُحبوا، فإنك أحببتني".

في بعض الأحيان أجد من الصعب عليَّ ان أصدق محبة الله. أنا لا أعيش في فقر مثل المسيحيين في العالم الثالث. ولم أختبر حياة الرفض والاضطهاد مثل شوزاكواندو ولكنني أخذت نصيبي من الألم، وتلك حقيقة تجتاز إلى كل الأجناس وتعبر كل الحواجز الاقتصادية. فالذين يُعانون يكونون محتاجين أيضًا إلى العيون التي شفتها النعمة.

دعيت مرة من قبل شخصين لأن أتحدث عن كتاب من كتبي. الشخص الأول قسيس شاب في كولورادو علم أن زوجته وطفلته كانوا يموتون بمرض الإيدز. وسأل هذا القسيس الشاب: "كيف يمكنني أن أتحدث لمجموعة الشباب التي أخدمها عن محبة الله بعد الذي حدث لي" وفي اليوم التالي سمعت أن رجلاً أعمى دعى شخصًا ما شفي من الإدمان دعاه إلى بيته كعمل من أعمال الرحمة، ثم اكتشف أخيرًا أن هذا الرجل ارتكب خطية الزنى مع زوجته، وهو

في بيته. ثم سألني: "لماذا يعاقبني الله، وأنا أخدمه؟" وترك الرجل المكان، ولم أعرف عنه شيئًا فيما بعد.

تعلمت ألا أحاول ان أجاوب على السؤال: لماذا؟ لماذا أخذت زوجة القسيس الشاب زجاجة الدم الملوث؟ لماذا يضطهد بعض الناس لأعمالهم الطيبة بينما يعيش الأشرار أصحاء مستمتعين بعمر طويل؟ لماذا تُستجاب القليل من ملايين الصلاة المرفوعة لشفاء المرضى؟ أنا لا أعرف الأسباب.

سؤال واحد لم يعد يزعجني كما أزعجني من قبل، سؤال يكمن وراء معظم نقط خلافنا مع الله: "هل الله يهمه أمرنا؟" أنا أعلم الطريقة الوحيدة لإجابة هذا السؤال، وقد عرفته من دراستي لحياة يسوع. ففي يسوع أعطانا الله وجهًا أستطيع أن أقرأ فيه كيف يشعر الله نحو أناس مثل القس الشاب والرجل الأعمى. إن يسوع قد أزال الكثير من الآلام، وشفى قليل من الناس في فلسطين، ولكنه يهتم فعلاً بالإجابة على سؤالنا عن مدى اهتمام الله بنا.

نعرف ثلاث مناسبات بكى فيها يسوع: بكى عندما مات لعازر. وأنا أتذكر شيئًا مؤلماً بالنسبة لي عندما مات ثلاثة من أصدقائي خلال فترة قصيرة. إن الحزن ليس أمرًا يُعتاد عليه. بل إن حزني على الصديقين الأولين لم يمهد لي الطريق لحزني على الثالث. لم أستطيع ان أفعل شيئًا إلا أن أبكي. شعرت بارتياح عندما قرأت أن يسوع كان له نفس الشعور عند وفاة صديقه لعازر. وهذا يعطيني مفتاحًا لمعرفة شعور الله عندما مات أصدقائي الثلاثة الذي كان يحبهم أيضًا.

وبكى يسوع أيضًا عندما نظر إلى أورشليم، وأدرك المصير المؤلم الذي ينتظرها وقال: "يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، وأنتم لم تريدوا". وشعرت وسط هذه الآلام العاطفية ما شعور الأب عندما يضل ابنه أو ابنته الطريق إليه. أو ألم رجل أو امرأة يترك أحدهما الآخر. أنه ألم

مميت. وكم أتألم عنما أدرك أن ابن الله بنفسه صرخ صرخة، بأسى تجاه الحرية الإنسانية. إن الله نفسه بكل قوته لا يستطيع أن يُكرِه إنسانًا على أن يحب.

وأخيرًا يخبرِنا سفر العبرانيين أن يسوع: "قدم بصراخ ودموع للقادر أن يُخلِّصه من الموت"، ولكن الله لم ينقذه من الموت. إنه لأمر مؤلم أن يسوع نفسه سأل نفس السؤال الذي يشغلنا جميعًا: "هل الله يهمه الأمر؟ ماذا يعني هذا النص من المزمور الغامض: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟".

أشعر بارتياح غريب عندما أعرف أن يسوع واجه الألم كما أفعل أنا، لم يصل في البستان قائلاً: "إلهي أشكرك لأنك اخترتني لكي أتألم نيابة عنك، إنني أفرح لهذا الامتياز"، كلا لم يحدث هذا. لقد اختبر الألم والخوف والهجر واليأس، وهو مازال يتحمل لأنه يعلم أن الأب موجود في مركز الكون، ويستطيع أن يثق في إله محب بالرغم من كل الظروف المحيطة.

إن استجابات يسوع للناس الذين يعانون وللمهمشين تعطينا لمحة عن قلب الله. إنه المحب الذي يقترب منا. ينظر إليَّ في ضعفاتي كما نظر إلى الأرملة التي سارت وراء ابنها الميت، وإلى سمعان الأبرص، وإلى بطرس الذي أنكره، وطالبه بأن يرعى الكنيسة كمجتمع يحتاج أن يكون فيه مكان لكل المرفوضين.

٩

المعجزات:

لقطات خارق للطبيعة

إن الإنسان الواقعي—إذا كان غير مؤمن—سوف يجد دائمًا قدرة على عدم تصديق المعجزات، وإذا واجهته معجزة لا تقبل الجدل فسوف لا يُصدق حواسه أكثر من اعترافه بالحقيقة. إن الإيمان لا ينبع من المعجزة ولكن المعجزة من الإيمان.

فيودور دستوفيسكي

٩

معجزات:

لقطات خارقة للطبيعة

كانت المعجزات تسود الجو الذي نشأت فيه. فمعظم أيام الأحاد يشهد الناس في الكنيسة عن استجابات معجزية لصلواتهم التي رفعوها في الأسبوع الماضي، مثل أشياء مفقودة وجدت، أو أورام خبيثة اختفت قبل موعد الجراحة، وبدا لي يسوع ــ في هذه الأيام ــ كما لو كان ساحراً عظيمًا. وتركت فيَّ قصة سيره على المياه انطباعاً قويًا. كم كنت أود أن أحلق في غرفة الدراسة بالمدرسة مثل ملاك، لكي أسكت كل الذين استهزؤوا بي وبالأمور الدينية. وكم أتمنى أن أخترق الصفوف في محطة الأتوبيس كما سار المسيح وسط الجماهير الغاضبة في مدينته.

ولكني لن أتمكن من ذلك، ولن تُستجاب صلواتي. وأحيانًا يفقد المؤمنون وظائفهم أو يموتوا. فقد توفي أبي بمرض الشلل بعد أول عيد ميلاد لي رغم الصلوات المتواصلة التي اشترك فيها المئات من المؤمنين. أين الله إذن؟

أمضيت فترة طويلة من حياتي، وأنا أتساءل كثيرًا عن هذا، وخاصة في أيام شبابي. ووجدت أن الصلاة لا تعمل مثل آلة البيع التي تضع فيها النقود، تضع النقود، وتطلب ما

تريد، ثم تتلقى الاستجابة. ورأيت أن ما يسمى بالمعجزات ليست أمورًا عادية في خبراتنا اليومية. وتغيرت نظرتي عن يسوع أيضًا، وأنا أفكر في حياته الآن أجد أن معجزاته لا تلعب الدور المهم الذي كنت أتصوره عنه في أيام طفولتي. لم يعد يسوع هو الإنسان السوبر الخارق للطبيعة.

نعم. لقد أجرى يسوع الكثير من المعجزات. ولكنه كان يطلب من الذي حدثت معه المعجزة ألا يخبر أحدًا. وبعض المعجزات مثل إقامة الفتاة التي كان عمرها ١٢ سنة سمح لتلاميذه المقربين فقط أن يشاهدوها، وطلب منهم أن يظلوا في صمت. وبالرغم من أنه لم يرفض طلب لمن كان محتاجًا للشفاء الجسدي، ولكنه رفض تمامًا أن يُجري أية معجزة، لإبهار الجماهير، أو ليُرضي الشخصيات الهامة. فقد أدرك المسيح منذ البداية أن الإثارة التي تنتج عن رؤية المعجزة لا تقود إلى الإيمان الذي يغير الحياة.

إن الشكاكين ليس لديهم مكان للحصول على المعجزات، وأي شيء يقال لهم في وصف المعجزات يرفضونه، ولكن لأنني قبلت يسوع كابن الله، الذي جاء إلى الأرض؛ لينشر سحب المجد، فإنني أقبل المعجزات التي أجراها كأمر طبيعي مُكملاً لعمله. ورغم هذا فإن هذه المعجزات تعني أسئلة كثيرة بالنسبة لي. لماذا هي قليلة؟ ولماذا هذه المعجزات فقط وليس غيرها؟ ولأنني صحفي، ولست لاهوتياً، لذلك ففي بحثي عن حل لذلك، فإنني أنظر إلى المعجزة على أنها مشهد مستقل، ولقطات مؤثرة من حياة يسوع.

إن أول معجزة أجراها المسيح هي أغرب كل المعجزات، ولم يُكررها بعد ذلك، ولقد كانت مفاجأة بالنسبة له. عندما كان يسوع في الثلاثين من عمره ذهب مع تلاميذه إلى عُرس قانا الجليل. وجاءت أمه أيضًا، وربما اصطحبها بعض أعضاء آخرين من العائلة. وأخذ العريس أصدقاءه في موكب احتفالي عبر الشوارع حاملين المشاعل ليُحضروا العروس، واندفع الجميع نحو بيت العريس

ليتمتعوا بحفلة طيبة. وبدأ الرقص والموسيقى والمآدب المملوءة بالطعام والخمر.

لابد وأن التلاميذ نظروا باندهاش لكل ما يحدث وخاصة أولئك الذين كانوا من أتباعِ يوحنا المعمدان الذين كانوا يتبعون نظامًا غذائيًا قاسياً، ويلبسون وبر الإبل. هل سيشاركون الفتيات اليهوديات الرقص؟ هل سيضايقهم أهل مدينة الجليل، ويسألونهم عن المعمدان؟ لم يقل إنجيل يوحنا شيئًا عن هذا، ولكنه قال أنه في لحظة توقف كل شيء لنفاذ الخمر.

هل مثل هذا الأمر يحتاج إلى المسيا الذي جاء، ليشفي المرضى، ويحرر المأسورين حتى أنه يهتم بمثل هذا الأمر التافه؟ "ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر. قال لها يسوع: مالي ولكِ يا امرأة؟ لم تأت ساعتي بعد".

يمكننا أن نخمن ما دار في ذهن يسوع في تلك اللحظات عندما فكر في طلب أمه. فإذا نفذ لها طلبها، فهذا يعني أن وقت بداية خدمته قد حان، ومن تلك اللحظة فصاعداً سوف تتغير الحياة. ولو انتشر الخبر سوف يأتي الناس من صور وصيدا إلى أورشليم. وسيتجمهر المشلولون والصم والذين بهم شياطين، نهيك عن أي فقير في الشارع يريد كأساً مجانياً من الخمر. وستبدأ الساعة في الدوران، ولن تتوقف حتى الجلجثة. وتوصل يسوع حينئذ إلى قرار، وغيَّر خططه لأول مرة، ليرضي شخصًا آخر ـــ أمه ـــ وقال للخدام: "املأوا الأجران ماء" وتحول الماء بالمعجزة إلى أفضل نوع من الخمور. لم يذكر الرسول يوحنا أن الضيوف أو صاحب العرس عرفوا بالمعجزة. أن أمه والتلاميذ والخدام هم فقط الذين عرفوا هذه بداية الآيات التي فعلها يسوع في قانا الجليل، وأظهر مجده فآمن به تلاميذه.

ماذا نتعلم من هذه الحادثة الغريبة؟ يقول سي. إس لويس: "إن المعجزة تذكرنا بنعمة الله العامة، التي تركزت في هذه اللحظة كما تتركز أشعة الشمس بواسطة أي عدسة".

إن معجزات يسوع لا تتعارض عادة مع القوانين الطبيعية، ولكنها تكرر الفعالية العادية لعملية الخلق على نطاق أصغر. يقول لويس: "بعض المعجزات التي تحدث معنا تُخبِرنا عما يفعله الله في الكون. فالله هو الذي خلق الكرمة، وعلمها كيف تسحب الماء بواسطة جذورها، وبمساعدة الشمس يتحول الماء إلى عُصارة، ويأخذ صفات معينة. وهكذا فإنه من أيام نوح، وحتى الآن يُحول الماء إلى خمر". وبالمثل فإن الأجسام المضادة في داخلنا تُجرى معجزات الشفاء في أجسادنا كل يوم، ولكن بطريقة بطيئة، وليس بسرعة معجزات المسيح.

ما المعنى وراء هذه المعجزة؟ يقول بعض المعلقين: أنها كانت إشارة إلى العشاء الأخير حيث حوَّل يسوع ليس الماء إلى خمر، بل الخمر إلى دم، دمه المسفوك من أجل البشرية. ربما يكون هذا التفسير مقبولاً، ولكني أفضل تفسيراً أكثر غرابة. يقول البشير يوحنا: إن الخدام وضعوا الماء في ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود. كانت هذه الأجران موضوعة؛ ليتطهروا فيها بحسب تقليد الناموس. وإذ بيسوع يحول هذه المياه النقية التي يستخدمها الفريسيون للتطهير إلى خمر جديد لعصر جديد قادم. فقد مضى وقت التطهير بهذه الطقوس، وجاء الوقت للاحتفال بقدوم عصر جديد. إن أنبياء مثل يوحنا المعمدان وعظوا بالدينونة. أما معجزة يسوع الأولى، فكانت عمل رحمة. وتعلم التلاميذ الذين كانوا مع المسيح ذلك الدرس، وخاصة تلاميذ يوحنا الذين تبعوا المسيح بعد موت المعمدان.

وبعد فترة وجيزة بدأ يسوع يمارس عمل المعجزات في وضح النهار أمام الجماهير المتحمسة. وجذبت معجزات الشفاء انتباه معظم الناس، كما يحدث اليوم. ففي الإصحاح التاسع يخبرنا يوحنا عن معجزة حدثت في أورشليم وهي العاصمة وقلب المعارضة للمسيح. كان الناس يعتقدون أن أي مرض يحدث هو عقوبة لمن يستحق ذلك. فقد علم الفريسيون: أن الخطية تسبب المرض والمعاناة بل والموت

أيضًا. كانوا يقولون: إن الكوارث الطبيعية هي نوع من العقاب، وكذلك الأمراض الوراثية والعمى والشلل. لذلك سأل التلاميذ يسوع.: "يا معلم من أخطأ. هذا أم أبواه حتى ولد أعمى؟" وأجاب يسوع بطريقة تغير مجرى الأفكار التي كانت سائدة لديهم عن كيفية معاملة الله للمرضى والمعاقين. فأجاب قائلاً: "لا أخطأ هذا ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه". أراد يسوع أن يُعَرِّف المرضى أيضًا أن الله يحبهم ولا يلعنهم، فكانت كل معجزة من معجزات الشفاء التي قام بها يسوع تُلغي التلقيد الذي ينادي به حاخامات اليهود الذي يقول: "أنت تستحق هذا المرض". وطلب الجيران من يسوع أن يثبت شخصيته، وبدأ الفريسيون يسألون والدي الأعمى، ويضغطون عليهما؛ ليعترفا. أما الأعمى الذي أبصر، فقال: "أخاطئ هو لست أعلم. إنني أعلم شيئًا واحدًا أني كنت أعمى، والآن أبصر".

واعتبر الفريسيون هذه المعجزة تهديدًا لتعاليمهم؛ لأنها حدثت في يوم السبت وفي أورشليم. وتمسكوا بنظرياتهم البالية في العقاب وقالوا له: "في الخطايا ولدت أنت بجملتك وأنت تعلمنا". إن العميان لاهوتياً يسقطون بسهولة. كما أن الاستجابة لهذه المعجزة وكل المعجزات الأخرى المذكورة في الأناجيل تحمل مبدأ الإيمان القوي بالرغم من أن الإيمان قد يحدث المعجزات، فإن المعجزات لا تؤدي بالضرورة إلى الإيمان.

قد يُعتبر المرض نوعًا من الانهيار للخلايا الجسدية أو نوعًا من الضعف العام للجسد والعقل والروح. وتعلمت هذا من مرضى البرص الذين كان صديقي الدكتور بول براند يعالجهم. فيما عدا المراحل الأولى، فمريض البرص لا يشعر بالألم الجسماني، وهذه في الحقيقة مشكلة، فبعد أن يُميت البرص الخلايا العصبية لا يتنبه المرضى للخطر الذي يهدد أجسادهم. فقد يمشي مريضٍ البرص على بريمة معدنية حادة، أو قد يحدث له جرحاً في عينيه، وهو لا يشعر بألم؛ فقد يؤدي هذا إلى فقد الإبصار. إن كل الألم الذي يشعرون به يأتي من الخارج، وهو رفض الناس لهم.

وحكى لي الدكتور براند قصة الشاب الذي كان يعالجه من مرض البرص في الهند. وضع الدكتور الأدوية التي سيتناولها. ولدهشة الدكتور براند بدأ الشاب يبكي بتأثر شديد، فسأل الدكتور المترجمة ما إذا كان قد ارتكب خطأ في حق المريض. ولكن الشاب قال له: "إنني أبكي لأنك وضعت يدك على كتفي. فمنذ أن حضرت إلى هنا — منذ عدة سنوات — لم يلمسني أحد".

في الدول الغربية الحديثة حيث لا يوجد مرض البرص ألا نادرًا انتشر مرض آخر له آثاره الاجتماعية السيئة، إنه برص العصر الحديث، فالإيدز هو مرض البرص الحديث. أعرف مريضاً بالإيدز سافر مسافة ١١٠٠ ميل لكي يشارك أسرته في ميتشجان في الاحتفال بعيد الشكر، وهو لم ير أسرته منذ سبع سنوات. رحب به الوالدان، وعندما جاء موعد العشاء كان أمام كل واحد منهم أكوام من لحم الديك الرومي والأكل الصيني ما عدا الابن المريض بالإيدز، فقد قدموا له القليل من الأكل في أطباق بلاستيك.

علم يسوع بالعار الذي يشعر به مريض البرص — أو الإيدز في أيامنا هذه. وينص الناموس على أن مريض البرص يعيش خارج المحلة، ويبتعد ستة أقدام عن أي شخص يقترب منه كما أنه يرتدي ملابس الحداد. ويمكنني أن أتخيل غضب الناس عندما يشاهدون الأبرص يخترق صفوفهم، ويرتمي عند أقدام يسوع، ويقول: "يارب إن أردت تقدر أن تطهرني"، ويسجل متى ومرقس ولوقا الآية: "ومد يسوع يده، ولمس الأبرص". لابد وأن الناس اندهشوا، وتساءلوا: ألم يمنع ناموس موسى هذا؟ وربما تراجع المريض لأنه لمدة سنين طويلة لم يلمسه أحد. إن لمسة يسوع وضعت نهاية لمرض البرص.

كما أن استجابة يسوع لهذا المريض وضعت مثلاً للتلاميذ من حوله، وللكنيسة من بعده؛ لكي تهتم بالمرضى والفقراء والمنبوذين. واهتمت تعليمات الكنيسة صراحة برعاية مرضى البرص، واستخدمت الإرساليات الاكتشافات العلمية الخاصة بهذا المرض، لأنهم هم فقط الذين يرغبون

في رعاية مرضى البرص. وبالمثل فقد شارك المسيحيون في ملاجئ لرعاية مرضى الإيدز. إنه تحرك جديد لأولئك الذين لهم أمل ضعيف في الشفاء، ولكنهم يحتاجون بشدة للحب والرعاية.

قالت الأم تريزا ذات مرة: "لدينا العقاقير لمرضى البرص، ولكنها لا تعالج المشكلة الرئيسية، وهي كونهم مرفوضين من الناس. وهذا ما نحاول معالجته أنا وإخواتي". إن المرضى والفقراء يعانون من رفض الناس لهم أكثر من معاناتهم المادية. أخبرني مرة سكير في أستراليا أنه وهو يسير في الشارع سمع وقع أقدام تُسرع هرباً منه. إن الوحدة والشعور بالرفض هي الفقر الحقيقي". ولا يحتاج الإنسان أن يكون طبيبًا أو صانع معجزات؛ لكي يلبي هذا الاحتياج.

وقصة أخرى تلت شفاء الأبرص في الأناجيل تبين الفرق الذي يمكن أن يفعله الأصدقاء لإنسان معذب، إنسان مشلول يحتاج بالضرورة أن يعتمد على الآخرين في إطعامه وذهابه للحمام، وهو الآن يحتاج إلى عمل الإيمان. أراد الرجل أن يقابل يسوع، وطلب من أربعة من أصدقائه أن يثقبوا السقف، ويُنزلوه أمام يسوع. وصُدمت الجماهير الحاضرة مرتين: أولاً بسبب الارتباك والفوضى التي أحدثها أصدقاء المريض. وثانيًا صُدموا لرد فعل يسوع الغير متوقع: "فلما رأى يسوع إيمانهم— أي إيمان أصدقائه— قال للمفلوج: ثق يا بني مغفورة لك خطاياك".

لقد أُعجب يسوع بمقاطعة هؤلاء الناس له. وأُعجب أيضًا بإيمانهم غير العادي. ورغم هذا؛ فقد اندهش كل من حوله. وكان قوم من الكتبة هناك جالسين يفكرون في قلوبهم: "لماذا يتكلم هذا هكذا بتجاديف؟ من يقدر أن يغفر الخطايا إلا الله وحده". وهم في كل هذا تجاهلوا المريض الملقى على سريره. فللوقت شعر يسوع بروحه أنهم يفكرون هكذا في أنفسهم، فقال لهم: "لماذا تفكرون بهذا في قلوبكم؟" أيهما أيسر أن يقال للمفلوج مغفورة لك خطاياك، أم أن يُقال: قم احمل سريرك وامشي؟".
ورغم أن يسوع ترك السؤال معلقاً للحظات— أي أنه

ترك الناس عاجزين عن اتخاذ أي قرار ـــ فإن إرساليته وخدمته قد أعطت الإجابة. وبطبيعة الأمر، فإن الشفاء أيسر جدًا من غفران الخطايا. ولكن لكي يُثبت لهم ذلك قال للمفلوج: "لك أقول: قُم احمل سريرك، واذهب إلى بيتك، فقام للوقت، وحمل السرير، وخرج قدام الكل".

لم يقابل يسوع مريضاً إلا شفاه. ولكنه التقى بشكّاكين لم يستطع إقناعهم، وخطاة لم يستطع أن يُغيرهم. إن غفران الخطايا يحتاج إلى إرادة شخصية، وبعض من الذين سمعوا أقوى كلمات يسوع عن النعمة تحولوا بعيدًا، وظلوا في خطاياهم. وأعلن يسوع لكل المتشككين: "ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا . . .". وكان يسوع يعلم أن المرض الروحي له تأثير سيئ أكثر من المرض الجسدي. كل مريض بالجسد سوف يموت في النهاية. ثم ماذا بعد هذا؟ إنه لم يات لشفاء الجسد بل لشفاء الروح.

كم هو سهل علينا نحن الذين نعيش في أجساد مادية أن نقلل من قيمة العالم الروحي. ويبدو لي أنه بالرغم من أن يسوع أمضى وقتًا طويلاً في قضايا مثل الرياء، والتقيد الحرفي بالناموس، والكبرياء، فإنني لم أسمع عن أية خدمات تلفزيونية روحية تُخصص لشفاء مثل هذه الأمراض الروحية، ولكنني أعِرف أن الكثير منها تُركز على الشفاء الجسدي. عندما أُصاب بأي ضعف أو ألم جسدي، فإنني أشعر بعذاب شديد، ولكن يندر أن ينتابني نفس الشعور عندما أرتكب الخطية.

وإذا تحدثنا عن المعجزات فإن ليسوع مجموعة مختلفة من الأولويات غير التي لأتباعه. وفي اليوم الذي سبق معجزة إشباع الجموع عبر يسوع البحيرة، ليبتعد عن الجماهير، لأن هيرودس قتل يوحنا المعمدان، لذلك فإنه احتاج إلى فترة للانعزال لشعوره بالحزن. ولكن الجماهير تبعته بالآلاف. ويقول البشير مرقس: "فتحنن عليهم إذ كانوا كخراف لا راعي لها"، وبدلاً من أن يقضي اليوم لكي يجدد نشاطه بعد حزنه على يوحنا قضاه في شفاء المرضى وتعليم الجموع.

وأثارت قصة تواجد الجماهير قضية إطعامهم. ماذا نفعل؟ يوجد على الأقل خمسة آلاف رجل فيما عدا النساء والأطفال. واقترح التلاميذ على يسوع أن يصرفهم. فأجاب وقال لهم "أعطوهم أنتم ليأكلوا". ماذا؟ هل كان يسوع جادًا في كلامه؟ لقد اتخذ يسوع قراراً لم يخطر على بال أحد، إذ أمرهم أن يجعلوا الجميع يتكئون، فاتكأوا مئة مئة وخمسين وخمسين"، وكان الحل بيد يسوع وحده. وأخذ السمكتين والخمسة أرغفة وأجرى المعجزة التي انتظرها الجميع. وأنهت الأناجيل الثلاثة المعجزة بالقول: "فأكل الجميع وشبعوا ثم رفعوا من الكسر اثني عشر قفة مملوءة من السمك.." ولكن يوحنا فقط يخبرنا ماذا حدث بعد ذلك. انصرف يسوع إلى الجبل وحده. أما التلاميذ فدخلوا السفينة وعبروا البحيرة وهاج البحر من ريح عظيمة كانت قد هبت. أما يسوع فقد مضى الليل كله فوق الجبل يصلي. ثم جاء إليهم ماشياً على الماء.

ودار حديث بين فريقين مختلفين. وعلى غير عادة يسوع فإنه اتهم الجمهور قائلاً: "أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم" ثم أضاف: "أنا هو خبز الله النازل من السماء، الواهب حياة للعالم". ثم قال أمورًا غير مفهومة: "من لا يأكل جسدي ويشرب دمي فليس لكم حياة فيكم" فرأى الكثيرون من تلاميذه أن هذا الكلام صعب الفهم! من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه فقال يسوع للاثنى عشر: "ألعلكم أنتم أيضًا تريدون أن تمضوا؟".

إن معجزة إشباع الخمسة آلاف توضح لماذا كان يسوع يحاول الامتناع عن فعل المعجزات إذ أنها تجذب الجماهير وتستحوذ على إعجابهم وتصفيقهم ولكن نادرًا ما تقودهم إلى التوبة والإيمان الحقيقي. لقد جاء يسوع برسالة الطاعة والتضحية وليس لمجرد التأثير على المشاعر.

ومن هذا اليوم اتخذ يسوع أسلوبًا مختلفًا وبدأ يتحدث بوضوح عن موته. كما بدأ يتضح من معنى التشبيه والاستعارة اللتين كان يتحدث بهما إلى الجمهور. فخبز الحياة لم يكن سحراً مثل المن. فقد جاء من السماء لكي يكسر ويختلط بدمائه. كان المسيح يتحدث عن جسده

وكما قال روبرت فارار كانون: "إن المسيا لم يخلص العالم بالمعجزات كأن يُهدئ عاصفة، أو يُطعم جموعاً أو يشفي حماة بطرس، بل سيُخلص العالم بطرق أكثر عمقاً وصعوبة وتتمركز كلها حول موته".

وعندما طلب شخص آخر من المسيح أن يجري معجزة قال: "جيل معوج وملتو يطلب آية". وفي أورشليم العاصمة بالرغم من أن الناس رأوا معجزاته، وآمنوا به لكنه "لم يأتمنهم على نفسه لأنه عرف ما يدور في قلوبهم".

وتظهر الآية الأخيرة العظيمة في إنجيل يوحنا الأصحاح الحادي عشر حيث يشير يوحنا إلى هذه المعجزة التي قلبت المؤسسة الدينية ضد المسيح. فقصة لعازر كانت فريدة. إن المسيح عادة عندما يُطلب منه شفاء أي مريض كان يستجيب بطريقة فورية ولكن في هذه المرة تأخر يومين عمداً وهو يعلم أن تأخره سوف يؤدي إلى وفاة لعازر، وحُزن عائلته عليه. والنص المذكور في إنجيل لوقا يخبرنا عن شخصيتين متناقضتين. مرثا التي ارتبكت بخدمة المنزل ومريم التي فضلت الجلوس عند قدمي يسوع. وفي وقت الشدة تظهر حقيقة كل شخصية. اندفعت مرثا للقاء يسوع وقالت له: "يا سيد لو كنت ها هنا لم يمت أخي" كانت كلمات الأختين تحمل نغمة الاتهام لله الذي لم يستجيب للصلاة. ونحن أيضًا عندما نحزن نقول كلمات مشابهة "لو كان" "لو كان تجنَّب ركوب هذه الطائرة. لو كان أقلع عن التدخين.. لو كان لديه الوقت".

إننا هنا لا نلوم الحاجة إلى الإيمان. فقد أكدت مرثا ليسوع أنها تؤمن بالقيامة وأن يسوع هو المسيا ابن الله. لماذا لم يُقدِّر يسوع هذا الإيمان البسيط؟ وتساءل الأصدقاء والأقرباء "ألا يستطيع الذي فتح أعين الأعمى أن يبقي لعازر حيًّا؟".

وكانت مريم ومرثا، وكل الناس الحزانى يبكون. وأخيرًا انزعج يسوع أيضًا في نفسه، وبكى. لم يذكر يوحنا لماذا بكى يسوع. ولأنه أعلن عن خطته لإقامة لعازر؛ لم يشعر بنفس الحزن الذي شعر به الآخرون. لقد انزعج يسوع في

نفسه. لم تكن الإقامة من الموت هي المشكلة أمام يسوع. فقد أقام ابن أرملة نايين. وأعاد الحياة لابنة يايرس. أما مع عائلة لعازر، فقد شعر بالضيق والتأثر والحزن. وتعطي لنا صلاة المسيح عند القبر مفتاح هذا الحزن: "أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي. وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت: ليؤمنوا أنك أرسلتني"، وفي تلك اللحظة أدرك يسوع الإنسان، أنه هو النازل من السماء، وهو ابن الله المولود على الأرض.

إن الصلاة العامة التي رفعها والصراخ بصوت عظيم ورفع عينيه إلى فوق كل هذا يدل على أنه كانت تجري في داخله معركة روحية خفية. كان يسوع يُشير إلى شيء ما لم يعرفه، أو يشعر به أي منهم. إن الإيمان بقوة الله ومحبته في هذه اللحظة غطى على كل الحزن. فكل ما عرفوه هو الخسارة وكل ما شعروا به هو الألم. أما ما هو بين الخسارة والألم، ربما يوضح سبب بكاء يسوع. ويقول بعض المفسرين اليونانيين: إن كلمة "انزعج يسوع في نفسه" تحمل معنى الحزن والغضب الشديد. ففي نفس هذه اللحظة كان يسوع مُعلقاً بين عالمين. فهو يقف أمام قبر تنبعث منه رائحة الموت؛ ليجري معجزة لهذا الجيل الملتوي، ولهذا العالم الملعون، ولم يقلل ألمه شعوره بأن موته هو سوف ينتهي بالقيامة. فهو كإنسان كان عليه أن يجتاز الجلجثة؛ لكي يصل إلى الجانب الآخر.

وقصة لعازر في كل مراحلها لم تعط يسوع مجرد فكرة عما سيحدث له في المستقبل فقط، ولكن أيضًا صورة مختصرة لما سيحدث لكل من على هذا الكوكب. فكلنا نظل أحياء في الفترة ما بين الموت والقيامة. كانت هناك حالة من الفوضى والارتباك بين فترة وفاة لعازر وقيامته. وبالرغم من أن هذه الفترة قد تكون مؤقتة وغير مهمة بمقارنتها بالمجد الذي ينتظرنا، فهذا هو كل ما نعرفه الآن، وهذا يكفي لكي يُبكينا ويُبكي يسوع.

إن قيامة رجل واحد لن تحل كارثة كوكب الأرض، ولهذا فسوف يموت شخص واحد. ويضيف البشير يوحنا

التفاصيل الساخرة والتي ختم بها معجزة لعازر، والتي كانت مُقدمة تمهيدية لمصير المسيح: "من ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه"، فلم يكن يسوع أيضًا يمشي بين اليهود علانية.

وعندما أقرأ الآن ما كُتب عن بعض المعجزات المختارة في زمن المسيح أجد فيها رسالة مختلفة. ولما كنت طفلاً كنت أعتبرها برهانًا كاملاً على ما يقوله يسوع. ورغم ذلك لم تقدم المعجزات في الأناجيل مثل هذا التأكيد حتى للذين رأوها شخصيًا: "إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء، ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون". (لوقا١٦: ٣١) هكذا قال يسوع عن الشكاكين. وربما كان في ذهن يسوع موضوع قيامته هو، ولكن تكملة قصة لعازر تثبت نفس الفكرة. ومن العجيب أن رؤساء الكهنة حاولوا أن يُغطوا على المعجزة بقتل لعازر. فلعازر المقام من الأموات كان دليلاً قاطعاً على حدوث المعجزة، ولذلك حاولوا تدمير هذا الدليل. كما أن المعجزة أثرت في الناس تأثيرًا كبيرًا وقادتهم إلى الإيمان. وإلا فلن يكون هناك مكان للإيمان.

وكطفل كنت أرى في المعجزة ضمانات للأمن الشخصي. ألم يقل المسيح: "ولن تسقط واحدة منها (العصافير) للأرض بدون إرادة أبيكم". وعرفت فيما بعد أن هذا الوعد ظهر في وسط سلسلة من التحذيرات للتلاميذ الإثنى عشر حيث تنبأ يسوع عن القبض عليهم واضطهادهم وموتهم. وطبقًا للتقليد فقد مات الأحد عشر رسولاً شهداء. لقد عانى يسوع كثيرًا وكذلك الرسول بولس والقادة المسيحيون الأوائل. إن الإيمان ليس هو بوليصة تأمين، أو كما قال "أيدي أسكيو": "إن التأمين لا يمنع الحوادث ولكنه يعطي قاعدة آمنة بها يمكن أن نواجه نتائجها".

وكطفل كنت أكافح لزيادة إيماني. وعندما قرأت قصص الشفاء استنتجت نوعًا من سُلم الإيمان، في قمة هذا السلم يقف أولئك الذين تأثر يسوع بشجاعتهم وإيمانهم. قائد المئة، والشحاذ الأعمى، والمرأة الكنعانية. مثل هذه القصص تبكتني أنه ليس لي مثل هذا الإيمان. وأحيانًا أصاب بنوع من اليأس أمام صمت الله. وعندما لا تستجاب صلواتي

أشعر، وكأنني أريد أن أستسلم، ولا أصلي ثانية. ولهذا فأنظر إلى أسفل السلم لعلي أجد أناسًا ذوي إيمان ضعيف. ولكن ما يشجعني أن يسوع على استعداد أن يتعامل حتى مع الإيمان الضعيف. وأتمسكَ بطريقة يسوع في التعامل مع التلاميذ الذين هجروه وشكُّوا فيه. فيسوع الذي امتدح الإيمان القوي لأولئك الذين هم في أعلى السلم رفع الإيمان الضعيف لتلاميذه. إنني أشعر بارتياح عند اعتراف والد الطفل الذي به شيطان عندما قال للمسيح: "آمنت يارب فأعن عدم إيماني"، حتى هذا الرجل صاحب الإيمان الضعيف استجاب المسيح لطلبه.

وعندما كنت طفلاً كنت أرى المعجزات في كل مكان. ولكني الآن نادرًا ما أراها كما أنها تبدو غامضة وتحتاج للكثير من التفسيرات. فرؤيتي الواضحة، وأنا طفل انتابتها سحابة كما ازداد عمري، إنني أشعر أن هذا نوعًا من الخسارة. ورغم ذلك فبالتأكيد أن الاختيار المحيّر للمعجزات لم يُسهِّل عليّ فهمها في أيام يسوع أكثر مما يحدث اليوم. رجل استطاع أن يسير على المياه مرة واحدة، يا لها من معجزة تدل على ضبط النفس. نعم لقد أقام يسوع لعازر من الموت، وجفف دموع من حوله. ولكن ماذا عن كثيرين من الأخوات والزوجات والبنات والأمهات الأخريات اللواتي حَزِنَّ من أجل أحبائهم في ذلك اليوم. من يحيي موتاهن؟

وعندما كنت طفلاً كنت أرى المعجزات على أنها سحر. والآن أراها كعلامات أو آيات لافتة للنظر. فلما سُجن يوحنا المعمدان أرسل إليه يسوع عن طريق تلاميذه تقاريرًا عن معجزات الشفاء والقيامة من الأموات لكي يبرهن له أنه هو المسيح، وبعد فترة وجيزة أعدم يوحنا المعمدان، ولم تُنقذه رسالة المسيح من سجنه، ولا ندري مدى تأثير هذه الرسالة على إيمانه. إلا أن هذه الرسالة تُعَبِّر لنا عن صورة المملكة التي جاء المسيح ليؤسسها. إنها مملكة التحرير حيث يُبصّر الأعمى، ويقفز الأعرج، ويسمع الأصم، ويطهر الأبرص، ويحرر الفقراء. لقد حدث التحرير أثناء

مشي المسيح في طريق الجليل واليهودية. ورأى آخرون هذا التحرير في تكريس التلاميذ للخدمة. ولكن آخرون ومنهم يوحنا المعمدان لم ينالوا هذا التحرير على الأرض.

لماذا إذًا تجرى هذه المعجزات؟ هل تحدث أي نوع من الاختلاف؟ لقد سلمت أن يسوع بعمله القليل من معجزات الشفاء وقيامة الأموات، فإنه فعل القليل لكي يحل مشكلة الألم على هذا الكوكب. إن هذا ليس سبب مجيئه. ورغم هذا فقد كان في قوة المسيح الخلاقة أن يُبطل آثار العالم الساقط أثناء مدة وجوده على الأرض. فكل شفاء جسدي كان يعطي تأكيداً لما كان في جنة عدن عندما لم تكن الأجساد تعاني من العمي أو العرج أو النزف الذي لم يتوقف لمدة ١٢ سنة. فالمعجزات التي أجراها محطمًا أغلال المرض والموت تعطي لمحة عن العالم الذي كان يجب أن يكون، والأمل الذي يُطبع في النفس أنه في يوم ما سوف يصحح الله كل ما هو خاطئ. وباختصار فإن الله غير راض عن هذه الأرض أكثر منا. إن معجزات المسيح تعطي إشارة بسيطة عما يريد الله أن يفعله في هذا العالم.

ويرى البعض أن المعجزات هو تعطيل مؤقت غير قابل للتصديق لقوانين الكون. وكآيات فهي تخدم فقط العمل المضاد. فالموت والفناء والخراب هو إيقاف لقوانين الله. أما المعجزات فهي لمحات أولية للعودة إلى استعادة هذه القوانين. وكما قال جورجين مولتمان: "إن معجزات الشفاء التي قام بها يسوع ليست أعمالا خارقة للطبيعة في عالم طبيعي، بل هي أمور طبيعية في عالم غير طبيعي مجروح ومأسور بالشيطان".



الموت :
الأسبوع الأخير

لماذا حجبت العناية الإلهية وجهها عن المسيح في أحرج اللحظات كما لو أنها استسلمت عن طيب خاطر لقوانين الطبيعة العمياء والبكماء وعديمة الرحمة؟

فيودور دستوفسكي



الموت:
الأسبوع الأخير

كانت الكنيسة التي نشأت فيها تتخطى أحداث الأسبوع المقدس في عجلة لسماع أصوات دفوف القيامة. لم نعقد إطلاقًا خدمة في يوم الجمعة العظيمة، وكنا نحتفل بعشاء الرب فقط مرة كل ربع سنة، في احتفال غير ملائم، كان فيه يتمشى رجال بصواني عليها كئوس صغيرة وقطع صغيرة من الخبز الجاف المملح.

وقد قيل لي أن الكنيسة الكاثوليكية لا تؤمن بالقيامة، وهذا يوضح لي لماذا تلبس الفتيات في الكنيسة الكاثوليكية الصلبان، وعليها صورة لرجل صغير، ويحتفلون بقداس عيد القيامة بشموع مشتعلة في طقوس خاصة تدل على تثبيتهم للموت. أما البروتستانت، فيرتدون أجمل الأزياء، ويرنمون أحلى الترنيمات، ويزينون بيوتهم وكنائسهم.

وعندما بدأت أدرس اللاهوت وتاريخ الكنيسة وجدت أن كنيستي كانت مخطئة من جهة الكاثوليك؛ لأنهم يؤمنون بالقيامة كما نؤمن نحن. وفي الحقيقة فإنهم كتبوا كثير من العقائد التي تُعبر عن هذا الإيمان أحسن تعبير. وتعلمت من الأناجيل، أنه بخلاف كنيستي، أن تسجيل الأحداث

الكتابية يبطئ عندما يبدأ تسجيل أحداث الأسبوع المقدس. وقال واحد من المعلقين المسيحيين الأوائل: "إن الأناجيل هي عرض الأحداث وفقًا لتسلسلها الزمني عن الأسبوع الأخير في حياة يسوع مع مقدمات طويلة جدًا".

عندما قرأت السير الذاتية لبعض الشخصيات الهامة وجدت أن ١٠٪ فقط من صفحاتها مخصص لموضوع الموت، وهذا يشمل سيرة حياة مارتن لوثر كنج، والمهاتما غاندي، اللذين ماتا ميتة عنيفة. وبالرغم من هذا، فإن الأناجيل خصصت ثلثها تقريبًا للأسبوع الأخير في حياة المسيح. ويرى متى ومرقس ولوقا ويوحنا، أن الموت هو السر الرئيسي لحياة المسيح. لقد ذكرت أحداث الميلاد في إنجيلين فقط، وقدمت الأناجيل الأربعة صفحات قليلة لسرد حادثة القيامة. ولكن كل كاتب من كُتَّاب الأناجيل أعطى تقريرًا مفصلاً عن الأحداث التي أدت إلى موت يسوع. لم يحدث شيء مثل هذا من قبل. وقبل التجسد ظهرت قديماً بعض الكائنات السماوية، (الذي صارع يعقوب، والملائكة التي زارت إبراهيم)، وقليلون من البشر هم الذين من الموت. ولكن عندما مات ابن الله على كوكب الأرض، احتجت الطبيعة على هذا العمل، فتزلزلت الأرض، وانشقت الصخور، واسودت السماء.

لقد تحالفت قوى العالم وأكثر النظم الدينية تعقيدًا في ذلك الوقت مع أقوى إمبراطورية سياسية ضد شخص واحد، الإنسان الوحيد الكامل الذي عاش على وجه الأرض. وبالرغم من سخرية البعض منه هجر التلاميذ له، فإن الأناجيل تعطي معنىً قويًا عن أنه هو نفسه تغاضي عن هذه الأخطاء. لقد وجه وجهه بقوة نحو أورشليم، وكان يعلم المصير الذي ينتظره، وكان الصليب هو هدفه.

ذات عام وصلت إلى قراءة الأناجيل بعد أن قرأت العهد القديم، ثم قرأت كتب التاريخ والشعر والنبوات، عرفت أن لنا إلهًا قويًا وعظيمًا. لقد قطعت رؤوس، وزالت إمبراطوريات، واختفت أمم من على وجه الأرض. وفي

كل سنة يتذكر اليهود خلاص الله العظيم لهم وتحريرهم من مصر، وكم هو مملوء بالمعجزات. وشعرت بعدما قرأت سفر الخروج حتى المزامير والأنبياء أن الله الذي استجاب لصلواتهم مرة قد يفعل هذا مرة أخرى.

مازالت أصداء ما كُتب في الأناجيل ترن في آذاني، ووصلت إلى وصف البشير متى لمشهد الأسبوع الأخير في حياة يسوع. اجتمع اليهود ليتذكروا الخروج من مصر، ويحتفلوا بالفصح. ومرة أخرى تفجر الأمل، وانتشرت الإشاعة: "قد جاء المسيا"! ولكن مثل سهم اخترق قلب الأمل حدثت الخيانة ليسوع ومحاكمته وموته.

كيف نستطيع نحن الذين عرفنا النهاية مقدمًا أن نصادر النهاية الرهيبة لمشاعر العالم الذي جاء بعد اتباع يسوع؟ لقد أصبحت القصة شيئًا عاديًا عبر القرون. ولا يمكنني أن أستوعب مدى أثر الأسبوع الأخير على الذين اجتازوا فيه. وسوف أسجل فقط الحداث البارزة، وأنا ألقي نظرة عامة على تلك القصة المؤثرة مرة أخرى.

الدخول الانتصاري

تذكر الأناجيل الأربعة هذه الحادثة التي تبدو عند النظرة الأولى أنها تحول من الكراهية الشديدة ليسوع إلى الهتاف والمناداة به ملكًا. لقد فرشت الجماهير الشوارع بملابسها وأغصان الأشجار، ليُظهروا مدى حبهم له. وصاحوا: "مبارك الآتي باسم الرب"، ورغم أن المسيح لا يشجع مثل هذه التظاهرات، ولكنه تركهم يصيحون. وقال للفريسيين الغاضبين: "وإن سكت هؤلاء، فالحجارة سوف تصرخ". هل كان الناس في أورشليم يدافعون عن هذا النبي الذي من الجليل؟ "انظروا فالجميع يتبعونه"، هكذا قال الفريسيون في انزعاج. وفي تلك اللحظة، ومع مئات الآلاف من الحجاج الذين اجتمعوا في أورشليم بدا للعالم أجمع كما لو أن الملك قد وصل بقوة ليعلن حقه في العرش.

والآن؛ أنا أقرأ الأناجيل أرى التيارات الخفية التي ساعدتني لكي أفهم التغيير المفاجئ للجماهير التي ألقت ملابسها تحت أقدام يسوع في أحد السعف، وفي الأسبوع التالي قبضت عليه، وقتلته. وفي الأسبوع الأخير أحاطت به مجموعة من بيت عنيا، والتي مازالت متأثرة بمعجزة إقامة لعازر، وكذلك مجموعة من الحجاج من الجليل الذين يعرفونه جيدًا. ويسجل البشير متى أن مؤيدين آخرين من العميان والعرج والأطفال كانوا من بين الجماهير الدينية التي تكره يسوع، كما جاءت قوات رومانية؛ لكي تسيطر على الجماهير المحتفلة، وتسأل مجلس السنهدرين عن من يمثل تهديدًا للنظام.

وانتابت يسوع مشاعر متضاربة، وهو في هذا الموكب. وسجل البشير لوقا أنه بدأ يبكي عندما اقترب إلى أورشليم، إنه يعلم أن الجمهور يمكن أن ينقلب ضده بسهولة. فالأصوات التي صاحت: "أوصنا" الأسبوع الماضي سوف تصرخ: "أصلبه أصلبه" الأسبوع القادم.

وفي دخول يسوع الانتصاري إلى أورشليم كان الموكب حوله يشتمل على العرج والعمي والأطفال والفلاحين من الجليل. وعندما حاول الضابط الروماني أن يبحث عن مركز اهتمامهم رأى شخصًا بائساً راكباً حماراً. نعم قد كان هناك نوع من الانتصار في أحد السعف، ولكنه انتصار لا يمثل تهديد لروما، ولن يدوم طويلاً لدى الجماهير في أورشليم. تُرى أي نوع من الملوك هذا؟

العشاء الأخير

في كل مرة أقرأ ما كتبه يوحنا أندهش من نغمته الحديثة التي كتب بها. فهو يصور هذا الحديث بالتصوير البطيء إذ يسجل الأحاديث التي دارت بين التلاميذ والمسيح بكل تفاصيلها. وفي الأصحاحات ١٣ – ١٧ نقرأ عن ذكريات صحيحة لأقسى ليلة في حياة المسيح على الأرض. كان هناك الكثير من المفاجآت للتلاميذ في تلك اليلة، وهم يمارسون طقوس الفصح المملوءة بالأمور الرمزية.

وعندما قرأ يسوع بصوت مرتفع قصة الخروج من مصر ربما وضع التلاميذ بوعي كلمة "روما" بدلاً من "مصر". كم كانت ستكون خطة عظيمة لو أن الله طرد الرومان وسط هذا الحشد الهائل من الحجاج في أورشليم. ولكن تصريح يسوع أبعد كل أحلامهم: "وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً"، أنا قد غلبت العالم".

وعندما قرأت ما كتبه يوحنا رجعت إلى حادثة غريبة. قال يوحنا: "وعلم يسوع أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه"، ثم أكمل بهذه الكلمات المتناقضة: "قام عن العشاء، وخلع ثيابه، وأخذ منشفة، وأتزر بها، ثم صب ماء، وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ، ويمسحها بالمنشفة التي كان متزراً بها". يا له من أسلوب غريب قام به الضيف المحتفى به في العشاء الأخير مع أصدقائه. وفي تلك الأيام كانت عملية غسل الأرجل أمرًا مهيناً حتى أن سيد البيت لا يستطيع أن يكلف بها أحد خدامه اليهود. واعترض بطرس على ذلك. ويقول "إم. سكوت بك" عن حادثة غسل الأرجل إنها من أهم الأحداث في حياة المسيح: "حتى هذه اللحظة كان يسوع في القمة، وبدلاً من أن يظل هناك، أو يرتفع أكثر إذ به فجأة ينزل ويغسل أرجل التلاميذ. وبهذا العمل قلب يسوع كل النظام الاجتماعي المتبع. وكان من الصعب على التلاميذ أن يفهموا ذلك بل أنهم ارتعبوا من هذا التصرف".

لقد طلب منا يسوع نحن أتباعه أن نفعل ثلاثة أمور لكي نتذكر:

- أن نعمد الآخرين كما عمد يوحنا.
- وأن نمارس العشاء الرباني.
- وأن نغسل بعضنا أرجل بعض.

ونفذت الكنيسة الأمرين الأولين. ولكن القليل من الطوائف تمارس غسل الأرجل، والباقين يعتبرونه أمرًا بدائيًا وساذجاً وغير متحضر.

وحدثت في ليلة العشاء الأخير مشاجرة بين التلاميذ من منهم يكون الأكبر. إن المسيح لا ينكر ميل الإنسان للطموح والمنافسة، ولكنه قال في ذات الوقت: "الكبير فيكم ليكن كالأصغر والمتقدم كالخادم" حدث هذا عندما أعلن لهم: "وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً"، وبكلمات أخرى مملكة مبنية على الخدمة والتواضع. ففي عملية غسل الأرجل رأى التلاميذ مثلاً حيًّا لما كان يعنيه يسوع.

الخيانة

في تلك الليلة التي اتسمت بالود مع أقرب أصدقائه ألقى يسوع بخبر مذهل وقال: "إن واحدًا منكم سيُسلمني"، فنظر التلاميذ بعضهم إلى بعض، وهم في حيرة، وبدؤوا يتساءلون بعضهم البعض. وأجاب التلاميذ واحدًا بعد الآخر: "لست أنا"! وأظهروا نوعًا مستتراً من الشك، إن الخيانة ليست أمرًا جديدًا. وبعد دقائق قليلة غادر يهوذا المكان بهدوء دون أن يثير أي شكوك. ربما كان له عذره لأنه كان أمينًا للصندوق وذهب لشراء شيء ما أو يقدم إحساناً لأحد.

واسم يهوذا الذي كان متداولاً في ذلك الوقت قد اختفى تمامًا. رفض الآباء تسمية أولادهم بهذا الاسم الذي هو لأكبر خائن عرفه التاريخ. ولكن بعدما قرأت الأناجيل اندهشت. لأن يهوذا اختاره الرب مثل باقي التلاميذ بعد ليلة طويلة في الصلاة من أجل هذا الأمر، وحاز على ثقة الجميع كأمين للصندوق، وحتى العشاء الأخير كان يجلس بجوار يسوع. ولم تكن هناك أي إشارة في الأناجيل أنه كان يعمل في الظلام، لتدبير هذه المؤامرة.

كيف إذا تمكن يهوذا من خيانة ابن الله؟ وأنا أسأل هذا السؤال، فإني أفكر في بقية التلاميذ الذين تركوا يسوع في جسثيماني، وبطرس الذي أقسم: "أنا لا أعرف هذا الرجل". كما أفكر أيضًا في التلاميذ الأحد عشر الذين بعناد رفضوا تصديق قيامة المسيح. ولكن خيانة يهوذا

تختلف في الدرجة وليس في النوعية عن الكثير من الخيانات الأخرى.

شاهدت خمسة عشر فيلمًا أخرجتهم هوليود لتصوير خيانة يهوذا. قال البعض منها: أنه كان جائعاً للمال. وآخرون أظهروه بمظهر الخوف، وقد قرر أن يعقد صفقة مع أعداء المسيح. وفيلم آخر صوره على أنه تحرر من الوهم، وسأل: لماذا طهر يسوع الهيكل المقدس بالسوط، ولم يُكون جيشاً ضد الرومان؟ وربما تضايق يهوذا من رقة ولطف يسوع في تعاملاته مع المقاتلين والمناضلين في شمال فلسطين أو في شمال أيرلندا. لم يكن ليهوذا صبر لثورة بطيئة بغير عنف. أو على عكس ذلك كله هل كان يأمل أن يمارس نوعًا من الضغط على يسوع؟ فإذا كان قد دبر أمر القبض عليه ربما كان هذا سيحفز يسوع؛ ليعلن نفسه، ويثبت مملكته. وفضلت أفلام هوليود أن تصور يهوذا على أنه متمرد معقد يسعى للبطولة بينما الكتاب يقول عنه: "وبعد اللقمة الأخيرة دخله الشيطان"، وعندما اتضح الأمر في النهاية أن نوع مملكة يسوع قادته للصليب وليس إلى العرش، مضى كل منهم في الظلام.

لم يكن يهوذا الأول، ولن يكون الأخير الذي يخون يسوع، ولكنه كان أشهرهم. ركز الكاتب الروائي المسيحي الياباني سوزاكو أندو في الكثير من رواياته على موضوع الخيانة. ومن أشهر كتبه "الصمت" الذي يخبرنا عن المسيحيين اليابانيين الذين أنكروا إيمانهم بسبب الاضطهاد. وقرأ أندو الكثير من القصص المثيرة عن الشهداء المسيحيين، ولكنه لم يقرأ شيئًا عن المسيحيين الخونة. كيف استطاع ذلك؟ فلم يكتب شيء عنهم. إلا أنه ــ بالنسبة لأندو ــ فإن أقوى رسالة للمسيح هي حبه الذي لا يبرد، وخاصة لمن خانوه. فعندما قاد يهوذا الجمع في بستان جسثيماني قال يسوع ليهوذا: "يا صاحب لماذا جئت"، وهجره باقي التلاميذ، ولكنه ظل يحبهم. ونفذ فيه حكم الإعدام، ورغم هذا وهو في قمة

آلامه على الصليب صرخ وقال: "يا أبتاه اغفر لهم..".

أنا لا أعرف تناقضاً حاداً كالذي كانا ليهوذا وبطرس وكلاهما كان على عاتقهما القيادة بين التلاميذ. وكلاهما رأى وسمع أمورًا عجيبة. وكلاهما اجتاز في دائرة الأمل المتردد والخوف والتحرر من الوهم. ولما ازداد الاضطهاد، فإن كليهما أنكر المسيح، وهنا يتوقف التشابه بينهما. فيهوذا غير التائب قبل النتائج المنطقية لعمله وانتحر كأعظم خائن في التاريخ، ومات وهو غير راغب في أن ينال ما قد جاء به المسيح من أجله. ولكن بطرس ـــــرغم شعوره بالخزي ـــــكان منفتحاً على رسالة المسيح للنعمة والغفران، وذهب ليقود نهضة في أورشليم ولم يتوقف حتى وصل إلى روما.

جسثيماني

من غرفة علوية في أورشليم مملوءة برائحة الحملان والأعشاب ورائحة العرق توجه يسوع وتلاميذه الأحد عشر إلى بستان جسثيماني. وفي الطقس الربيعي الجميل نام التلاميذ. لقد ابتدأ يسوع يحزن ويكتئب وقال لتلاميذه: "نفسي حزينة جدًا حتى الموت. امكثوا ههنا واسهروا معي". فتركهم ومضى؛ ليصلي رغم حاجته إلى وجودهم معه في تلك الليلة.

وبدافع طبيعي نحتاج نحن البشر إلى من يكون بجوارنا ونحن في المستشفى، في الليلة التي تسبق إجراء العملية أو في أي أزمة أخرى. ومما قرأته في الأناجيل عن جسثيماني استنتجت الشعور العميق بالوحدة الذي لم يختبره يسوع من قبل. ربما لو حضر بعض النساء في العشاء الأخير ما كان قد ظل يسوع بمفرده في تلك الساعات الأخيرة. إن أم يسوع التي جاءت إلى أورشليم والنسوة اللائي وقفن بجوار الصليب أثناء الصلب ولفوه بالأكفان وأسرعن إلى القبر عند القيامة، كن بالتأكيد سيجلسن معه في البستان

ممسكات برأسه وماسحات دموعه. ولكنَّ أصدقاءه من الرجال فقط هم الذين كانوا معه. ولكنهم ناموا بعد أن تناولوا العشاء والخمر، بينما تحمل يسوع وحده هذه اللحظات المؤلمة بمفرده. وعندما تركه التلاميذ وناموا لم يحاول إحراجهم وقال: "أما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة". وتصف الأناجيل معاناة يسوع بطريقة لا تشبه القصص اليهودية أو المسيحية عن الشهداء. توسل إلى الآب قائلاً: "إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس"، "وإذ كان في جهاد كان يصلي بأكثر لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض". ما تلك المعركة التي خاضها؟ هل هو الخوف من الألم والموت؟ لقد كان يجتاز خبرة جديدة وهي ترك الله له. إن جسثيماني تخبرنا عن قصة صلاة غير مستجابة. فلم يرفع عنه الآب الكأس كما طلب.

لقد نبذ العالم يسوع، وتبرهن على ذلك حملة المشاعل الذين حضروا إلى البستان. وسرعان ما تركه التلاميذ. وأثناء الصلاة شعر بترك الله له. وتخيل جون هوارد ماذا كان سيحدث لو أن الله استجاب لطلب المسيح فكتب ما يلي: "اعبر عني هذه الكأس" قال المسيح هذا وهو يشعر بضعف شديد. فإذا أصّر على إرادته هو وليس إرادة الآب لكان قد استدعي اثنى عشر طغمة أي ٧٢,٠٠٠ من الملائكة لكي يحاربوا حرباً مقدسة نيابة عنه. وفي جسثيماني تجددت تجربة الشيطان، وفي كلتا الحالتين كان بإمكانه أن يحل مشكلة الشر بالقوة، وذلك بطعنة سريعة للمشتكي في البرية، أو بمعركة حامية في البستان. لو حدث ذلك ما كانت هناك كنيسة، ولكان تاريخ البشرية قد توقف. كل هذا كان بإمكان المسيح أن يفعله لو أراد ذلك، ولكنه تخطى ذبيحته الشخصية.

ورغم هذا كما يذكرنا هوارد، فإن الصليب "الكأس" الذي يبدو الآن كشيء مرعب هو السبب الأساسي لمجيء المسيح على الأرض. فهنا على الصليب نرى الرجل الذي

أحب أعداءه، والذي زاد بره عن بر الكتبة والفريسيين، والذي افتقر وهو الغني، والذي أعطى ثوبه لمن طلب الرداء أيضًا، والذي صلى لمن أساء إليه. لم يكن الصليب انعطافاً عن طريق الملكوت، ولم يكن هو الطريق إليه. فالملكوت قد جاء. وبعد عدة ساعات من الصلاة المعذبة وصل المسيح إلى قرار. فقد التقت إرادته مع إرادة الآب. ألم يكن على المسيح أن يعاني كل هذه المعاناة؟ هذا هو ما كرس نفسه له بعد ذلك. أيقظ التلاميذ للقيام، وسار بشجاعة في الظلام نحو الذين كانوا ينوون أن يقتلوه.

المحاكمات

في أقل من ٢٤ ساعة واجه يسوع ما يقرب من ستة استجوابات بعضها أداره اليهود، والبعض الآخر أداره الرومان. وفي النهاية نطق الحاكم الروماني الغاضب بأقسى حكم كان يسمح به القانون الروماني. لم يقف ولا شاهداً واحدًا للدفاع عنه. ولا حتى هو حاول أن يدافع عن نفسه. في كل هذا لم يتفوه الآب بكلمة.

ولم يُبد أحد أي رغبة لقبول المسئولية الكاملة لإعدام المسيح، ومع ذلك كان كل واحد يريد أن يتخلص منه. لقد كتب العلماء آلاف الكلمات ليقرروا بالتحديد ما نصيب الرومان في حكمهم على موت المسيح؟ وما نصيب اليهود في ذلك؟ وفي الحقيقة لقد اشترك كلا الطرفين في ذلك القرار. وبالتركيز على كل الأمور الشاذة التي حدثت في المحاكمات، فإننا نغامر بنسيان النقطة الرئيسية وهي: كان يسوع يمثل تهديدًا حقيقيًا للمؤسسة الدينية والسياسية في أورشليم.

وكقائد ثوري له أتباع كثيرون أثار يسوع من قبل شك هيرودس في الجليل ومجمع السنهدرين في أورشليم. فقد أساؤوا فهم طبيعة مملكته. هذا حقيقي، ولكن قبل القبض عليه بفترة قصيرة استخدم المسيح القوة؛ لكي يطرد الباعة من الهيكل. ولأن مجلس السنهدرين كان يود أن يحفظ السلام بأي ثمن لسادتهم من الرومان، فقد أثار مثل هذا

الحادث حفيظتهم. كما أن يسوع قال مرة: أنه يستطيع أن يهدم الهيكل، ويبنيه في ثلاثة أيام. وجد القادة اليهود صعوبة في الحصول على شهود على تلك الكلمات، ولكن انزعاجهم كان مفهومًا. تخيل رد الفعل اليوم لو حدث أن شخصًا عربياً جرى في شوارع مدينة نيويورك وهو يصيح: "إن مركز التجارة العالمي سوف يُفجَّر، ويمكنني أن أعيد بناءه في ثلاثة أيام".

وبالنسبة للكهنة والمتدينين، كانت هذه التهديدات السياسية ضعيفة أمام ما قاله يسوع في تصريحاته وأحاديثه الدينية. لقد تضايق الفريسيون للغاية أمام جرأة يسوع عندما كان يغفر الخطايا، ويقول: أنه ابن الله. كما أن عدم تقديسه للسبت سبب لهم نوعًا من الفضيحة، إذ جعل ناموس موسى أن كسر يوم السبت خطية كبرى. لقد كان يسوع بمثابة تهديد للناموس والهيكل، وتعاليم الطعام المباح أكله في الشريعة اليهودية، والفروق بين ما طاهر؟ وما نجس؟ وفي النهاية سأل رئيس الكهنة يسوع: "هل أنت المسيا ابن الله؟" فرد عليه يسوع: "أنت تقول"، وواصل يسوع ــ الذي كان في موضع اتهام ــ كلماته عن ابن الإنسان الآتي على سحاب السماء. وكان هذا بالنسبة لليهودي المخلص نوعًا من التجديف. وقال رئيس الكهنة بعد أن مزق ثيابه: "ما حاجتنا بعد إلى شهود".

وكان البديل الوحيد للتجديف، وما يحمله من حكم الموت، إن كلمات يسوع كانت حقيقية، وأنه هو المسيا. كيف يكون هذا؟ وهو مقيد ومحاط بالحراس المسلحين. كان يسوع يبدو في صورة الضعف.

لم يهتم الرومان كثيرًا بالتجديف، إذ أنهم كانوا يُفضلون أن يظلوا بعيدًا عن المعارك الدينية المحلية. وفي الطريق إلى الحكام الرومان تحول الاتهام من التجديف إلى تحريض على الفتنة. وهذا أمر يهدد الحاكم الروماني، ولا تسامح في هذا الأمر. وأما هيرودس الذي قطع رأس يوحنا

المعمدان، والذي كان يشتاق أن يحقق مع يسوع شخصيًا، وقف يسوع صامتًا. بيلاطس فقط هو الذي نجح في أن ينتزع منه اعترافاً، وسأله: "هل أنت ملك اليهود؟"، ومرة أخرى ويدا يسوع مقيدتان خلف ظهره لطمه أحد الجنود على خده، ثم قال له يسوع: "أنت تقول".

رفض يسوع مرات عديدة أن يُعلن عن نفسه. عندما شفى المرضى، وأخرج الشياطين التي قالت عنه: "أنت المسيح ابن الله"، فإنه انتهرهم، وفي أيام شهرته عندما كانت الجماهير تتبعه حول البحيرة، وكان يهرب منهم. وفي هذا اليوم فقط أعلن أمام المؤسسة الدينية والسياسية من هو. وأخبر القوى الدينية أنه: "ابن الله" كما أخبر الحاكم الروماني أنه: "ملك"، ولابد أن الحاكم ضحك بصوت مرتفع.

عندما كان يسوع ضعيفاً ومرفوضاً ووحيدًا عندئذ فقط فكر أن يكشف عن حقيقته ويقبل لقب المسيح. وكما علق كارل بارث بالقول: "لم يعترف بأنه المسيا إلا عندما أتت اللحظة التي شعر فيها بزوال الخطر على تأسيس الديانة الجديدة". ومثل هذه الديانة كانت بالنسبة للكثيرين نوعًا من الإهانة كما قال الرسول بولس: لقد كانت حجر عثرة يُطرح بعيدًا في إهمال، ولكن أصبحت هذه الصخرة بقوة الله حجر الزاوية في المملكة الجديدة.

الجلجثة

يخبرنا بييرفان باش في ذكرياته عن سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية عن أعمال الإذلال التي قام بها الجنود النازيون مع حاخام يهودي عجوز: "جروه عنوة لمركز الشرطة. وفي نفس الغرفة كان جنديان آخران يضربان يهوديًا آخر حتى الموت. ولكن الجنود المسئولين عن الحاخام أرادوا أن يرفهوا عن أنفسهم بعض الشيء، فأمروه أن يخلع ملابسه، ويقف عاريًا، ويعظ الخدمة التي كان قد أعدها ليوم السبت في مجمع اليهود. فطلب منهم أن يلبس القبعة الخاصة بالعبادة، فأذنوا له بذلك. وبدأ خدمته

بصوت مرتجف، وكان موضوعها كيف نسلك بتواضع أمام الله. وطوال الخدمة كان الجنود يستهزئون به، وكان هو يسمع صرخات اليهود الآخرين في نفس الغرفة".

وعندما قرأت وصف الإنجيل للسجن والتعذيب وقتل يسوع، تذكرت ما حدث للحاخام اليهودي العاري، وهو يقف في إذلال في مركز الشرطة. وحتى بعد رؤيتي للكثير من الأفلام عن نفس الموضوع، وقرأته في الأناجيل مرة تلو الأخرى، لم أتمكن من تقدير مدى الاحتقار والعار اللذين احتملهما ابن الله، وهو على الأرض. فقد عروه وجلدوه وبصقوا على وجهه، ووضعوا الشوك في رأسه.

لقد قصد القادة اليهود والرومان أن يسخروا من المسيح. كانوا يضربونه ثم يسألوه: تنبأ من لطمك؟ أنت تقول أنك ملك، ونحن لدينا ملوك هنا. دعنا نركع أمامك. ما هذا؟ ملك بدون تاج؟ لا يصح هذا. سوف نصنع لك تاجًا. ها نحن نثبته على رأسك. ماذا عن ثوب لتغطي به ظهرك الدامي؟ واستمر هذا الهزء بالمسيح طوال اليوم من فناء رئيس الكهنة إلى بيلاطس، ثم هزأ به جنود هيرودس، وصيحات المتفرجين الذين وقفوا في طريق الجلجثة، وأخيرًا إلى الصليب نفسه حيث سمع كلمات الاستهزاء: أنت تدعو نفسك المسيا؟ حسنًا فلتتنزل من على الصليب. كيف ستخلصنا وأنت لم تستطيع أن تخلص نفسك؟

تعجبت كثيرًا، وتساءلت: كيف أن الله صمت عبر التاريخ وسمح لأناس مثل جنكيز خان وهتلر وستالين أن يفعلوا ما أرادوا بالشعوب؟ ولكن هذا لا يمكن أن يُقارن بالصمت الذي أظهره يسوع في يوم الجمعة المظلم في أورشليم. مع كلِ ضربة سوط، ومع كل لكمة على الوجد لابد وأن يسوع تذكَّر التجارب في البرية. وانتظرت فرق الملائكة أي أمر منه. كلمة واحدة ينطق بها، وينهي كل شيء:

قال شيشرون: "إن فكرة الصليب لا يمكن أن يعاقب عليها أي مواطن روماني". فبالنسبة للرومان كان الصلب

هو أقسى عقوبة يعاقب بها القتلة والعبيد والمتمردون ومرتكبو الجرائم الخطيرة الأخرى في مستعمراتهم. وكان المواطنون الرومان يعاقبون بقطع الرأس وليس بالصلب. ومكتوب أيضًا في سفر التثنية: "ملعون كل من علق على خشبة"، لذلك فإنهم فضلوا الرجم بالحجارة عندما يريدون تنفيذ الإعدام.

ووصف الإنجيليون وعلماء الآثار وخبراء الطب التفاصيل المؤلمة للصلب بطريقة كاملة حتى أنني لا أرى داعياً لذكرها هنا. وبالإضافة إلى ذلك، فإن السبع كلمات الأخيرة التي قالها المسيح على الصليب، وإن كانت لها دلالتها، فإن المسيح نفسه كانت لديه أمور كثيرة في ذهنه غير الألم. وكانت أقرب صيحة للشكوى الجسدية هي: "أنا عطشان"، ورفض أن يشرب الخل حتى لا يُخدره. وسخر منه أحدهم قائلاً: لقد حوَّل الماء إلى خمر، وتحدث عن ماء الحياة الذي من يشرب منه لن يعطش إلى الأبد، ها هو يموت بلسان متورم من العطش، وهو يشتم رائحة الخل المر المسكوب على لحيته.

وكعادته دائمًا كان يفكر في الآخرين. لقد غفر لكل من اشترك في صلبه، ودبر أمر رعاية أمه، وقبل اللص في الفردوس. وسجل الكتاب مقتطفات مما قاله في الجلجثة: "يا أبتاه بين يديك أستودع روحي". ويلخص يوحنا كل رسالته على الأرض بالقول: "قد أكمل"، ويكتفي متى ومرقس بأكثر الكلمات غموضاً: "إلهي إلهي لماذا تركتني".

وفي هذه المرة فقط استخدم يسوع كلمة "إلهي" لم يستخدم "يا أبي". كان يقتبس من المزامير، ولكنه في نفس الوقت كان يُعبِّر عن شعور حزين للغاية بالغربة وشعور الابن بترك الله له.

كتب "سي. إس لويس" ما يلي: إن احتجاب الله قد يضغط بنوع من الألم على أولئك القريبين منه، فكم بالحري احتجابه وتركه للمسيح. إن الأمر لا يهم كثيرًا لو أنني تركت وأهنت من فتاة تعمل في سوبر ماركت أو من جار

لي، ولكن لو أن زوجتي التي قضيت معها كل حياتي فجأة قطعت كل اتصال بي، فهذا أمر خطير.

لا يستطيع أي لاهوتي أن يوضح طبيعة ما حدث داخل الثالوث في يوم الصلب على الجلجثة. كل ما لدينا هي صيحة ألم لترك الله له. هل يُسهِّل الأمر علينا لو عرفنا أن يسوع كان يتوقع أن إرساليته على الأرض سوف تنتهي بموته؟ هل كان من الأفضل لإسحاق أن يعرف أن أباه إبراهيم كان يتبع أوامر الله عندما ربطه على المذبح؟ ماذا كان سيحدث لو أن الملاك لم يظهر، وطعن إبراهيم ابنه الوحيد الذي يحبه بالسكين؟ وهنا يقول بولس في رسالته إلى غلاطية: "اللهُ جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا"، نحن نعرف شعور الله تجاه الخطية، كما نعرف أن الشعور بترك الله له يؤلم من الناحيتين.

كتب دوروثي سايرز: "إن يسوع هو الإله الوحيد الذي سُجِّل له تاريخ في تاريخ البشرية" ولا توجد هناك كلمات تثير الدهشة أكثر مما كتب في قانون الإيمان عنه: "إله حق من إله حق"، فهو الإله الذي تألم تحت حكم بيلاطس البنطي. ويردد المسيحيون آلاف المرات يوميًا في كل أنحاء العالم اسم بيلاطس القائد الروماني فقط لأن هذا الاسم حدد في سنوات قليلة تاريخ موت الله الظاهر في الجسد.

ورغم العار والحزن في هذا الأمر كله، فإن صليب الجلجثة أصبح أهم حقيقة في حياة المسيح لمن كتبوا الأناجيل والرسائل وللكنيسة، وطالما أننا نستطيع أن نتأمل في مثل هذه الأمور. لقد أخذت الكنيسة وقتا طويلاً لكي تتأقلم مع خزي وعار الصليب. ومنع آباء الكنيسة تصويرها بالرسم حتى جاء إلى الحكم الإمبراطور الروماني قسطنطين الذي رأى الصليب في رؤيا فمنع عقوبة استخدام الصليب في تنفيذ حكم الإعدام. وأصبح الصليب رمزًا للإيمان في القرن الرابع.

والآن فإن رمز الصليب في كل مكان. يرسمه الفنانون على الذهب بنفس الأسلوب الروماني في الصلب. كما يرسم لاعبو كرة السلة علامة الصليب قبل تسديد الكرة، ويعمل صانعو الحلوى صلباناً من الشيكولاته، لكي يأكلها الناس في الأسبوع المقدس. لقد أصبحت المسيحية ديانة الصليب. قد يعتقد البعض أن من مات ميتة يسوع قد فشل، إلا أن الرسول يقول عن المسيح: "أنه قد جرد الرياسات والسلاطين، أشهرهم جهارًا منتصرًا عليهم بالصليب"، تُرى ماذا يعني بهذه الكلمات؟

أول ما يتبادر إلى ذهني أولئك الذين يجردون البعض من قوتهم: إن مناصرو التمييز العنصري الذين وضعوا مارتن لوثر في الزنزانة، والسوفيت الذين سجنوا سولجنستين، وحكام تشيوسلوفاكيا الذين سجنوا فاتسلاف هافيل، والفلبييون الذين اغتالوا أكينو، وسلطات جنوب أفريقيا التي سجنت مانديلا. كل هؤلاء اعتقدوا أنهم حلوا المشكلة، ولكن على العكس فقد كشف ذلك عنفهم وظلمهم. إن السلطة الأخلاقية يمكن أن يكون لها أثر في نزع السلاح.

عندما مات يسوع تأثر الجندي الروماني القاسي تأثرًا كبيرًا قال: "حقًا كان هذا ابن الله". فقد رأى التناقض الواضح بين زملائه اللصوص وبين ضحيتهم الذي غفر لهم، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. إن صاحب الوجه الشاحب المُسمَّر على الصليب كشف القوى الحاكمة في العالم على أنها آلهة زائفة لم تف بوعودها ولم تحقق العدالة. إن رجال الدين وليس أهل العالم هم الذين صلبوه. لقد كان كل هدفهم هو حماية قوتهم وسلطانهم فقط.

وأظهر اللصان استجابتين مختلفتين: الأول سخر من ضعف يسوع "المسيا الذي لا يستطيع أن يخلص نفسه"، أما الثاني فقد أدرك نوعًا آخر من القوة. وبالإيمان طلب من يسوع قائلاً: "أذكرني يارب متى جئت في ملكوتك". لم يخاطب أحد يسوع ــ فيما عدا الذين سخروا منه ــ على أنه ملك ورب إلا هذا اللص الذي رأى بوضوح أكثر من أي شخص

آخر طبيعة مملكة المسيح. إن اللصين يمثلان الاختيار الذي على الإنسان أن يقرره عن الصليب طوال التاريخ. هل تنظر إلى ضعف المسيح كمثل على ضعف الله، أم كدليل على محبته؟ إن الرومان أدركوا القليل عن أن الجثة المعلقة على الصليب شبيهة بالآلهة. واليهود الذين تربوا على القصص التي تخبرهم بقوة يهوه، رأوا القليل الذي يثير إعجابهم على صليب حسم قضية إنه المسيح، وهو مسيا اليهود. إن الصليب قد حقق لعنة الناموس، ورغم هذا فقد أثبت عبر الزمن أنه غيَّر الصورة الأخلاقية للعالم.

كتب إم. سكوت بيك ما يلي: "لا يمكنني أن أكون أكثر تحديداً في التعبير عن منهج الحب أكثر من أن أستعير كلمات كاهن عجوز قضى سنوات كثيرة في هذه المعركة، وقال: هناك العديد من الطرق للتعامل مع الشر وطرق عديدة أيضًا للقضاء عليه. وكلها مجرد مظهر للحقيقة، حتى أن الطريقة الوحيدة لهزيمة الشر هي أن تدعه يتسرب داخل كائن حي يرغب في ذلك. وعندما يُمتص مثل الدم في الأسفنج أو الحربة في قلب شخص ما، عندئذ يفقد قوته، ولا يعد له أثر". إن القضاء على الشر يمكن أن يتحقق فقط بمحبة الأفراد. وكانت هناك حاجة إلى ذبيحة راغبة في ذلك، أنا لا أعلم كيف يحدث هذا، ولكني أعلم أنه قد حدث فعلاً، ومتى حدث ذلك سيحدث تغير مفاجئ في ميزان القوى في العالم.

إن ميزان القوى تغير تغيرًا قويًا في يوم الجلجثة بسبب يسوع الذي امتص الشر. ولو كان يسوع ضحية بريئة مثل مارتن لوثر كنج أو مانديلا أو هافيل أو سولجنسين لكان قد ترك بصمته في التاريخ، ثم اختفى من المشهد. ولم تظهر له أي عقيدة بعد موته. ولكن الذي غيَّر التاريخ هو يقظة التلاميذ ومعرفتهم أن الله نفسه قد اختار طريق الضعف. فقد أعاد الصليب تعريف الله على أنه الشخص الذي كان

يرغب في التعبير عن قوته بالحب. إن القوة تسبب المعاناة بينما الحب يمتصها، وفوق تلال الجلجثة تخلى الله عن المسيح من أجل الآخرين.



القيامة :

صباح لا يمكن تصديقه

إن القيامة حدث أساسي في المسيحية ومن لا يصدقها هو غير مؤمن.

جون أبرفنج



القيامة:

صباح لا يمكن تصديقه

ذكرت في فصل سابق أن ثلاثة من أصدقائي ماتوا في عام واحد:

أحدهم: وقد كان على المعاش في كامل صحته، سقط ميتاً في مكان وقوف السيارات، وكان قد تناول العشاء مع زوجته.

والثانية: شابة في الأربعين احترقت في سيارتها وهي في طريقها إلى مؤتمر للإرساليات في إحدى الكنائس.

والثالث: صديقي بوب مات، وهو يمارس الغطس في بحيرة ميتشجان. وتحدثت في الثلاث جنازات، وكنت أبذل مجهودًا كبيرًا لكي أفكر فيما كنت سأقوله. ومهما قلت من كلمات فلا يمكنني استرداد أصدقائي مرة أخرى.

وفي اليوم الثالث الذي مات فيه بوب غرقاً كنت أجلس في مقهى في الجامعة في شيكاغو أقرأ كتابًا عنوانه "بحثي عن الجمال" كتبه "روللو ماي". في هذا الكتاب كان الطبيب النفسي الشهير يتذكر بعض المشاهد التي كان يبحث فيها طويلاً عن الجمال، وخاصة في زيارة

لجبل آثوس الموجود في شبه جزيرة متصلة باليونان بها الكثير من الأديرة. وهناك رأى بالصدفة احتفالاً بعيد القيامة في كنيسة أرثوزكسية يونانية. وكان البخور يملأ الهواء، والضوء الوحيد الموجود هو ضوء الشموع، وفي قمة الاحتفال يُعطي الكاهن كل واحد ثلاث بيضات مزينة بطريقة رائعة وملفوفة في ستار، ويقول: "إخرستوس أنستي" أي "الرب قام" ويرد المجتمعون: "بالحقيقة قام". ويكتب "رولو ماي" ما يلي: "لقد استحوذت عليَّ لحظة من الروحانية الحقيقية: إذا كان المسيح قد قام حقًا فماذا يعني هذا للعالم؟" قرأت هذه العبارة قبل عودتي للمنزل وأعرف أن بوب قد مات. وظل هذا السؤال يسيطر على ذهني بعد سماعي لهذه الأخبار السيئة.

ووسط سحابة الحزن على موت بوب بدأت أرى معنىً جديدًا للقيامة. وأنا أتحدث في الجنازة كررت نفس سؤال "رولو ماي" لو قام بوب ثانية ماذا يعني هذا بالنسبة لنا؟ وكنا نجلس في كنيسة صغيرة، ويخيم علينا الحزن الشديد. ماذا يحدث لو ذهبنا في نفس المكان الذي مات فيه بوب، ووجدناه حيًّا. وقد أعطاني هذا التصور لمحة عن شعور التلاميذ في أول القيامة. لقد انتابهم حزن شديد لمدة ثلاثة أيام. وفي يوم الأحد سمعوا خبرًا يرن كما لو كان جرسًا يرن في كل مكان، وبعثت فيهم القيامة الرجاء والإيمان الذي بعثه يسوع في القبر عند إقامة لعازر. وسوف يتكرر هذا على نطاق واسع لبوب ولنا وللعالم، سوف لا يكون موت فيما بعد.

وربط المسيحيون الأوائل كل شيء بالقيامة ولهذا قال الرسول بولس: "إن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل أيضًا إيمانكم".

إن الذين يقللون من شأن قيامة المسيح يصورون التلاميذ بطريقة من اثنتين: إما أنهم ريفيون سُذّج يعتقدون في قصص الأرواح، أو أنهم متآمرين أذكياء تخيلوا أن

مؤامرة القيامة هي الوسيلة لإظهار الدين الجديد واشتهاره. ولكن الكتاب يعطينا صورة أخرى.

أما بالنسبة للنظرية الأولى فتُصور الأناجيل تلاميذ المسيح على أنهم أكثر الناس حذرًا بالنسبة للشائعات التي ترددت عن القيامة. واشتهر توما بشكه، كما أن باقي التلاميذ أظهروا ضعفًا في الإيمان. ولم يصدقوا ما قالته النساء بعد رؤيتهم للقبر الفارغ. وحتى بعد ظهور المسيح بالجسد لهم يقول متى: "شك البعض منهم"، ولذلك لا يمكن أن نسمي مثل هؤلاء بالريفيين السذج.

أما الرأي الثاني الذي يقول: بأن القيامة هي مؤامرة فهو ادعاء باطل، فلو أن التلاميذ بدأوا في إعداد قصة كاذبة؛ للتغطية، فسيفشلون فشلاً ذريعًا. وتذكر الأناجيل أن التلاميذ ظلوا في غرفة مغلقة خائفين من احتمال أن يحدث لهم ما حدث للمسيح. ودفعهم خوفهم هذا ألا يحضروا دفن المسيح حتى أنهم تركوا هذا الأمر لامرأتين ليهتما بالجسد. ويبدو أن التلاميذ عجزوا تمامًا عن تزييف القيامة والمخاطرة بأخذ جسد المسيح، ولم تخطر هذه الفكرة ببالهم على الإطلاق؛ إذ كانوا في حالة من اليأس الشديد.

وطبقًا لما جاء في الأناجيل الأربعة كانت النسوة أول من شهد القيامة، ولكن المحاكم اليهودية لا تقبل شهادة النساء. وأية قصة ملفقة كانت ستضع بطرس أو يوحنا أو حتى نيقوديموس في دائرة الضوء لا يمكن أن تُبنى على ما تقوله النساء. ولأن الأناجيل كُتبت بعد فترة من حادثة القيامة، فإن الذين كتبوها كان لديهم الوقت الكافي لفحص مثل هذه الأكاذيب.

ولو كان الأمر كله مؤامرة لكانوا قد رتبوا قصص الشهود. هل كان هناك ملاك واحد أو اثنان؟ ولماذا لم تعرف مريم المجدلية يسوع، واعتقدت أنه البستاني؟ هل كانت بمفردها أم مع سالومي ومريم الأخرى؟ ويقول البشير متى أما مريم المجدلية ومريم الأخرى "فخرجتا سريعًا من القبر بخوف وفرح عظيم . ."، كما يقول مرقس: "لأن الرعدة والحيرة أخذتاهن".

لم يقم يسوع بحركة درامية لكي يبدد كل الشكوك فكل ما قيل في البداية كان غامضًا ومحيرًا. ولو كانت هذه مؤامرة لكان المتآمرون قد رتَّبوا كل تصريحاتهم وإدعاءاتهم لكي يصوروا الحدث الذي سيدور حوله التاريخ.

وباختصار لم تقدم الأناجيل قيامة المسيح في صورة اعتذارات ومجادلات مرئية لكي يثبتوا كل نقطة رئيسية، ولكن قدمتها على أنها حدث فجائي لم يتوقعه أحد، على الأقل من تلاميذ المسيح. وكانت استجابة الشاهد الأول تشبه استجابة أي منا، وسوف تكون مثل استجابتي أنا لو أنني سمعت جرس الباب، وفتحت، ثم فجأة رأيت أمامي صديقي بوب واقفاً، سوف ينتابني الخوف والفرح. إن الخوف هو رد الفعل الإنساني عند رؤية أي أمر خارق للطبيعة. ولكن الفرح ساد على الخوف لأن الأخبار كانت حقيقية ومفرحة. لقد قام المسيح وعادت أحلام المسيا مرة أخرى، وأسرعت النساء ليخبرن التلاميذ.

وكانت هناك مؤامرة فعلية، ولكن لم يقم بها تلاميذ المسيح، بل قامت بها السلطات التي كان عليها أن تتعامل مع الحقيقة المحيرة للقبر الفارغ. وكان بإمكانهم إيقاف كل هذه الإشاعات عن القيامة بإشارتهم إلى القبر المختوم، ولكن الختم قد تحطم والجسد غير موجود وكانت هناك حاجة إلى مؤامرة رسمية.

وكان الجنود الذين يحرسون قبر يسوع هم شهود العيان الوحيدين لأعظم معجزة في التاريخ. ويقول البشير متى: "أنه عندما حدث الزلزال، وظهر الملاك كالبرق ارتعبوا وصاروا كالأموات". ولكن ها هي حقيقة مذهلة. فبعد ظهر ذلك اليوم كذب الجنود الرومان، ورددوا كلمات الكهنة: "لقد جاء تلاميذه أثناء الليل، وسرقوه، ونحن نيام"، وكان لهذا الادعاء نقاط ضعفه. لقد تحرك حجر كبير عن القبر دون أن يوقظهم؟ كيف يمكنهم معرفة التلاميذ لو كانوا نياماً، ولكن هذا الادعاء أبعد الجنود عن أي متاعب.

ومثل كل شيء آخر في حياة المسيح أحدثت القيامة ردود أفعال متناقضة. فالذين صدَّقوا تغَّيروا وامتلئوا بالرجاء والشجاعة، وذهبوا لكي يُغَّيروا العالم. أما الذين أنكروا، فقد وجدوا طرقًا؛ ليتجاهلوا هذا الدليل القوي. وقد تنبأ المسيح بذلك عند قوله: "إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء، ولا إن قام واحد من الأموات يُصدقون".

وتوضح لنا الأناجيل أنه كان من الصعب على التلاميذ أن يؤمنوا بالقيامة، ولم يقنعهم القبر الفارغ ولا القول: "ليس هو ههنا". وكان إقناع هؤلاء التلاميذ الشكاكين يحتاج إلى مقابلة شخصية مع الذي كان سيدهم لمدة ثلاث سنوات. وقام يسوع بهذا الدور لمدة ستة أسابيع.

واندهش الكاتب "فردريك بوتشير" من أن قيامة المسيح لم تكن ملفتة للنظر. فلم يكن هناك ملائكة في السماء تُرنم، ولا ملوك يحملون له الهدايا من بعيد. ولكن ظهر في ظروف عادية: في عشاء خاص مع تلميذي عمواس، وامرأة تبكي في البستان، وصيادون يصطادون بجوار البحيرة. إنني أرى في ظهور المسيح صفة غريبة كما لو أن المسيح كان يستمتع بحرية الطائر بجسده المقام. فيكتب البشير لوقا عن مقابلة المسيح المفاجئة لتلميذي عمواس وهما في الطريق. لقد علما بما قالته النساء عن القبر الفارغ، وتأكيد بطرس كشاهد عيان لقيامته. ولكن من يستطيع تصديق هذه الإشاعات؟.

وقال أحدهم للمسيح في يأس: "كنا نأمل أنه هو الذي سيفدي إسرائيل"، وبعد فترة وجيزة وأثناء تناول الطعام أخذ المسيح خبزًا، وبارك وكسر وناولهما. فانفتحت أعينهما، وعرفاه، ثم اختفى عنهما. وعندما ذهبا إلى أورشليم وجدا الأحد عشر مجتمعين وراء أبواب مغلقة، فأخبروهما بما حدث لهما في الطريق، وكيف عرفاه عند كسر الخبز، وهذا ما أكده لهم بطرس عن أن المسيح قد قام. وبدون أي إنذار، وحتى لو كان المتشككون يُناقشون هذا الأمر ظهر يسوع في الوسط. وأعلن لهم: "أنا لست روحًا. المسوا آثار الجروح في يديَّ ورجليَّ. إنني أنا هو"، وحتى هذه

اللحظة استمرت الشكوك حتى قال لهم: "أعندكم ها هنا طعام" فناولوه جزءًا من سمك مشوي وأكل قدامهم. إن الأشباح لا تأكل سمكًا.

واستمرت الحياة هكذا لمدة ستة أسابيع تقريبًا. يسوع هنا ثم يختفي. لم تكن الظهورات شبحية، ولكن الجسد والدم هو الذي كان أمامهم. كان يسوع يستطيع دائمًا أن يُثبت وجوده ــ لم يكن هناك شخص آخر به آثار جروح الصلب ــ ورغم هذا فغالبًا ما كان التلاميذ يفشلون في التعرف عليه بطريقة فورية. وبكل الجهد كان يهبط إلى أن يصل إلى مستوى شكهم. فطلب من توما الشكاك أن يضع إصبعه في الجروح، ولبطرس الذي شعر بالإذلال لإنكاره للمسيح ظهر له في مشهد لرد اعتباره أمام ستة من أصدقائه. وتُبين ظهورات المسيح نموذجًا محددًا. فقد زار يسوع مجموعات صغيرة من الناس في مناطق بعيدة خلف أبواب مغلقة. وبالرغم من أن هذه المقابلات الخاصة تثبت إيمان أولئك الذين آمنوا فعلاً بالمسيح، فإن أي إنسان غير مؤمن لم ير المسيح بعد موته.

واندهشت عندما قرأت ما كُتب عن قيامة المسيح: لماذا لم يظهر المسيح مرات أكثر من ذلك لأصدقائه؟ لماذا اقتصر على زيارة تلاميذه؟ لماذا لم يظهر في ديوان بيلاطس أو أمام السنهدرين الذين أدانوه بنور شديد؟ ربما نجد ردًا على كل هذه الأسئلة فيما قاله يسوع لتوما: "لأنك رأيتني يا توما آمنت طوبى للذين آمنوا ولم يروا".

وفي فترة الستة أسابيع ما بين القيامة والصعود كسر يسوع قوانينه عن الإيمان، إذا كان بإمكاننا أن نقول هذا. لقد أثبت نفسه بطريقة غاية في الوضوح حتى لا يوجد عذر لأي تلميذ أن ينكره ــ ولم يفعل أحد ذلك ــ وباختصار لقد استحوذ يسوع على إيمان التلاميذ فكل من رأى قيامة المسيح فقد حرية الاختيار بين الإيمان وعدم الإيمان.

وقال يسوع لتوما: "لأنك رأيتني آمنت"، هؤلاء القلة الذين تمتعوا بامتياز رؤيته يصعب عليهم ألا يؤمنوا. ولكن ماذا عن الآخرين؟ فبعد قليل سينتهي ظهوره الشخصي تاركًا أولئك "الذين لم يروه"، وسوف يكون قيام أو سقوط الكنيسة مبنياً على مدى إمكانية شهود العيان هؤلاء لإقناع كل من لم يروه بمن فيهم نحن اليوم. لقد أمضى يسوع ستة أسابيع، لكي يُثبت فيها شخصيته لكل الأزمنة.

إن نجاح المسيح في تغيير مجموعة من أتباعه غير المؤمنين إلى مبشرين شجعان، حتى أن الأحد عشر رجلاً الذين هجروه عند موته أصبحوا شهداء لإيمانهم بالمسيح المقام. واستطاعوا أن يُطلقوا قوة تغلبت على العنف المضاد في أورشليم أولاً، ثم في روما. ويُعتبر هذا التغيير العظيم في التلاميذ أكبر دليل مقنع على القيامة. أي دليل آخر يمكن أن يبرهن على التغيير الفجائي في رجال عُرفوا بالجبن وعدم الاستقرار؟

وقال الآخرون ــــ وهم على الأقل خمسة عشر من اليهود في مدى مائة سنة بعد المسيح ــــ إن ادعاءات المسيا سوف تتوهج فجأة، ثم تخمد مثل نجم ظهر فجأة ثم اختفى.

ورغم أن الإخلاص المتعنت للمسيح لم ينته بموته، فقد حدث شيء ما فوق كل التوقعات. وبالتأكيد فإن التلاميذ لم يضحوا بحياتهم من أجل نظرية تقول بأن القيامة مؤامرة غير متقنة التخطيط. وكان من الأسهل عليهم أن يكرموا مسيحاً ميتاً كأحد الأنبياء الشهداء الذين يُبجل اليهود مقابرهم.

ويحتاج الإنسان فقط أن يقرأ وصف الأناجيل للتلاميذ، وهم يختبئون خلف أبواب مغلقة، ثم يقرأ الوصف الذي ورد في سفر الأعمال عن نفس التلاميذ، وهم يعلنون المسيح جهراً في الشوارع وفي زنزانات السجن لكي يُفهم ما حدث في صباح أحد القيامة الذي هو بؤرة الإيمان. وكما يقول "س. هـ. دود" "إن القيامة ليست إيمانًا نمى

داخل الكنيسة بل إنها إيمان نمت به الكنيسة وتأسس عليه إيمانها".

قال المسيح لتوما الشكاك، بعدما أسكت شكوكه ببرهان مادي وملموس على معجزة القيامة "طوبى للذين آمنوا ولم يروا". وفيما عدا الخمسمائة أخ الذين ظهر لهم المسيح، فكل مسيحي يعيش وسيحيا حتى مجيء الرب تنطبق عليه كلمة "طوبى له"، وسألت نفسي: "لماذا أؤمن؟" أنا الذي أشبه توما في شكه وبطئه في قبول ما لا يمكن برهنته بما لا يدع مجالاً للشك. إذا: ما الذي جعلني أؤمن بالقيامة؟

السبب في أنني أؤمن؛ هو إنني كنت أريد أن أعرف أن قصة القيامة هي قصة حقيقية. فالإيمان ينمو في تربة الاشتياق والحنين، ولشيء أساسي في الإنسان أنه يرفض بشدة سيطرة الموت. وسواء أخذ الأمل صورة المصريين الفراعنة الذين خبأوا مجوهراتهم وعرباتهم الحربية في الأهرامات، أو تسلط الفكرة على الأمريكيين المحدثين بحفظ الأجساد حية حتى آخر لحظة، ثم يحفظونها بسوائل تحنيط في تابوت مغلق. كل هذا يؤكد أننا نحن البشر نقاوم فكرة الموت.

يمكنك أن تقول أنني أريد أن أصدق القصص الخيالية التي سمعناها من والدينا وأجدادنا ورددناها لأولادنا الذين سيقولونها بدورهم لأولادهم. ولدهشتنا فإن معظم هذه القصص عبر التاريخ تنتهي نهاية سعيدة. ومثلها مثل الحياة، فإن القصص الخيالية تشتمل على الصراع والألم، وتولد فينا الدموع والابتسامات. وهذا ما يحدث مع القيامة أيضًا.

تحدى الجمهور المحيط بالمسيح أثناء الصلب أن ينزل المسيح من على الصليب، ولم يفكر أحد منهم في ماذا سيحدث: أنه سيموت ثم يقوم، ونجح السيناريو. وقد كان هذا الأسلوب مناسباً لطبيعة الله الذي يختار دائمًا الطريقة البطيئة والصعبة، ليحترم حرية الإنسان مهما كلفه ذلك من ثمن. وكتب دورثي ساير ما يلي: "إن الله لم يقض على

حقيقة الشر، ولكنه غيَّرها. ولم يوقف الصلب، ولكنه قام من الأموات"، واحتمل البطل كل النتائج وانتصر.

إنني أؤمن بالقيامة لأنني عرفت الله. وأعلم أن الله محبة، وأننا كبشر نريد أن نبقي من نحبهم أحياء. كم كنت أود ألا يموت أصدقائي. إنهم أحياء في ذاكرتي وفي قلبي حتى وإن كنت لا أراهم. لماذا يسمح الله أن يموت رجل، وهو يمارس الغطس رغم أنه في عز شبابه، ولامرأة أن تموت محترقة في سيارتها، وهي في طريقها لحضور مؤتمر للإرساليات بالكنيسة. أعتقد أن الله غير راض عن كوكب الأرض الفاسدة. إن الحب الإلهي سوف يجد طريقة للخلاص.

وتبادرت فكرة أخرى إلى ذهني: لماذا أبقى المسيح آثار جروح الصلب في جسده؟، أعتقد أن قصة القيامة لن تكون كاملة بدون هذه الجروح في يديه ورجليه وجنبه. إننا كبشر نحلم أن يكون لنا جسد مثالي وكامل، أما بالنسبة ليسوع فقد كانت هذه الجروح رمزًا وشعاراً لحياته على هذه الأرض وهي أمر يُذكر دائمًا بأيام الآلام والمعاناة.

إنني أستمد الرجاء من جروح المسيح التي تمثل أبشع حادثة في تاريخ هذا الكون، رغم أن القيامة حولت الجروح إلى ذكرى. ونتيجة للقيامة ستتحول الدموع التي ذرفت، والضربات التي نتلقاها، والآلام العاطفية، والقلبية على فقدان أصدقائنا وأحبائنا إلى ذكرى مثل جروح المسيح. إن الجروح لن تندمل تمامًا، ولكنها لن تؤلم فيما بعد. سوف يكون لنا أجساد جديدة، وسماء جديدة، وأرض جديدة، وسنبدأ بداية جديدة إنها بداية القيامة.

هناك طريقتان ننظر بهما إلى التاريخ الإنساني: الأولى نركز فيها على الحروب، والعنف، والآلام، والمآسي، والموت. وهنا سوف تصبح القيامة استثناء للقصص الخيالية وتناقضاً مذهلاً في اسم الله. وهذا يعطي نوعًا من العزاء، بالرغم من أنني أعرف أنه عند موت أصدقائي ساد الحزن عليَّ حتى كاد أن يقضي على أي أمل في حياة بعد الموت.

وهناك طريقة أخرى يمكن أن ننظر بها إلى العالم. فلم أخذت القيامة كنقطة بداية، فإن الحقيقة التي لا جدال فيها عن كيف يعامل الله الذين يحبهم، عندئذ سوف يصبح التاريخ الإنساني هو التناقض بعينه وتكون القيامة هي الحقيقة المطلقة. وسوف يجري الأمل والرجاء مثل الحمم تحت قشرة الحياة اليومية.

وهذا ربما يصف التغيير في قدرة التلاميذ على رؤية الأشياء وفقًا لعلاقاتها الصحيحة عندما مكثوا في العلية المغلقة يناقشون أحداث القيامة التي لم يفهموها. فمن وجهة نظرهم فإنه لم يتغير شيء. فمازال الرومان يحتلون فلسطين، والسلطات الدينية شعرت بالانتصار وساد الموت والشر في الخارج. ورغم ذلك فتدريجيًا بدأ إدراك الصدمة يفسح الطريق لتيار متدفق من الفرح.

القسم الثالث

ما الذي تركه؟

١٢

الصعود :

سماء زرقاء صافية

لكن نزول ملك الله
في جسد كان مقصوداً
وكأنه تظاهره ...
يحل الروح على كل جسد، لكل مستحق
يشحن الأرض بولادة تلو ولادة
للأبد انتعاش، وانتعاش

روبرت فروست

١٢

الصعود

سماء زرقاء صافية

أفكر أحيانًا في مدى الاختلاف الذي كان سيكون عليه العالم لو لم يقم المسيح من الأموات. فالتلاميذ ما كانوا يغامرون بحياتهم وينادون بالإيمان الجديد في شوارع أورشليم، ولا أنهم سوف ينسوا المسيح. فقد عاشوا معه ثلاث سنوات من الخدمة. ربما لا يكون هو المسيا بدون القيامة، ولكنه أثّر فيهم بتعاليمه وبالمعجزات التي أجراها. وبعد فترة عندما تندمل الجروح العاطفية، سيبحث التلاميذ عن طريقة لتذكر المسيح. ربما كانوا سيجمعون أقواله، ويكتبونها في أحد الأناجيل. أو ربما سيشتركون مع بعض اليهود الذين يحترمون الأنبياء الشهداء، ويبنون أي أثر ليُذكرهم بحياة المسيح. ولو حدث ذلك كنا نحن الأحياء في العصر الحديث نقوم بزيارة ذلك الأثر لنتعلم من نجار وفيلسوف الناصرة، وكنا سنختار من أقواله ما نريد. وكان العالم سيقدر المسيح بنفس تقديره لكونفشيوس أو سقراط.

كنت سأجد أن قبول مسيح غير مقام هو أمر أكثر سهولة لكي نقبله. إن القيامة تجعل الأمر خطيراً. فهي التي جعلتني أصغي لكل ما قاله، ولتعطني فرصة للاختيار من أقواله. وعلاوة على ذلك فإن القيامة جعلته موجودًا في كل مكان.

وكالتلاميذ لن أعرف أين سيظهر المسيح؟ وكيف سيتحدث إليَّ؟ وما سيطلبه مني؟

إن القيامة تضع حياة المسيح في ضوء جديد. فبدون القيامة كنت سأعتبر صلب وموت المسيح مأساة مات فيها المسيح، وهو صغير السن بعد بضع سنوات من الخدمة. لقد أضاع عمره سريعًا، وأثَّر في مجموعة قليلة من الناس، في جزء صغير من العالم. ولكن عندما أنظر إلى كل هذه الأحداث من خلال عدسات القيامة أرى أن كل هذا كان في خطة يسوع. لقد مكث على الأرض الفترة الكافية؛ لكي يجمع حوله تلاميذه الذين سيحملون الرسالة من بعده للآخرين. وعندما قام المسيح بدد كل الشكوك التي ثارت بين بقية المؤمنين، واستمر معهم أربعين يومًا قبل صعوده للسماء. إن الوقت ما بين القيامة والصعود كان فترة فاصلة ليس إلا.

وإن كان أحد القيامة من أكثر الأيام إثارة بالنسبة للتلاميذ، فالصعود بالنسبة للمسيح كان أكثر إثارة. فهو الخالق الذي نزل من السماء وأعطى الكثير، وهو الآن يعود للسماء مرة أخرى. مثل الجندي العائد عبر المحيط من حرب دموية طويلة، ومثل رائد الفضاء الذي يعود إلى جو الأرض المألوف لديه.

وتكشف صلاة المسيح في العشاء الأخير مع التلاميذ شيئًا من وجهة النظر هذه: "أنا مجدتك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته، والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم". كان المسيح يعد العدة لعودته للسماء في ليلة مظلمة ومملوءة بالخوف؛ لكي يتمتع بالمجد ثانية بعد تركه الأرض وذهابه.

وفي اليوم الذي صعد فيه المسيح وقف التلاميذ في حالة من الذهول كما لو كانوا أطفالاً فقدوا والدهم. وجاء ملاكان لتهدئتهم وسألوهم: "أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟" وكانت السماء زرقاء صافية، وهم مازالوا واقفين ومحملقين في السماء لا يعرفون ماذا يفعلون بعد هذا.

وفي أحيان كثيرة، وأنا أكتب هذا الكتاب كان ينتابني نفس شعور واحد من هؤلاء التلاميذ، أتطلع إلى السماء محاولاً أن أرى يسوع. وعندما أنظر إلى الكنيسة التي تركها أريد أن أحول بصري بعيدًا. ومثل عيون التلاميذ كنت أتوق لنظرة إلى المسيح الذي صعد، وأتساءل ثانية: لماذا كان عليه أن يصعد؟ ولكن عندما أعود للكتاب يتضح لي أن يسوع قد خطط لهذا الرحيل منذ البداية. لم يكن شيئًا يُفرح يسوع أكثر من نجاح التلاميذ، ولا شيء يضايقه أكثر من فشلهم. لقد جاء إلى الأرض بهدف تركها مرة أخرى بعد تكليفه آخرين برسالته. وربما ما قاله الملائكة للتلاميذ هو ما كان يريد يسوع أن يقوله لهم: "ما بالكم واقفين تنظرون للسماء؟".

وفي المرة الأولى التي أرسل فيها المسيح التلاميذ بمفردهم حذرهم من المعارضة التي يلقونها من الناس: "أنا أرسلكم كحملان وسط ذئاب". وعندما قرأت هذه الآية تذكرت ما كتبه سوزاكو إندي في روايته "الصمت": "قسيس برتغالي مُرسل كان مقيدًا وهو يرى الحراس يعذبون يابانيين مسيحيين، ويلقون بهم واحدًا تلو الآخر في الماء. وأقسم الحراس أنهم سيستمرون في قتل المسيحيين حتى يترك القس البرتغالي المرسل إيمانه". ويقول الكاتب: "لقد جاء هذا المرسل إلى اليابان ليُضحي بحياته من أجل الآخرين، وبدلاً من ذلك ها هم اليابانيون يضحون بحياتهم من أجله".

لقد رأى يسوع بعين النبوة النتائج المريعة التي ستترتب على التبشير بمبادئه ليس فقط بالنسبة له بل بالنسبة لتلاميذه في كل العالم: "الأخ يسلم أخاه للموت والأب ابنه ... والجميع سوف يبغضونكم بسببي أنا". حاولت أن أوافق هذه الفكرة مع ما جاء في العشاء الأخير حيث قال المسيح: "لكني أقول لكم أنه خير لكم أن أمضي . ." لقد خطط للرحيل لكي ينفذ رسالته بأجساد الآخرين، أجسادنا نحن، الجسد الجديد للكنيسة. وفي ذلك الوقت لم يفهم التلاميذ قصد المسيح، كيف يكون هذا الأمر لخيرنا؟ "وأكلوا الجسد المكسور

لأجلهم"، وهم لا يدركون هذا التغيير العظيم. إن الرسالة التي عيَّنها الله للابن سوف يُكلف بها الابن تلاميذه: "كما أرسلتني للعالم ها أنا أرسلهم إلى العالم"، كانت هذه صلاة المسيح من أجل تلاميذه.

لقد ترك المسيح آثارًا قليلة عن نفسه على الأرض. لم يكتب كتابًا ولم يترك ممتلكات لتوضع في متحف، لم يتزوج ويستقر ويكون عائلة. وليس له ذكرى مادية فيما عدا الآثار التي تركها في البشرية، وكان هذا ما قد خطط له. لقد ركز الناموس والأنبياء على الشخص الآتي كالشعاع المضيء الذي سينطلق في ألوان الطيف الإنسانية في صورة ألوان وأمواج. وبعد ستة أسابيع فهم التلاميذ عبارة المسيح التي قالها: "لخيركم أنا أمضي". وكما قال القديس أوغسطينوس عن المسيح: "لقد صعدت عن عيوننا والتفتنا ونحن حزانى لكي نجدك في قلوبنا".

هل نتجاوز القول إذا قلنا أنه منذ الصعود حل المسيح بأجساد أخرى لكي يبدأ ثانية الحياة التي عاشها على الأرض؟ إن الكنيسة هي بمثابة امتداد للتجسد وهي الطريقة الرئيسية التي يستخدمها الله لتأسيس حضوره في العالم. فالكنيسة توجد حيث يوجد الله. فما أعطاه المسيح للقليلين —الشفاء والنعمة، ورسالة الأخبار السارة عن محبة الله— تستطيع الكنيسة أن تعطيه الآن للجميع. هذا هو التحدي أو المهمة العظمى التي أعطاها المسيح لتلاميذه قبل صعوده واختفائه عن أعينهم: "ما لم تسقط حبة الحنطة في الأرض وتمت ستبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير".

إنني أضع نفسي مع التلاميذ، وهم يتطلعون في ذهول للمسيح، وهو يصعد مثل طائر بلا جناح، وهو يتحدى قانون الجاذبية. لقد سألوه قبل ذلك بقليل: "هل في مثل هذا الوقت سترد الملك لإسرائيل؟"، والآن ها هو قد مضى. إنني أتعاطف مع ارتباكهم، لأنني أيضًا أشتاق لقوة المسيا لكي يفرض النظام لعالم مليء بالشر والعنف والفقر. ولأنني

عشت ألفي عام بعد التلاميذ، فإنني أنظر للوراء، وأتعجب للأثر القليل الذي أحدثته الكنيسة في مثل هذا العالم. لماذا تركنا المسيح لنحارب هذه المعارك؟ كيف يكون الأمر لخيرنا أنه مضى وتركنا؟

وفي الحقيقة فإنني توصلت إلى أن الصعود يمثل أكبر نضال للإيمان بالنسبة لي. ليس لأنه حدث، ولكن لماذا حدث؟ إنه يتحداني أكثر من مشكلة الألم، وأكثر من مشكلة صعوبة التوفيق بين العلم والإنجيل، وأكثر من الإيمان بالقيامة والمعجزات الأخرى. إن عرض هذه الفكرة تبدو غريبة ــــفلم أقرأ كتابًا أو مقالة تشرح لنا، وتجيب على أسئلتنا الخاصة بالصعود ــــورغم هذا فإن ما حدث منذ صعود يسوع يؤثر بقوة على أساس إيماني. هل كان من الأفضل ألا يحدث الصعود؟ ولو ظل المسيح على الأرض هل كان بإمكانه أن يجيب على أسئلتنا، ويرد على شكوكنا، ويوقف معاركنا الفكرية؟

لقد كان من السهل عليَّ أن أقبل فكرة تجسد الله في المسيح أكثر من تجسده في الناس الذين يحضرون كنيستي المحلية وفيَّ أنا أيضًا. ومع ذلك فإننا مطالبون أن نؤمن بهذا، وأن نعيش هذا. يعلن العهد الجديد أن مستقبل هذا الكون تقرره الكنيسة (انظر رومية ٨: ١٩ - ٢١، أفسس ٣: ١٠) لقد قام المسيح بدوره، وصعد للسماء، وجاء دورنا نحن.

كانت الديانات القديمة مثل الوثنية الرومانية التي كانت في زمن يسوع تؤمن بأن أعمال الآلهة في السماء تؤثر على الأرض. فإذا غضب زيوس، فسيقذف البروق والرعود على الأرض، فمثلما يُلقي الأولاد بالحجارة من على كوبري عال على السيارات أسفل الكوبري، هكذا تُلقي الآلهة بالزلازل على الأرض، ما يحدث في السماء فوق تتأثر به الأرض من تحت. وجاء يسوع، وغيَّر هذه الفكرة: "ما يحدث على الأرض تتأثر به السماء"، ومن يرفضكم يرفضني، ومن يقبلكم يقبلني". يصلي المؤمن،

والسماء تستجيب، والخطاة يتوبون، والملائكة تفرح، والإرسالية تنجح، والشيطان يسقط مثل البرق. وعندما يثور المؤمن يحزن الروح القدس. ما نفعله نحن كبشر هنا يؤثر في الكون كله.

أؤمن بكل هذا، ولكنني أحيانًا أنساه، أنسى أن صلاتي مهمة للغاية بالنسبة لله، أنسى أنني أساعد جيراني في تحديد مصيرهم، أنسى أن اختياراتي اليوم قد تُفرح أو تحزن الله. أنني أعيش في عالم به أشجار وتليفونات وفاكس، وتستحوذ على إيماني كل هذه الماديات، وقد تؤذي عالمي الروحي. إنني أتطلع إلى السماء الزرقاء الصافية، ولا أرى شيئًا. إن المسيح بصعوده غامر بأن الناس سينسوه.

من مدة قليلة عندما كنت أقرأ إنجيل متى لاحظت أن يسوع نفسه تنبأ بنسيانه. وأعطى أربعة أمثلة: صاحب بيت تركه فارغاً. صاحب أرضٍ تركها لخادمه ليكون مسئولاً عنها. عريس وصل متأخراً فنام المدعوون، والسيد الذي وزع وزناته على خدامه، ومضى. كل هذه الأمثلة تُركز على الله الذي سيرحل. وتنبأت هذه القصص بسؤال العصر الحديث: "أين الله الآن؟"، والإجابة الحديثة من نيتشه وفرويد وماركس وبيكيت تقول: إن المالك قد تركنا لنضع قوانيننا الخاصة بنا بكل حرية، وكما قال دستوفيسكي: "إن لم يوجد إله فكل شئ مباح".

ثم قرأت مثل الخراف والجداء: "ومتى جاء ابن الإنسان وجميع الملائكة والقديسين معه، فحينئذ يجلس على كرسي مجده، ويجتمع أمامه جميع الشعوب، فيميز بعضهم من بعض كما يُميز الراعي الخراف من الجداء، ثم يقول الملك للذين عن يمينه: "تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملك المعد لكم منذ تأسيس العالم. لأني جعت فأطعمتموني. عطشت فسقيتموني كنت غريبًا فآويتموني. عريانا فكسوتموني. مريضاً فزرتموني". فيجيبه الأبرار قائلين: "يارب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك. ومتى رأيناك غريبًا فآويناك أو عرياناً فكسوناك". فيجيب الملك ويقول لهم:

"الحق الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد هؤلاء إخوتي الأصاغر في قد فعلتم". ثم يقول للذين عن اليسار: "اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية، فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي والأبرار إلى حياة أبدية". (متى٢٥: ٣١ - ٤٦). أنا أعرف هذا المثل جيدًا، وهو مثل قوي ومُحيِّر مثل كل ما قاله المسيح. ولكنني لم ألاحظ من قبل علاقته المنطقية بالأمثلة الأربعة السابقة. إن مثل الخراف والجداء يرد على السؤال الذي يثيره الآخرون: قضية المالك الغائب، وهو الله:

أولاً: هو يعطي لمحة عن عودة المالك في يوم الدينونة. فالذي صعد سوف يجيء ثانية، ولكن هذه المرة بقوة ومجد، لكي يُسَوي كل الحسابات الأرضية كما قال الملاكان: "أيها الرجال الجليليون لماذا تنظرون هكذا إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء، سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقًا إلى السماء".

ثانيًا: إن هذا المثل يشير إلى الوقت الحاضر الذي يبدو فيه للعالم أن الله غائب. والإجابة الحديثة عميقة ومذهلة. إن الله لم يغب عن العالم مطلقًا، بل هو مختبئ كغريب وفقير وجائع وسجين ومريض: "بما أنكم فعلتم بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر في قد فعلتم"، إذا لم نستطع أن ندرك وجود الله في العالم؛ فذلك لأننا نبحث عنه في أماكن خاطئة.

علق اللاهوتي الأمريكي جوناثان أدواردز على هذه الآيات بقوله: "إن الله قد أظهر بوضوح أن الفقراء هم الذين يتلقون هذه الإحسانات نيابة عنه. ولأننا لا نستطيع أن نعبر عن حبنا بعمل أي شيء لكي تفيد أو تنفع الله بطريقة مباشرة، فإن الله يريدنا أن نفعل شيئًا مفيدًا ونافعًا للفقراء الذين عيَّنهم لتلقي محبة المؤمنين". قالت الأم تريزا لزائر أمريكي غني لم يتمكن من فهم التزامها الشديد بفقراء كلكتا: "نحن نتأمل في المسيح أولاً ثم نذهب بحثًا عنه متخفيًا".

عندما كنت في آخر مثل ذكر في إنجيل متى ٢٥ شعرت أن الكثير من أسئلتي عن الله ترتد إليَّ مرة أخرى. لماذا يسمح الله بأن يولد أطفال في أحياء بروكلين الفقيرة وآخرين بجوار نهر الموت في رواندا؟ لماذا يسمح الله بالسجون وبمأوى المشردين والمستشفيات ومعسكرات اللاجئين؟ لماذا لم يُطهر المسيح العالم من كل هذه الجماعات البائسة في الفترة التي كان فيها على الأرض؟

وبحسب ما جاء في هذا المثل، كان يسوع يعلم أن العالم الذي سيتركه به الفقراء والجياع والمسجونون والمرضى. إن حالة الارتباك التي كان يعيش فيها العالم لم تُدهشه. لقد وضع لها الخطط ليتعامل معها: خطة طويلة الأجل وأخرى قصيرة:

الخطة الأولى الطويلة الأجل: تشتمل على رجوعه بقوة ومجد عظيم لدينونة الأرض.

والخطة الثانية قصيرة الأجل: تعني تسليم الرسالة لأولئك الذين سيُعدون ويشاركون في تحرير هذا الكون. لقد صعد لكي نأخذ نحن مكانه. وكثيرًا ما أتساءل: أين الله عندما نتألم؟ والإجابة على هذا السؤال تكون بسؤال آخر: "أين الكنيسة عندما نتألم؟".

والسؤال الأخير هو مشكلة التاريخ، وهو أيضًا السبب في قولي: إن الصعود يمثل لي أعظم نضال للإيمان. عندما رحل المسيح، فإنه ترك لنا مفاتيح ملكوت السموات في أيدينا التي تتلمس بغير هدف. في كل تساؤلاتي كنت أواجه بنقطة معينة هي: حاجتي لأن أزيل طبقة التراب والأوساخ التي وضعتها الكنيسة ذاتها. وفي نظري أنا، فقد تشوهت صورة المسيح بالعنصرية وعدم التسامح وكنائس المتعصبين في الجنوب. إن الروس وأوروبا الكاثوليكية يواجهون عملية إعادة الوضع لما كان عليه تختلف تمامًا: "ليس التراب فقط بل أيضًا الذهب الكثير الذي كان يغطي الصورة الحقيقية للمسيح"، هكذا كتب جرمان هانزكنج في طريق بحثه. فالكثيرون تخلوا عن الضالة المنشودة التي قادتها الكنيسة ولم يوجهوا هذا الذهب للمسيح.

لقد ظهرت المشكلة مبكرًا، عندما علق فردريك بوتشنر على كنيسة كورنثوس بالقول: "كانوا في الحقيقة جسد المسيح كما كتب لهم الرسول بولس في واحدة من الاستعارات التي ستبقى إلى الأبد—أنهم عيني المسيح وأذنيه ويديه ولكن الطريقة التي كانوا يسيرون عليها تركت عيني المسيح محتقنة بالدماء وأذنيه لا تسمع ويديه لا تستطيع أن تنفذ عمل الله في عالم ساقط". وعندما يبحث العالم عن المسيح، فإنه لا يرى مؤمنين يعكسون صورة المسيح، ولكنه يرى أشباح كونها نور المسيح، أما هم فليسوا نور في أنفسهم.

لماذا لا نشبه كنيسة المسيح كما وصفها؟ لماذا يعطي جسد المسيح صورة باهتة عنه؟ لو كان المسيح مقدمًا عن كوارث مثل الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش التعسفية، وتجارة العبيد التي قام بها المسيحيون، وسياسة التفرقة العنصرية، فلماذا صعد في المقام الأول؟ لا يمكنني أن أجد إجابة شافية لمثل هذه الأسئلة لأنني جزء من المشكلة. فلو فحصت نفسي بالتدقيق لقدمت صورة باهتة عنه؟ أقدم ثلاث ملاحظات تساعدني في أن أتوصل إلى فهم ما حدث منذ صعود يسوع:

أولاً: لقد جاءت الكنيسة بالنور والظلام أيضًا. ففي اسم المسيح قبَّل القديس فرنسيس الشحاذ، وأعطاه ثوبه، وأسست الأم تريزا منزلا للذين على وشك الموت، وحرر ويلبرفورس العبيد، وأسس الجنرال بوث جيش الخلاص، وأطعم دورثي داي الجياع. واستمرت كل هذه الأعمال، وكصحفي التقيت بمعلمين ومرسلين وأطباء وممرضات يخدمون في كل أنحاء العالم بمرتبات زهيدة وشهرة قليلة، ويقومون بكل هذا في اسم المسيح. وبطرق أخرى قدم مايكل أنجلو وباخ ورامبرانت الصور على جدران الكاتدرائيات، وكثيرون مثلهم قدموا أفضل إبداعاتهم لمجد الله فقط إن يدى الله وصلت إلى أبعد مدى من صعود المسيح.

ولا أرى فائدة من ترجيح كفه فشل الكنيسة على نجاحها. فالكلمة النهائية ستأتي في دينونة الله نفسه. وتبين الأصحاحات الأولى في سفر الرؤيا كيف يرى الله الكنيسة، وفي موضع آخر في العهد الجديد يتضح أن الله يُسَرُّ بنا إذ يقول: "أنتم رائحة المسيح الذكية". إنني أقبل هذا بالإيمان، فالله وحده يعلم ما يُسَرُّ به.

ثانيًا: إن المسيح يتحمل المسئولية الكاملة في تكوين أعضاء جسده لقد قال: "أنت لم تختاروني بل أنا الذي اخترتكم". وهؤلاء التلاميذ أنفسهم هم الذين تركوه في وقت الشدة. إنني أفكر في بطرس بتهوره وحبه وتسرعه وعواطفه الهوجاء وخيانته للمسيح. وبطرس هذا أصبح الصخرة التي بنى عليها المسيح الكنيسة، ووعد بأن أبواب الجحيم لن تقوى عليها. ويتجدد الأمل داخلي، وأنا أرى يسوع مع تلاميذه. لم يخذلوه أبدًا فيما عدا الليلة التي أسلم فيها. ورغم هذا يقول يوحنا عن ذلك: "أظهر يسوع لهم كل حبه، وأنه أعطاهم ملكوت السماوات".

وأخيرًا فإن مشكلة الكنيسة لا تختلف عن مشكلة المسيحي الفرد. كيف يمكن لمجموعة غير مقدسة وغير متناسقة من الرجال والنساء أن تصبح جسدًا واحدًا؟ وأجيب بسؤال مختلف: كيف يمكن لخاطئ مثلي أن يصبح ابنا لله؟ معجزة مثل هذه يمكن أن تصنع الأمر الأول. وأذكر نفسي بما قاله بولس عن عروس المسيح وهيكل الله، وقال هذا لمجموعات سيئة للغاية من أهل كورنثوس: "لنا هذا الكنز في أوانٍ خزفية لكي يكون فضل القوة لله لا منا".

أجاب الروائي فلا نري أوكونور على خطاب من قارئ يشكو من حالة الكنيسة قائلاً: "يبدو لي أن عدم رضاك على الكنيسة ينبع من فهم ناقص للخطية"، فأجاب قائلاً: "يبدو أنك تطلب من الكنيسة أن تضع ملكوت السماوات على الأرض الآن. وأن الروح القدس يملأ كل الناس. وأن يعود الإنسان إلى الحالة التي خلقه الله عليها. وأنك تتناسى كبرياء الإنسان الذي قاده إلى الموت. إن المسيح صُلب على الأرض، وها هي الكنيسة تصلبه إن عاجلاً أم

آجلاً. لقد أسست الكنيسة على بطرس الذي أنكر المسيح ثلاث مرات، والذي لم يتمكن من السير على الماء. إن كل البشر يقاومون النعمة لأنها تُغيِّرنا والتغيير مؤلم. ويقاومها الخدام أيضًا. ولكي تكون الكنيسة بالصورة التي تريدها؛ فإن هذا يحتاج إلى تدخل الله المعجزي والمستمر في شئون البشر".

وفي عبارتين جديرتين بأن تُذكرا استخلص أوكونور: إن الاختيار الذي واجه الله، وهو ينظر إلى التاريخ الإنساني أن ينشغل بالتدخل بطريقة مُعجزية في شئون البشر، أو يسمح لنفسه بأن يُصلب في الوقت المعين عندما كان ابنه على الأرض. ولأن الله محبة، فقد اختار الصلب، واحتمل المسيح جراح الكنيسة تمامًا كما احتمل جراح الصليب.

١٣

ملكوت الله :

القمح وسط الزوان

"لم تجذبني الكوميديا الإنسانية بدرجة كافية. أنا لست من هذا العالم تمامًا، أنا من مكان آخر.. إن هذا يستحق البحث عنه خلف الأسوار. ولكن أين؟"
يوجين يونسكو

١٣

ملكوت الله[١]:

القمح وسط الزوان

في كل خريف أحضر مؤتمرًا تعقده الكنيسة يتناول موضوع النبوات. وفيه ينشر رجال كبار السن ذوي السمعة الطيبة لوحاتهم النبوية وملاءات الأسرة المرسوم عليها الوحوش والجيوش، ويضعون كل هذا على المنبر ويفسرون الأيام الأخيرة التي نعيش فيها الآن.

كنت أصغي في خوف وإعجاب، وهم يرسمون خطًا مستقيماً من جنوب موسكو وحتى أورشليم. كما رسموا رسماً تخطيطياً عن تحركات ملايين الجيوش القوية التي سوف تتجمع في إسرائيل. وعلمت أن العشرة أعضاء في السوق الأوربية المشتركة حققوا نبوة دانيال عن الوحش ذي العشرة قرون، وسرعان ما يضع كل منا رقمًا على جبهته، هو علامة الوحش، وسوف يسجل رقم الوحش في جهاز كمبيوتر في مكان ما في بلجيكا. وسوف تندلع حروب نووية، وسوف يتأرجح كوكبنا على حافة الانهيار حتى اللحظة الأخيرة إلى أن يأتي المسيح ثانية؛ ليقود جيوش البر.

هذا السيناريو لم يتحقق تمامًا الآن، إذ أن الاتحاد السوفيتي قد انهار والسوق الأوربية (والتي تُسمى الآن

الاتحاد الأوربي) اتسعت وشملت أكثر من عشرة أعضاء. والذي علق في ذهني ليس تفاصيل النبوات، ولكن تأثيرها العاطفي عليّ. وقد كبرت في السن، وارتعبت وامتلأت بالأمل. ففي المدرسة الثانوية درست اللغة الصينية، ودرس أخي اللغة الروسية حتى نتمكن من الاتصال بجيوش الغزاة من كلا الاتجاهين. أما عمي فقد ذهب إلى أبعد من ذلك حيث هاجر بأسرته إلى استراليا. ورغم هذا، فقد كان لدينا الأمل في وسط هذا الرعب، ورغم شعوري المؤكد بسرعة نهاية العالم إلا أنني استرجعت كل إيماني منذ الطفولة بأن يسوع سوف ينتصر.

عندما قرأت تاريخ الكنيسة فيما بعد، تعلمت أنه في بداية المسيحية وفي نهاية القرن التاسع عشر وفي أعوام ١٨٠٠ وما بعدها، وفي فترة حكم نابليون والحرب العالمية الأولى، وحكم هتلر وموسوليني ظهرت رؤى بنهاية العالم. وحديثًا في عام ١٩٩١ أثناء حرب الخليج أعتبر صدام حسين ضد المسيح. وفي كل مرة يجتاز المسيحيون في دائرة الخوف العاطفية وشعورهم بأنهم غنم بلا راع، فإنهم يعتبرون أن النهاية قد أتت، ولكن النهاية لم تأت بعد.

كما تعلمت أن اليهود اجتازوا باستمرار في نفس المخاوف، ولكن ليس أصعب مما عانوه في القرن الأول الميلادي. وفي ذلك الوقت توقع كثير من اليهود مجيء المسيا؛ ليحررهم من إرهاب روما، وهو أمل أحياه في البداية يسوع الناصري، ثم اختفى هذا الأمل. ولكي نفهم الإرسالية التي تركها يسوع بعد صعوده من الضروري أن أعود مرة أخرى للفترة التي عاشها، لكي أضع نفسي فيها، وأستمع إليه، وهو يتكلم في الموضوع الذي كان يفضله دائما على أي موضع آخر وهو ملكوت السماوات. إن الذي قال عنه ملكوت الله في القرن الأول له صلة وثيقة بي اليوم في القرن الحادي والعشرين.

في أيام المسيح انكبَّ اليهود على ما ورد في نبوات دانيال وحزقيال التي سأتحدث عنها فيما بعد في مؤتمراتنا عن النبوات. لم نوافق على بعض التفاصيل ــــ فشمال

أوروبا كان في ذلك الوقت مملوءًا بالشعوب البربرية وليس السوق المشتركة، كما أن روسيا لم تكن معروفة— ورغم ذلك فإن رؤيتنا عن المسيا كانت متفقة معهم: لقد توقعنا بطلاً منتصرًا. فأي شخص أعلن: "أن ملكوت الله قد جاء عليكم" سوف يوقظ بالتأكيد في عقول المستمعين صورة للقائد السياسي الذي سيأتي ويحتمل المسئولية، ويهزم أقوى إمبراطورية عرفها التاريخ.

في مثل هذه البيئة فهم يسوع جيدًا المعنى القوي لكلمة "مسيا". قال وليم باركلي: "لو نادوا علنا أن يسوع هو المسيا ما استطاع أحد أن يوقف تيار الاغتيالات"، ورغم أن يسوع نفسه لم يستخدم لقب المسيا لكنه قبله عندما دعاه الآخرون بالمسيا. وتوضح الأناجيل أن التلاميذ فهموا تدريجيًا أن معلمهم ما هو إلا الملك الذي طال انتظاره.

وقد شجع المسيح مثل هذا الاعتقاد باستخدام الكلمة التي انتظرها الناس، إذ أعلن في أول رسالة له: "قد اقترب ملكوت السماوات". وفي كل مرة كان يذكرها كانت تعيد الحياة للذكريات: أعلام مضيئة، وجيوش ساطعة، والذهب والعاج الذي كان لسليمان، وإحياء دولة إسرائيل. قال يسوع أن الذي على وشك الحدوث سوف يفوق أي شيء حدث في الماضي: "إن أنبياءً وملوكاً كثيرين أرادوا أن يروا ما أنتم ترون، ولكنهم لم يروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون، ولم يسمعوا"، وفي مناسبة أخرى أعلن ما يثير غضبهم: "والآن ها هو أعظم من سليمان هنا".

وقف الغيورون على حافة جمهور المستمعين حول يسوع، والفدائيون المسلحون المستعدون للحرب ضد روما، ولكن لرعبهم لم تأت الإشارة بالثورة. إن أسلوب يسوع وسلوكه أصاب باليأس كل من بحثوا عن قائد لينقذهم، لقد تعمد أن يهرب من المجموعات الكبيرة. وأهان الأيام المجيدة الموجودة في ذاكرة إسرائيل. وفي المرة الوحيدة التي حاول الجمهور أن يجعلوه ملكًا بالقوة

توارى منهم. وعندما قطع بطرس أذن عبد رئيس الكهنة بسيفه دفاعاً عنه أعادها يسوع وضمد الجراح.

ولدهشة الجماهير اتضح لهم أن يسوع كان يتحدث عن مملكة مختلفة تمامًا عن التي كانت في أذهانهم. لقد أراد اليهود ما أراده الناس دائمًا من المملكة المادية: دجاجة في كل وعاء، وظائف للجميع، جيش قوي لصد الغزاة. وإذ بيسوع يُعلن عن مملكة تُعلِّم إنكار الذات وحمل الصليب ورفض الثروة ومحبة الأعداء، فضاعت كل توقعاتهم. وفي الوقت الذي سُمِّر فيه المسيح على الصليب فقد الناس الأمل، وذهب كل منهم إلى حال سبيله، وسجل العلماء في تقاريرهم أن يهود القرن الأول لم تكن لديهم فكرة عن المسيا الذي سيعاني ويتألم. أما عن التلاميذ الاثنى عشر، فرغم أن يسوع وضَّح لهم ببساطة ووضوح عن موته، فإنهم لم يتخيلوا أن المسيا يموت.

إن كلمة "مملكة أو ملكوت" كانت تعني ليسوع شيء، وتعني للجمهور شيئًا آخر. رفض يسوع لأنه لم يحقق الصورة التي في أذهانهم عن المسيا. هناك سؤال حيرني كثيرًا، بالنظر إلى توقعاتهم لماذا استمر يسوع في إيقاظ أمل أتباعه بكلمة "الملكوت" (ذكرت ٥٣ مرة في إنجيل متى وحده). لقد أصر أن يربط نفسه بكلمة أساء الجميع فهمها. فماذا كان يسوع يقصد بملكوت الله؟

إنها لسخرية عظيمة أن الشخص الذي فشل في تحقيق توقعات شعبه يُصبح معروفًا في التاريخ كملك، حتى أن هذه الكلمة أصبحت اسمه الأخير الذي عُلق فوقه على الصليب. فكلمة المسيح في اليونانية تعني بالعبرية المسيا، والتي تعني الممسوح، وتشير إلى مسح الملوك بالزيت عند تتويجهم. ونحن الآن الذين نُسمي أنفسنا بالمسيحيين نحمل نفس الكلمة التي أزعجت الناس في أيام المسيح. وإني أتساءل: هل نحن فهمنا ملكوت الله بطريقة أفضل؟ لم يقدم المسيح تعريفاً واضحًا للملكوت: وبدلاً من ذلك فقد عبر رؤيته له بطريقة غير مباشرة في سلسلة قصصه:

عن الزراعة، والصيد، والسيدات اللاتي يخبزن الخبز، والتاجر الذي يشتري اللآلئ.

يشبه ملكوت السماوات فلاحًا خرج، ليبذر بذاره. وكما يعرف كل فلاح، فإنه ليست كل البذور التي تُزرع تُعطي ثمرًا، فالبعض يسقط وسط الأحجار، والبعض تأكله الطيور، والبعض تنبت حوله الأعشاب. كل هذا يبدو طبيعياً للمزارع، ولكنه يبدو هرطقة بالنسبة لمن يبني مملكته بطريقة تقليدية. ألا يحكم على الملوك بمدى قوتهم وقدرتهم على فرض إرادتهم على شعوبهم وقدرتهم على هزيمة الأعداء؟ كان يسوع يشير إلى ملكوت الله الذي يمكن مقاومته. إن هذا الملكوت ملكوت متواضع وغير متطفل، ويتعايش مع الشر. إنها رسالة لم ترق لليهود الوطنيين الذين يريدون أن يثوروا. لنتأمل في حبة الخردل، إنها حبة صغيرة جدًا قد تسقط على الأرض، ولا يلاحظها أحد، وبعد فترة تنبت وتصبح شجرة وارفة تغطي كل الأشجار الأخرى في الحديقة، وتأتي الطيور إليها لتبني أعشاشها فيها. إن ملكوت السماوات يعمل بنفس الطريقة، حيث يبدأ صغيرًا حتى أن الناس لا يهتمون بأن يعطوه فرصة للنجاح. ولكنه على عكس كل التوقعات سينمو وينتشر عبر كل أنحاء العالم يظلل المرضى والفقراء والمسجونين والمكروهين.

ويشبه ملكوت السموات رجل الأعمال الذي يتخصص في الجواهر النادرة. وذات يوم وجد لؤلؤة ضخمة لو لبستها أميرة، فسوف يحسدها الجميع. ولأنه يدرك قيمتها حوَّل كل ممتلكاته إلى أموال سائلة؛ لكي يشتريها. ورغم أن هذا سيكلفه كل ما يملك، فإنه لم يندم على ذلك لحظة واحدة. لقد اشتراها بكل فرح، كإنجاز توج كل حياته. فسوف يظل هذا الكنز من بعده، وحتى بعد اختفاء اسم العائلة. إن ملكوت الله يعمل هكذا. التضحية وإنكار الذات وحمل الصليب كل هذا يتحول إلى استثمار ناجح، وسيكون ثمرة فرح لا ينطق به.

هذه هي القصص التي قالها المسيح للناس. وعندما راجعت الأمثال التي قالها عن ملكوت السماوات، أدركت مدى بُعد فهمي عن الصور البسيطة التي كانت في هذه الأمثال، لقد كان في ذهن اليهود مملكة قوية يمكن رؤيتها. وفكرت في قسطنطين، وهو يقود جنوده المسلحين، وعلى دروعهم علامة الصليب، وقال لهم: "بهذه العلامة ننتصر"، كما تذكرت الجيوش التي يتخيلها المسئولين في مؤتمر النبوءات، وشعرت أنني في حاجة أن أصغي ثانية لوصف المسيح لملكوت السماوات.

ونحن الذين في القرن الحادي والعشرين لا نذكر في هذه الفترة ملوكاً كانت لهم ممالك قوية. فنحن أبناء الثورة. فمنذ قرنين ثار المظلومون في كل الولايات المتحدة وفرنسا، وأطاحوا بالحكام. وفيما بعد قاد الماركسيون ثورات في روسيا والصين بأفكار أصبحت فيما بعد نوعًا من العقيدة. وبدأوا النظر إلى التاريخ على أنه نتاج النضال الشعبي أو المادية الجدلية: "يا عمال العالم اتحدوا وحطموا قيودكم"، هكذا صاح كارل ماركس، وهذا ما فعلوه.

حاولت لفترة من الوقت أن أقرأ الأناجيل بعيون اللاهوتي المتحرر. وفي النهاية وصلت للنتيجة، أن ملكوت الله لا يدعو لثورة عنيفة، ولكن يهود القرن الأول كانوا ــــ بدون شك ــــ يشتاقون لمثل هذه الثورة. كانت خطوط المعركة واضحة: اليهود المظلومون يثورون ضد الرومان الأردياء الوثنيين جامعي الضرائب والمتاجرين في العبيد، والذين يسحقون المعارضين. وفي ظل هذه الظروف نادى الغيورون بشعار كالذي نادى به كارل ماركس: "يا أيها اليهود اتحدوا وحطموا القيود"! ولكن رسالة يسوع عن الملكوت لم تكن لها علاقة بسياسة الاستقطاب.

وعندما قرأت الأناجيل بدا لي أن يسوع كان يتحدث برسالة لها جانبان: للظالمين، كان يُحدثهم بكلمات التحذير والدينونة. وكان يعامل قوات الحكومة بمشاعر الغضب واصفًا هيرودس بالثعلب، ووافق على ضريبة

الهيكل؛ حتى لا يعثرهم. أما المظلومون ــ وهم غالبية المستمعين ــ فقدم لهم رسالة السلام والتعزية. وقال للفقراء والمضطهدين: "طوبى لكم". لم يدعهم للثورة، وتحطيم الأغلال. وبكلمات لابد وأنها أثارت الغيورين أمرهم بأن يحبوا أعداءهم. وتحدث عن نوع مختلف من القوة: الحب وليس البغضة.

إن الذين نظروا إلى يسوع على أنه مُخلِّصهم السياسي صُدموا باختياره لتلاميذه، وأصبح معروفًا أنه صديق للعشارين الذين عُرفوا بالمستغلين. وبالرغم من أنه قلل من أهمية النظام الديني في ذلك الوقت فقد عامل نيقوديموس باحترام كما أنه أظهر حبًا وتعاطفًا لقائد مئة روماني.

وباختصار، فإن المسيح كان يحترم كرامة الناس، سواء كان يتفق معهم أو يعارضهم. إنه لن يؤسس مملكته على أساس من العنصرية أو الطبقية أو مثل هذه الفئات. لقد رحب يسوع في مملكته بامرأة كان لها خمسة أزواج، ولص كان يموت بجواره على الصليب، إن الإنسان في حد ذاته هو المهم وليس طبقته التي ينتمي إليها.

إنني أشعر أنني مقتنع بهذه الصفة في المسيح. ما أسهل الارتباط بسياسة الاستقطاب لكي تجد نفسك، وأنت تصيح في أعدائك على الجانب الآخر. وكم يصعب عليَّ أن أتذكر أن ملكوت الله يدعوني لأن أحب امرأة خرجت لتوها من عيادة للإجهاض. وأحب أيضًا الشخص الذي كاد أن يموت من مرض الإيدز، والإقطاعي الذي يستغل الناس. إذا لم أستطيع أن أظهر الحب لمثل هؤلاء الناس عليَّ أن أسأل نفسي ما إذا كنت أفهم إنجيل المسيح أم لا.

إن أي حركة سياسية تخلق بطبيعتها الفوارق والتمييز وتفرض الأحكام. أما يسوع فيزيل الفوارق، ويمنح النعمة. إن السياسة تميل إلى أن تُحيط نفسها بالقوة التي تخمد الحب. ولكني تعلمت من يسوع أنني مهما بلغت من قوة ونشاط لا يجب أن أنسى الحب والتواضع، وإلا فإنني أخون ملكوت السماوات.

لو حاولت أن أجرب رؤية ملكوت الله كتركيب قوي، فإنني في حاجة لأن أقرأ ما كتب عن المحاكمة في أورشليم. مشهد يجمع المملكتين في تعارض صارخ. وفي هذا اليوم الدرامي واجه حكام مملكة هذا العالم يسوع ومملكته وجهًا لوجه. ملكان: هيرودس والمسيح يُمثلان نوعين من القوة. كان لهيرودس فرق من الجنود الرومان ليفرضوا إرادته، ويخبرنا التاريخ أن هيرودس استخدم القوة في حكمه: لقد سرق زوجة أخيه، وسجن معارضيه، وأعدم يوحنا المعمدان. وكان للمسيح قوته أيضًا، ولكنه استخدمها بحنان ورفق؛ لإشباع الجياع وشفاء المرضى. كان لهيرودس تاج من الذهب وقصور وحراس وكل مظاهر المملكة. أما يسوع فإن أقرب صورة لتتويجه أو مسحه مسيا ظهرت عندما سكبت المرأة الطيب على رأسه. وحصل على لقب ملك اليهود كعبارة وكانت تدينه كمجرم. وصُنع تاجه من الشوك، وكان مصدر الألم. ورغم استطاعته أن يستدعي ١٢ ألفًا من الملائكة لحمايته، فلم يفعل ذلك، رفض يسوع استخدام القوة. وكان يعلم أن واحدًا من تلاميذه سيسلمه، واستسلم بدون مقاومة للذين أتوا للقبض عليه. إن ما يدهشني أن الرجاء المسيحي استقر في إنسان رُفضت رسالته وحبه، وأدين كمجرم.

وبالرغم من وضوح مبادئ يسوع، فإن الكثيرين من أتباعه كانوا غير قادرين على مقاومة اختيار طريق هيرودس، ورفضوا طريق يسوع. فالصليبيون الذين غزوا الشرق الأدنى، والفاتحون الذين غزوا العالم بحد السيف الذين غيروا ديانة العالم الجديد بحد السيف، والمستكشفون المسيحيون في أفريقيا الذين تعاونوا في تجارة العبيد، إننا مازلنا نعاني من أخطائهم. إن التاريخ يوضح لنا أن الكنيسة عندما تستخدم وسائل وأدوات مملكة العالم لن يكون لها أي تأثير. وعندما تختلط الكنيسة بالدولة (الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وإمبراطورية كرومويل في إنجلترا، وإمبراطورية كالفن في جنيف)، فإن جاذبية الإيمان ستعاني الكثير أيضًا. إن احترامنا في

العالم يتناقص بالنسبة إلى مدى نشاطنا في محاولة إجبار الآخرين لكي يتبنوا وجهة نظرنا.

خراف وسط ذئاب، وحبة خردل في حديقة، وخميرة في عجين، وملح في الطعام، هذه هي تشبيهات يسوع لملكوت السماوات، وهي تصف نوعًا من القوة السرية التي تعمل من الداخل. إنه لم يقل شيئًا عن كنيسة منتصرة تتقاسم القوة مع السلطات الحاكمة. إن ملكوت الله يعمل بطريقة حسنة كحركة أقلية في معارضة مملكة العالم. وعندما تكبر ستنمو في لطف وهدوء. ولهذا السبب أشعر بالقلق على الاندفاع القوي الحالي بين المسيحيين في الولايات المتحدة، والذين يبدو أنهم يركزون أكثر وأكثر على الوسائل السياسية. في الماضي تجاهل الساسة المسيحيين واحتقروهم. أما الآن فقد كرموهم واحترموهم وتعينة هوية الإنجيليون على وجه الخصوص بوضع سياسي حتى أن وسائل الإعلام تستخدم كلمات مثل "الإنجيليين" و"الحقوق الدينية" بالتبادل. وعندما أسأل أي غريب "من المسيحي الإنجيلي" أحصل على الإجابة التالية: "هو الشخص الذي يؤيد القيم الأسرية، ويعارض حقوق الشواذ والإجهاض".

إن هذا الاتجاه يضايقني لأن إنجيل المسيح لم يهدف أن يكون منبراً سياسياً. والقضايا التي تواجه المسيحيين في مجتمع مدني يجب مواجهتها وتقنينها. وتعطي الديمقراطية المسيحيين كل الحق للتعبير عن أنفسهم. ولكننا لا نجرؤ أن نستثمر الكثير في مملكة هذا العالم حتى لا ننسى عملنا الرئيسي، وهو تعريف الناس بمملكة من نوع آخر مبنية على نعمة المسيح وغفرانه. إن سن القوانين لغرض الأخلاق قد يخدم ضرورة معينة أو إيقاف شر ما، ولكنه لن يحل المشاكل الإنسانية. كل ما يستطيع أن يقوله المؤرخون في فترة قرن من الزمان عن الإنجيليين في عام ١٩٩٠ هو أنهم ساندوا القيم الأسرية. إذا كان الأمر كذلك فقد، فشلنا في حمل رسالة المسيح، وهي توصيل محبة الله لمصالحة الخطاة.

لم يقل يسوع: "سيعرف الجميع أنكم تلاميذي إذا وضعتم القوانين، وقاومتم الفسق والخلاعة، وأعدتم الهدوء للعائلة والحكومة"، ولكن قال: "سيعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعضكم لبعض". قال هذا في الليلة التي سبقت موته، الليلة التي اصطدمت فيها قوة الرومان والسلطات الدينية اليهودية مع قوة الله. وطوال حياته شارك يسوع في نوع من الحرب الثقافية ضد المؤسسة الدينية المتعنتة والإمبراطورية الوثنية. ورغم هذا فقد بذل حياته من أجل الذين قاوموه، وعلى الصليب سامحهم: "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد".

عندما سأل الحاكم الروماني بيلاطس البنطي يسوع: "هل أنت ملك اليهود؟" قال: "مملكتي ليست من هذا العالم"، ولو كانت من هذا العالم لحارب أتباعي لكي يمنعوا اليهود من القبض عليَّ، ولكن مملكتي من مكان آخر. إن الانتماء لهذه المملكة شجع الشهداء المسيحيين الذين واجهوا مقاومة من ممالك العالم. لقد استخدم المؤمنون غير المسلحين هذا النص ضد مضطهديهم الرومان في الكولوسيوم واستخدمها تولستوي ليضعف من سلطة القيصر. واستخدمته المواكب المطالبة بحقوق الإنسان؛ لتتحدى القوانين الظالمة في جنوب الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا. إنها تتحدث عن عهد يتخطى حدود وقوانين الأمم والإمبراطوريات.

وفي مناسبة أخرى سأل الفريسيون يسوع متى سيأتي ملكوت السماوات فأجابهم: "لا يأتي ملكوت الله بمراقبة، ولا سيقول الناس: هوذا ههنا أو هوذا هناك. لأن ها ملكوت الله داخلكم". من هذا يتضح أن ملكوت الله يعمل طبقًا لمجموعة قوانين تختلف تمامًا عن أي مملكة أرضية. فملكوت الله ليس له حدود أرضية جغرافية ولا عاصمة ولا مبنى للبرلمان ولا مظاهر يمكن أن تراها. إن أتباعه يعيشون وسط أعداؤهم، ولا ينفصلون عنهم بحدود أو أسوار. إن ملكوت الله يعيش وينمو في داخل الإنسان. والذين يتبعون المسيح يمتلكون نوعًا من المواطنة المزدوجة. فنحن نعيش في مملكة

أرضية بما فيها من مدن، وفي نفس الوقت ننتمي لملكوت السماوات. ومنع المسيح أي توتر قد ينشأ بين الاثنين بقوله: "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، لأن المسيحيين الأوائل تعرضوا لمجابهات كثيرة مع مملكة قيصر بسبب أمانتهم لملكوت الله.

ويقول المؤلف ويل ديورانت في كتابه "قصة الحضارة" ما يلي: "لن أجد مشهدًا دراميًا في السجل الإنساني أعظم من منظر قلة من المسيحيين المضطهدين من قبل الأباطرة المتتابعين محتملين كل المحاولات بتماسك شديد وهدوء واضح، متبعين النظام بينما أعداؤهم أثاروا الفوضى، وكانوا يحاربون السيف بالكلمة، والوحشية بالأمل، وفي النهاية هزموا أقوى دولة عرفها التاريخ. لقد التقى القيصر بالمسيح في ميدان الصراع، وانتصر المسيح".

وشاهدنا في عصرنا مظاهر صاخبة لصدام بين الممالك. ففي البلاد الشيوعية (ألبانيا والاتحاد السوفيتي والصين) أكرهت الحكومة الكنيسة أن تظل تحت الأرض. وفي موجات الاضطهاد بين عامي ١٩٦٠ – ١٩٧٠ كان المسيحيون الصينيون يدفعون غرامة، وسُجنوا وعُذبوا، ومنعت السلطات المحلية معظم الأنشطة الدينية. ورغم هذا الاضطهاد الحكومي حدثت نهضة روحية ربما هي الأكبر في تاريخ الكنيسة. فقد آمن خمسة ملايين شخص بالمسيح وانضموا إلى ملكوت الله حتى وإن كانت المملكة الأرضية تعذبهم.

وفي الحقيقة تظهر المشاكل عندما تكون الكنيسة في توافق مع الحكومة. قال أحد الأمريكيين بعد رحلة للصين: "هناك كلمة تحذير لنا عن الطبيعة السياسية لكنيسة الصين السرية، أنهم يصلون بحرارة لقادتهم، ولكنهم يحتفظون باستقلالهم عن الدولة". إن لنا امتيازاً أن نعيش في بلد ديمقراطي، ولكن لأنني عملت بالسياسة في أمريكا رأيت بعض المؤمنين يتاجرون بحق ولادتهم كمسيحيين من أجل

الحصول على أمور تافهة. يجب أن نسأل أنفسنا دائمًا: هل هدفنا الأول هو تغيير الحكومة أو أن نرى أناسًا في داخل وخارج الحكومة يأتون للمسيح؟ أو بصيغة أخرى: هل هدفنا الأول هو التغيير الخارجي للمملكة السياسية، أو لدفع ملكوت الله للأمام؟ في الولايات المتحدة اختلط الأمران معًا.

نشأت في كنيسة تشعر بالانتماء لكل من ملكوت السماوات والولايات المتحدة. وهناك أناس يحاولون تطبيق نصوص من العهد القديم، والتي من الواضح أنها تُطبق في إسرائيل. فمثلاً كنت غالبًا ما أسمع هذه الآية المقتبسة كصيغة للانتعاش: "إذا تواضع شعبي الذين دُعي اسمي عليهم وصلوا، وطلبوا وجهي، ورجعوا عن طرقهم الردية؛ فإنني أسمع من السماء، وأغفر خطيتهم، وأبرئ أرضهم". (٢ أخبار٧: ١٤). قد يطبق هذا النص بطريقة عامة، ولكن الوعد المحدد أعطي كجزء من عهد الله وعلاقته بالعبرانيين في القديم، وكانت مناسبته هي تدشين هيكل سليمان مكان سكنى الله على الأرض. هل لدينا أي سبب لندعي أن لله عهداً مشابهاً مع الولايات المتحدة؟

هل لدينا أية إشارة أن الله الآن يحكم الولايات المتحدة أو أي بلد آخر على أنه ميراثه الخاص؟ لقد قال المسيح أمثاله عن الملكوت؛ لكي يصحح الأفكار القومية المحدودة. إن الله لا يعمل مبدئياً من خلال الأمم بل من خلال مملكة تتجاوز وتسمو فوق كل الأمم.

وعندما أفكر في ما قاله يسوع من قصص عن الملكوت، يمكنني أن أفهم أن الكثير من عدم الفهم لدى المسيحيين اليوم ينبع من الخلط بين المملكتين: المرئية وغير المرئية. وفي كل مرة يكون فيها انتخابات يتنافس المسيحيون معًا على أي من المرشحين هو رجل الله للبيت الأبيض. وبالعودة إلى زمن المسيح أجد صعوبة في تصويري ليسوع، وهو يتساءل سواء كان طيباريوس أو أوكتافيوس أو يوليوس قيصر هو رجل الله للإمبراطورية الرومانية. إن سياسة روما لم تكن لها أية صلة بملكوت الله.

واليوم لأن الولايات المتحدة تنمو بازدياد نحو العلمانية، يبدو أن الكنيسة والدولة تسير كل منهما في اتجاه مختلف. وكلما ازداد فهمي لرسالة المسيح عن ملكوت الله، كلما قل انزعاجي على هذا الاتجاه. إن التحدي الحقيقي أمامنا هو تركيز طاقتنا ليس على تنصير الولايات المتحدة ــــ وهي معركة خاسرة دائمًا ــــ بل نحاول أن نكون ملكوت الله في عالم تتزايد عداوته. وكما قال كارل بارت: "إن الكنيسة موجودة لكي تُقيم في العالم علاقة جديدة لا تشابه سلوك العالم، والتي تناقضه بطريقة مملوءة بالوعد".

وبسخرية أقول: لو أن الولايات المتحدة تنزلق حقيقة نحو منزلق أخلاقي، فإن هذا سوف يسمح للكنيسة ــــ كما حدث في روما والصين ــــ لكي تقيم علاقة جديدة مملوؤة بالوعد. إنني أفضل أن أعيش في بلد حيث يتبع معظم الناس الوصايا العشرة، ويتعاملون بطريقة متحضرة معًا، ويحنوا رؤوسهم مرة واحدة في اليوم في صلاة لا حزبية. وأشعر بحنين شديد للمناخ الاجتماعي الذي كان سائدًا في عام ١٩٥٠ الذي نشأت فيه. ولكن إذا لم توجد هذه البيئة، فلن أصاب بالأرق. ولأن أمريكا تنزلق، فسوف أعمل وأصلي من أجل أن يتقدم ملكوت الله. ولأن أبواب الجحيم لن تقوى على الكنيسة، فإن المشهد السياسي المعاصر لن يمثل نوعًا من التهديد.

في مدينة شتوتجارت بألمانيا عقد مارتن بوبر سنة ١٩٣٠ نقاشاً مع عالم من العهد الجديد عن لماذا هو ــــ وهو اليهودي المُعجب بالمسيح ــــ لا يستطيع قبول المسيح؟ فالمسيحيون يعتبرون اليهود معاندين؛ لأنهم مازالوا ينتظروا المسيا. لماذا لا يعترفون بالمسيح كالمسيا؟ "الكنيسة ترتاح لإيمانها أن المسيح قد جاء، وهذا المجيء هو الفداء الذي منحه الله للبشرية. أما نحن الإسرائيليين فلا نستطيع أن نؤمن بهذا. نحن نعرف بأكثر عمق وصدق أن تاريخ العالم لم ينقلب رأسًا على عقب على أسسه التي قام عليها. إن العالم لم يُفتد بعد".

وأخذ تصريح بوير هذا أهمية متزايدة في السنوات التالية، لأنه في عام ١٩٣٣ جاء أدولف هتلر على رأس ألمانيا مبطلاً كل شك عن شخصية العالم غير المفدي. كيف يمكن للمسيا الحقيقي أن يسمح لمثل هذا العالم أن يستمر؟ إن التوضيح الممكن والوحيد موجود في تعاليم المسيح التي تقول: إن ملكوت الله يأتي على مراحل. هو موجود الآن، وأيضًا لم يأت بعد، هو في الحاضر وفي المستقبل أيضًا. وأكد المسيح أحيانًا على أنه في الحاضر عندما قال: ملكوت الله "في داخلكم"، وأحيانًا أخرى قال: إن ملكوت الله في المستقبل، عندما علّم التلاميذ أن يصلوا: "ليأتي ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض"، وكان مارتن بوير على صواب عندما لاحظ أن إرادة الله لم تكن على الأرض كما هي في السماء. وفي بعض الأمور الهامة لم يأت الملكوت بصورة كاملة.

من المحتمل أن يسوع نفسه كان سيوافق بوبر على تقييم لحالة العالم عندما قال: "في العالم سيكون لكم ضيق"، قال هذا للتلاميذ كما حذرهم من الكوارث: "سوف تسمعون عن حروب وأخبار حروب، ولكن لا تضطربوا . . . ليس المنتهى بعد"، إن وجود الشر يضمن أن التاريخ سوف يكون مملوءًا بالمعارك، وسوف يظل العالم غير مَفدٍ.

ولفترة من الزمن يجب أن يوجد ملكوت الله جنبًا إلى جنب مع تمرد نشيط ضد الله. إن ملكوت الله يتقدم ببطء وتواضع كقوة من الغزو السري تعمل داخل مملكة الشيطان.

وقال "سي. إس لويس": "لماذا يأتي الله إلى هذا العالم الذي يحتله العدو متخفيًا، ويبدأ بمجتمع سري لكي يُقوِّض الشيطان؟ لماذا لا يأتي بقوة لكي يغزوه؟ هل لأنه ليس قويًا بالقدر الكافي؟ إن المسيحيين يعتقدون أنه سيأتي بقوة، ولكن نحن لا نعلم متى. ولكن يمكننا أن نخمن: لماذا يتأخر؟ إنه يريد أن يمنحنا الفرصة؛ لكي نأتي إليه بحرية كاملة. الله سوف يغزو، ولكني أتساءل ما إذا كان الناس الذين يسألون الله؛ لكي يتدخل بوضوح وبطريقة مباشرة في عالمنا يدركون كيفية هذا التدخل. عندما يحدث هذا،

فسوف تكون نهاية العالم. عندما يصعد المؤلف على المسرح تنتهي المسرحية".

وجد أقرب التلاميذ إلى يسوع صعوبة في فهم وجهة النظر المزدوجة عن الملكوت. عندما فهموا أخيرًا بعد موته وقيامته أن المسيا قد جاء ليس كملك منتصر ولكن كإنسان مرتدياً التواضع والضعف، وحتى ذلك الوقت سيطر عليهم فكر واحد: "يا رب هل في هذا الوقت سوف ترد الملك لإسرائيل؟"، قد كانوا بلا شك يفكرون في مملكة مرئية لكي تحل محل حكم الرومان. ولكن يسوع تناسى سؤالهم وأمرهم أن يحملوا كلمته إلى أقصى الأرض. حدث هذا عند صعوده واختفائه عن أنظارهم ومجيء الملائكة الذين قالوا لهم: "إن يسوع هذا الذي صعد إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقًا إلى السماء". إن المملكة التي اشتاقوا إليها سوف تأتي حقًا ولكن ليس الآن.

تجنبت لعدة سنوات التفكير جزئيًا في المجيء الثاني، كرد فعل للنبوة التي كانت في الكنيسة أيام طفولتي. إن هذا التعليم يبدو مربكاً من نوع الحديث الذي جذب انتباه الناس الذين يؤمنون بالأطباق الطائرة. ومازال لديَّ تأكيد بسيط عن تفاصيل المجيء الثاني. ولكني الآن أراه ضرورة قصوى لملكوت السماوات إلى الدرجة التي فيها يخشى على الكنيسة أن تفقد إيمانها في عودة المسيح، وتقنع بأن تكون جزءًا من هذا العالم، ولا تتقدم نحو مملكة من عالم آخر، إلى هذه الدرجة نحن نغامر بأن نخسر إيماننا في إله له السلطة العليا.

قد وضع الله سمعته على مستوى عين الرائي. ويشير العهد الجديد لوقت فيه: "ستنحني كل ركبة . . وكل لسان يعترف أن يسوع المسيح هو رب" ولم يحدث هذا حتى الآن. وبعد القيامة بفترات عديدة تحدث الرسول بولس عن أن كل الخليقة تئن وتتوجع معًا. لم يحل مجيء المسيح الأول مشاكل كوكب الأرض. ولكنه قدم رؤيا عن ملكوت الله لكي يساعد على تحطيم فترة الضلال الموجودة على الأرض.

سوف يظهر ملكوت الله في كماله فقط عند مجيء المسيح الثاني. وفي نفس الوقت نحن نعمل مستقبل أفضل دائمًا، وأعيننا على الأناجيل التي تعطينا صورة لهذا المستقبل.

وعندما كان المسيح على الأرض جعل العمي يبصرون والعرج يمشون، وسوف يأتي ثانية؛ ليحكم مملكة لا مرض فيها، ولا عجز. وهو مات على الأرض، وقام، ولكن في مجيئه الثاني لن يكون هناك موت. وهو أخرج شياطين على الأرض، وعند مجيئه سيدمر الشرير. عندما كان على الأرض وُلد كطفل في مذود، وفي مجيئه سيأتي كشخص متوهج كلهيب نار موصوف في سفر الرؤيا. إن المملكة التي أسسها على الأرض لم تكن النهاية، ولكن بداية النهاية.

وسوف ينمو ملكوت الله على الأرض كلما خلقت الكنيسة مجتمعًا بديلاً لتوضيح الصورة التي سيكون عليها العالم. مجتمعًا يرحب بالناس من كل جنس وطبقة اجتماعية، يتميز بالحب، ويهتم بالضعيف، ويقف مع العدالة والبر في عالم تسوده الأنانية والكراهية، مجتمعًا يتنافس فيه أعضاؤه لخدمة بعضهم البعض. وهذا ما كان المسيح يقصده بملكوت الله.

ويعطينا الفرسان الأربعة في سفر الرؤيا فكرة عن كيفية نهاية العالم: حرب، ومجاعة، ومرض، وموت. أما المسيح فيعطينا رؤية مستقبلية عن كيف سيعيد العالم إلى ما كان عليه قبل السقوط، بإبطال أعمال الفرسان الأربعة: بصنع السلام، وإشباع الجياع، وشفاء المرضى، وإقامة الموتى. ستقوي رسالة الملكوت لأننا سنحياها كحقيقة في وسط الناس من حوله. وقصص الأنبياء ونبواتهم عن عالم بغير ألم ولا دموع ولا موت، لن تشير إلى عالم خيالي بل بالحري تشير إلى هذا العالم.

ونحن في الكنيسة هنا سوف يكون عملنا هو إظهار علامات ملكوت السماوات. وسوف يحكم العالم الذي يرانا على امتيازات هذا الملكوت من خلالنا. سوف نعيش فترة تحول من الموت إلى الحياة، من الظلم الإنساني إلى العدل الإلهي، من القديم إلى الجديد، وسيسود حكم الله على العالم، وسنكون نحن من علاماته.

١٤

الاختلاف الذي يحدثه يسوع

"الآلهة الأخرى كانوا أقوياء، لكن أنت (يا يسوع) كنت ضعيفًا. هم يركضون، لكن أنت تلهث نحو العرش؛ لكن لجروحنا فقط جروح الله يُمكنها أنْ تتكلم، وليس للإله جروح لكن أنت وحدك المجروح."

إدوارد شيلتو

١٤

الاختلاف الذي يحدثه يسوع

كتب سكوت بك أنه كان لأول مرة يطلّع على الأناجيل بنوع من الشك في أن يجد أي رواية عن العلاقات العامة كتبها أناس ربطوا معًا نهايات غير مترابطة، وزينوا بها تاريخ حياة يسوع: "لقد صُدمت صدمة شديدة بالحقيقة غير العادية عن الرجل الذي وجدته في الأناجيل. لقد اكتشفت رجلاً كان محبطًا دائمًا. وظهر هذا الإحباط في كل صفحة: "ماذا يجب أن أقول لكم؟ كم مرة ينبغي عليَّ أن أقول هذا؟" كما أنني اكتشفت رجلاً كان حزينًا دائمًا وأحيانًا مكتئبًا وقلقًا وخائفًا. رجلاً منعزلاً، ويحتاج بشدة أن يكون بمفرده. إن مسيح الأناجيل لا يتمتع بسلام في فكره. وكان في مفهومنا نحن الذين في العالم أننا لو اتبعناه؛ فلن نتمتع بذلك السلام".

كيف يمكنني أن أعرف يسوع الحقيقي الذي كتب سكوت بك لمحة عنه. وقمت بمحاولة لأرى يسوع من أسفل لأرى أفضل ما يمكن رؤيته، لكي أشاهد شخصيًا الأحداث غير العادية التي أجراها في الجليل واليهودية. ومثل سكوت بك أشعر أنا أيضًا بصمة من كل ما وجدته.

تحاول أيقونات الكنيسة الأرثوذكسية، والصور المرسومة على زجاج نوافذ الكاتدرائيات في أوروبا، وصور مدارس الأحد في كنائس أمريكا، تقريب صورة

يسوع لنا، ولكن يسوع الذي رأيته في الأناجيل لم يكن أليفًا. فأمانته الهادئة جعلته يبدو كإنسان تعوزه اللباقة. والقليلون حوله شعروا بارتياح لهذا. كان يصعب فهمه والتنبؤ بما سيفعله. وأنهيت بحثي عن المسيح بأسئلة كثيرة. لم أنجح في التعرف عليه بصورة أفضل. والآن ينتابني الشك في كل محاولاتي لتصنيف يسوع ووضعه في قالب معين. فلا أحد على وجه الأرض يُشبه يسوع. والاختلاف هو بين: "شخص يُعتبر مثالاً للحياة وآخر هو الحياة نفسها".

ولكي ألخص ما تعلمته عن يسوع أقدم سلسلة من الانطباعات. إنها لا تشكل صورة متكاملة، ولكنها تُمثل مظاهر حياة المسيح الذي يتحداني وسيظل يتحداني.

صديق الخطاة الذي بلا خطية

عندما جاء المسيح على الأرض عرفته الشياطين، وجاء إليه المرضى، وسكب الخطاة الطيب على قدميه. وفي نفس الوقت فإنه أغضب المتدينين من اليهود عن الفكرة المتزمتة التي كانت عندهم عن الله. ودفعني رفضهم للمسيح للتساؤل هل يمكن للطوائف الدينية أن تفعل عكس ذلك الآن؟ هل نحن نرسم صورة خالدة للمسيح تناسب توقعاتنا الدينية، ولكنها لا تشبه الشخص التي رُسمت بكل حيوية في الأناجيل؟ كان يسوع صديقًا للخطاة. فضَّل العشار على الفريسي الذي ادعى أنه يعرف الله. وأول شخص كشف له عن نفسه بوضوح كالمسيا هي امرأة سامرية كان لها خمسة أزواج، والذي معها ليس زوجها. وفي لحظات الموت الأخيرة غفر للص الذي لم تكن له أية فرصة للنمو الروحي. إن يسوع نفسه كان بلا خطية لقد علَّم قائلاً: "ما لم يزد بركم عن الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات". وقد بحث الفريسيون دون جدوى عن دليل كسر فيه يسوع الناموس. وهاجم يسوع تقاليدهم، ورغم هذا ففي محاكمته كانت الجريمة الوحيدة التي لصقت به أنه ادَّعى أنه هو المسيا.

لقد رأيت بانذهال الخلط الذي لا يتوصل إلى تفاهم بين لطف المسيح نحو الخطاة وكرهه الشديد للخطية، لأنني

أرى في تاريخ الكنيسة الواقعي غير ذلك. نحن ندين الخطية، وننكرها بالكلمات في خدماتنا في حين أننا نحب الخطاة، ولكن هل نُطبق هذا المبدأ جيدًا؟ لقد وجدت الكنيسة المسيحية دائمًا الطرق للتخفيف من كلمات المسيح القوية عن الأخلاق. ولمدة ثلاثة قرون نَفَّذ المسيحيون الوصية حرفيًا: "لا تقاوموا الشر"، ولكن واقعيًا تحول المبدأ إلى حرب مقدسة. وفي مرات عديدة اتعبت بعض المجموعات الصغيرة كلمات المسيح عن التخلص من الثروة والمال. وكثيرون اليوم أدانوا بشدة الشذوذ الجنسي الذي لم يذكر المسيح شيئًا عنه، ولكنهم لم يهتموا بوصيته الواضحة ضد الطلاق. إننا نعيد تعريف الخطية وتُغيِّره بحسب أهوائنا.

وفي نفس الوقت تبذل الكنيسة مجهودًا لمقاومة العالم الخارجي الشرير. حضرت مؤخراً مسرحية بنيت على قصص مجموعة من مرضى الإيدز. وقال المخرج: "إنه قرر أن يُخرج المسرحية بعد سماعه لوزيرٍ محلي في الولاية قال: إنه يحتفل في كل مرة يقرأ نعياً لوفاة شاب أعزب؛ لأنه يؤمن بأن الموت هو دليل على عدم موافقة الله على ما كان يفعله". وأخشى أن ينظر للكنيسة على أنها عدو للخطاة.

وغالبًا ما يشعر الخطاة بأنهم غير محبوبين من الكنيسة التي تواصل تغييرها لمفهوم الخطية عكس المبدأ الذي وضعه المسيح، لقد حدث انحراف ما.

قال سلمان رشدي في كتابه العار: "إن المعركة الحقيقية للتاريخ حدثت ليس بين الأغنياء والفقراء، أو الاشتراكيين والرأسماليين، أو بين البيض والسود، ولكن بين أصحاب مذهب اللذة (الأبيقوريين) والتطهريين (البيوريتان) ويتأرجح بندول المجتمع للأمام والخلف بين أولئك الذين يقولون: "أي شيء مقبول" والذين يعارضون قائلين: "كلا لا يحق أن تفعل هذا". وعندما حاول سلمان رشدي أن يثبت وجهة نظره رصدت إيران مليون دولار لمن يقتله لأنه تجاوز الخط الأحمر.

وأعطى التاريخ أمثلة كثيرة سابقة للتقيد الحرفي للشرائع الدينية، وأمثلة أخرى للانحطاط والتدهور. ولكن كيف يمكن للإنسان أن يتمسك بالمستوى الرفيع للأخلاق، بينما في ذات الوقت يُظهر النعمة لمن لا يستطيعوا ذلك؟ كيف تحتضن الخاطئ دون أن تشجع الخطية؟ يقدم لنا التاريخ المسيحي بعض النماذج التي وضعها المسيح لنا.

بينما كنت أبحث في حياة المسيح قرأت العديد من الأبحاث المطولة عن الثلاثة قرون الأولى للإيمان. بدأت الكنيسة الأولى بداية طيبة إذ وضعت مكافأة كبيرة للطهارة الأخلاقية. وكان على من يريد أن يتعمد أن يجتاز فترة طويلة؛ لتنفيذ تعليمات معينة تفرضها الكنيسة بصرامة. وساعد الاضطهاد الروماني أن ينقي الكنيسة من المسيحيين الفاترين. وأحب الوثنيون أسلوب المسيحيين في الوصول للآخرين والاهتمام بالمظلومين والمرضى والفقراء.

وحدث تغير عظيم في عهد الإمبراطور قسطنطين الذي جعل المسيحية الدين الرسمي للدولة، وتميزت فترة حكمه بأنها اعتبرت أعظم انتصار للإيمان؛ لأنه استخدم أموال الدولة في بناء الكنائس ورعاية المؤتمرات الدينية. ولكن ياللأسف كان لهذا الانتصار ثمن، فقد اختلط الأمر بين المملكتين. فبدأت الكنيسة في تعيين المطارنة وموظفي الكنيسة، وبسرعة كبرت هيئة الأساقفة حتى تضاعف عددها على موظفي الإمبراطورية. وفرض هؤلاء الأساقفة المبادئ الأخلاقية على المجتمع على نطاق واسع ليس على الكنيسة فقط.

ومنذ عهد قسطنطين واجهت الكنيسة إغراء أن تقوم بدور بوليس الآداب للمجتمع. وحاولت الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى، وكالفن في سويسرا، وكرمويل في انجلترا، ونثروب في نيوانجلاند، والكنيسة الأرثوذكسية في روسيا. حاول كل واحد من هؤلاء أن يضعوا التشريع للأخلاق المسيحية ولكن كان من الصعب عليهم أن يوصلوا النعمة للشعب.

وكلما أتطلع إلى حياة المسيح أدرك كم ابتعدنا عن الميزان الإلهي الذي وضعه هو لنا. وعندما أستمع إلى العظات، وأقرأ للكتّاب المعاصرين في الكنيسة الأمريكية، أشعر أننا في عصر قسطنطين وليس في عصر النعمة. إن يسوع الناصري كان بلا خطية، ولكنه كان صديقًا للخطاة وهو نموذج ينبغي أن يبكتنا في كلا الاتجاهين.

الإله والإنسان

يتبادر إلى ذهني أحيانًا أنه كان من الأسهل لو أن الله أعطانا مجموعة أفكار؛ لنتداولها، ونفكر فيها، ونختار ما نريد منها، ونرفض ما لا نريده. ولكنه لم يفعل هذا، ولكنه أعطانا نفسه في صورة إنسان.

"يسوع يخلص" كتب هذا الإعلان على ملصقات عن الخمور، تخيل كم يكون الأمر مضحكًا لو وضع اسم سقراط أو نابليون أو كارل ماركس بدلاً منه. لقد أعطى بوذا تلاميذه تصريحاً أن ينسوه طالما كانوا يحترمون تعاليمه، ويَتّبعوها. وقال أفلاطون شيئًا مماثلاً لسقراط. أما يسوع فقد أشار إلى نفسه، وقال: "أنا هو الطريق".

وعندما نظرت إلى حياة يسوع، وهو على الأرض، لم أركز على أفكار مثل وجوده السابق وطبيعته المزدوجة، والتي تأخذ مساحة كبيرة في كتب اللاهوت. لقد احتاج الأمر من الكنيسة خمسة قرون لكي تتحدث عن ألوهية المسيح وإنسانيته. وتعمدت أن أمكث قريبًا من وجهة النظر المقدمة في الأناجيل الأربعة وليست مذكورة في باقي العهد الجديد، أو التي كتبوا عنها في مجامع نيقية وخالقيدونية.

ورغم ذلك؛ فإن الأناجيل ذاتها فيها نوع من الغموض في موضوع طبيعة المسيح المزدوجة. كيف يحدث أن هذا اليهودي الجليلي الذي له أسرة ووطن يتعبدون له على أنه: "إله حق من إله حق". الأمر بسيط: اقرأ الأناجيل وخاصة يوحنا. لقد قبل يسوع تعبد بطرس وتوبته بعد أن خانه. قال للمقعد وللمرأة الزانية وكثيرين قال لهم بكل

سلطان: "مغفورة لك خطاياك"، وقال لأورشليم: "أرسلت لكم أنبياء وحكماء ومعلمين"، كما لو لم يكن هو واحدًا منهم، ولكنه هو الله محرك التاريخ وصانعه. وعندما تحدوه قال بحسم: "أنا والآب واحد"، "قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن". لم ينس اليهود ذلك، وفي مرات عديدة التقطوا الحجارة؛ ليرجموه على تجديفه.

إن تصريحات يسوع الجريئة عن نفسه تمثل المشكلة الرئيسية في كل التاريخ. وهي النقطة التي تفصل بين المسيحيين والأديان الأخرى. وبالرغم من أن المسلمين واليهود يحترمون المسيح كمعلم ونبي عظيم، فلا يمكن لمسلم أن يتخيل أن محمداً يدَّعي أنه الله، ولا أي يهودي يتخيل أن موسى يدَّعي أنه يهوه. وبالمثل فإن الهندوس يؤمنوا بالتجسد، ولكن ليس في تجسد المسيح، في حين أن البوذيين ليس لهم أي مقولة تدعي أن الله أصبح إنسان.

هل يستطيع تلاميذ المسيح أن يُدخلوا شيئًا على تعاليمه، لكي تشتمل على مثل هذه الادعاءات الوقحة، لكي تكون جزءًا من مؤامرتهم؛ ليبدؤوا دينًا جديدًا؟ من المستحيل أن يحدث هذا، إن التلاميذ كما تصورهم الأناجيل قاوموا فكرة ألوهية المسيح. وعندما كان يسوع معهم في الليلة الأخيرة، وبعد أن سمعوا كل ما قاله، ورأوا كل المعجزات، قال أحدهم: "يا معلم أرنا الآب" حتى الآن لم يستطيعوا فهم أنه هو والآب واحد، ولم يكن المسيح أكثر وضوحاً عندما قال لهم: "من رآني فقد رأى الآب".

إنها حقيقة تاريخية لا تقبل الجدل إن أتباع المسيح الذين كانوا يحكون رؤوسهم لدى سماعهم كلماته في العشاء الأخير. هم أنفسهم بعد أسابيع قليلة من قيامته أعلنوا أنه هو "القدوس البار"، "والرب خالق الحياة"، وفي إنجيل يوحنا "وكان الكلمة الله"، "خالق كل الأشياء بكلمة قدرته"، وعبر يوحنا في رسالته قائلاً: "الذي كان من البدء، الذي سمعناه، ورأيناه بعيوننا، والذي شاهدناه، ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة". ويصف سفر الرؤيا المسيح: "وجهه كالشمس وهي تضئ في قوتها"، ولكن

يوحنا كان يربط دائمًا هذا المسيح الكوني النوراني بالرجل الجليلي (يوحنا نفسه) الذي سمعه ورآه ولمسه بيديه.

لمذا قال تلاميذ المسيح هذه الانطباعات الشخصية؟ إن أتباع محمد وبوذا الذين كانوا على استعداد أن يضحوا بحياتهم من أجل سيدهم، لم يقوموا بمثل هذه الطفرة المنطقية. فلماذا إذًا يطالبنا تلاميذ المسيح—الذين قبلوا أفكاره ببطء—بالإيمان بأمور يصعب تصديقها؟ لماذا يصعبون الأمر، ولا يسهلونه؛ لكي نقبل المسيح؟

إن إتاحة المجال لاختيار النظرية التآمرية، بخصوص يسوع نفسه كمصدر لهذه التعاليم والتصريحات الجريئة يُضخم المشكلة. وعندما أقرأ الأناجيل، وأحيانًا أحاول أن أفحصها كما يفحصها غير المسيحي، عندئذ أشعر بنوع من الانزعاج من كبرياء شخص يقول عن نفسه: "أنا هو الطريق والحق والحياة. لا أحد يأتي إلى الآب إلا بي". يمكنني ان أقرأ بعض الصفحات القليلة، ثم أتعثر في إحدى هذه الآيات التي تبدو غريبة لدرجة أنها تتعارض مع كل تعاليمه الحكيمة وأعماله الطيبة. فإذا لم يكن المسيح هو الله عندئذ، فإنه يكون قد خدعنا وضللنا.

ويقول سي. إس. لويس في هذا الصدد: "إن التناقض الواضح بين العمق والدهاء في تعاليمه الأخلاقية والإفراط في جنون العظمة التي لابد وأنها هي التي كانت وراء كل تعاليمه اللاهوتية ما لم يكن هو الله حقا. إن الإنسان الذي يقول مثل هذه الأشياء التي قالها المسيح لن يكون معلمًا عظيمًا للأخلاق فحسب. فهو إما أن يكون مجنونًا أو شيطاناً. وعليك أن تختار، إما أن هذا الرجل هو ابن الله، وإلا فإنه يكون رجلاً مجنونًا أو أسوأ من ذلك".

أتذكر أنني قرأت الاقتباس الآتي من كتاب "مجرد مسيحية"، وأنا في الكلية، واعتقدت أن هذا نوع من المبالغة. أعرف الكثيرين الذين يحترمون المسيح، ويعتبرونه معلمًا عظيمًا للأخلاق، ولكن لم يؤمنوا به، وحكموا عليه أنه ليس ابن الله وليس مجنونًا. وكانت تلك هي وجهة نظري في ذلك الوقت. وعندما قرأت الأناجيل وافقت على كل

ما قاله سي. إس. لويس، إن يسوع لم يتهاون في إثبات شخصيته. وفهمِ الناس في عصره أنه إما أن يكون ابن الله الذي جاء؛ ليُخلص العالم، أو أنه دجال ومحتال يستحق الصلب.

إنني أرى الآن أن حياة يسوع تواصل سيرها، أو تُهاجم بناء على إدعائه أنه ابن الله. ولا أستطيع أن أثق في غفرانه الذي وعد به ما لم تكن له السلطة التي تُدعم هذا الوعد. ولا يمكنني أن أثق فيما قاله عن الجانب الآخر من الحياة: "أنا ذاهب لأعد لكم مكانًا". ما لم أؤمن بما قاله أنه جاء من عند الآب، وسيعود إلى هناك. ومن المهم للغاية ـــ ما لم يكن هو الله ـــ أن أنظر إلى الصليب على أنه عمل إلهي قاس أكثر منه محبة وتضحية. ويقول الرسول بولس: "إن الله في المسيح صالح العالم لنفسه"، وبطريقة يصعب فهمها اختبر الله الصليب بنفسه. وإلا فإن الجلجثة تُسجَّل في التاريخ على أنها إساءة لإنسان كوني، وليس ما نسميه بالجمعة العظيمة.

صورة الله

يتذكر جورج بتريك القس السابق بجامعة هارفارد عندما كان الطلبة يحضرون إلى مكتبة، ويعلنون: "أنا لا أؤمن بالله"، ويرد عليهم جورج بتريك بكلمات تُعطل فعالية هذا الإعلان: "اجلس وأخبرني أي إله لا تؤمن به. من المحتمل أنني أيضًا لا أؤمن بالله". ثم يبدأ يتحدث إليهم عن يسوع الذي يصحح كل ادعاءاتنا عن الله.

وتميل كتب اللاهوت لتعريف الله بتعريفات خاطئة: "الذي لا يموت، الذي لا نراه، غير المحدود". ولكن ماذا يشبه الله؟ بالنسبة للمسيحي، فإن يسوع أجاب على مثل هذه الأسئلة الهامة. لقد قال الرسول بولس عن يسوع أنه: "صورة الله غير المنظور" لقد كان يسوع هو نسخة طبق الأصل من الله: "لأن الله سُر أن يُعطيه كل الملء". وأقول كلمة واحدة: إن

الله هو شبه المسيح. لقد قدم لنا المسيح الله مجسدًا الذي إما أن نأخذه أو نتركه، نحبه أو نتجاهله. ففي هذا النموذج المجسم يمكننا أن نرى ملامح الله بوضوح أكثر. ويجب أن أعترف أن المسيح قد غيَّر أفكاري غير الطيبة عن الله. وأحيانًا أسأل نفسي: لماذا أنا مسيحي؟ ولكي أكون أمينًا تمامًا، فإن الأسباب تنحصر في أمرين:

١. حاجتي إلى بدائل جيدة.

٢. أن يسوع الذكي والرقيق والمبدع والمتواضع ينطبق عليه هذا بدقة. إنه هو الله الذي أريده.

شجع مارتن لوثر طلبته أن يهربوا من الله الذي لا يروه، ويتجهوا نحو المسيح، وقد علمت الآن لماذا. لو استخدمت نظارة مكبرة لكي أفحص لوحة مرسومة، فإن الجزء الذي يكون في مركز النظارة يظل واضحًا بينما أطراف المنظر تكون مشوهة. وبالنسبة لي أصبح المسيح هو المركز. وعندما أفكر في مثل هذه الأمور المعقدة مثل مشكلة الألم أو العناية الإلهية وحرية الإرادة سيصبح كل شيء محيرًا. ولكن عندما أنظر إلى يسوع نفسه، وكيف عامل الناس المتألمين، ودعوته للتحرير، وعمله الدال على جهد وعناية، عندئذ أستعيد الشفافية والوضوح مرة أخرى. ويمكنني أن أشغل نفسي بحالة من الملل الروحي بأسئلة مثل: لماذا أصلي إذا كان الله يعرف كل شيء مسبقًا؟.

أثناء إعداد كتابي "الكتاب المقدس للطالب" أمضيت سنوات عديدة في دراسة العهد القديم. ومن كثرة الدراسة أصبحت كاليهودي المتعصب. ويؤكد العهد القديم على الفجوة بين الله والإنسان. فالله أعلى منزلة، وكلي القدرة، ومُتعال، وأية محاولة محدودة للاتصال به تضع الإنسان في مخاطرة. فتعاليم العبادة المذكورة في سفر اللاويين تُذكرني بكتيب عن المواد المشعة: "أحضر لخيمة الاجتماع حملاً لا عيب فيه، لا تلمس تابوت العهد، إجعل

الدخان يغطيه بطريقة دائمة، وإذا نظرت إلى تابوت العهد؛ فستموت، لا تدخل إلى قدس الأقداس حيث لا يدخله سوى رئيس الكهنة وفي يوم واحد في العام. وفي هذا اليوم ـــ يوم كيبور ـــ يربط رئيس الكهنة بحبل حول كاحله وبه جرس حتى إذا أخطأ ومات بالداخل يمكنهم إخراج جثته للخارج دون أن يدخلوا".

لقد نشأ تلاميذ المسيح في مثل هذه البيئة، لا ينطقوا باسم الله، ومطيعون لنظام معقد للطهارة، ومستجيبون لكل ما يطلبه ناموس موسى. وكان أمرًا مسلمًا به أن العبادة يجب أن تشتمل على ذبيحة: شيء ما لابد أن يموت. ومنع إلههم أية تقدمة بشرية، وهكذا كانت أورشليم في يوم الاحتفال تمتلئ بصيحات ربع مليون حيوان تقدم على مذبح الهيكل. وكانت الضجة والرائحة المنبعثة من الذبائح تذكرة قوية لهم بالفجوة الكبيرة بينهم وبين الله.

درست العهد القديم لفترة طويلة، ولما انتقلت في يوم ما لسفر الأعمال شعرت بالتناقض الشديد الذي أذهلني. والآن يجتمع الذين يؤمنون بالله في منازلهم الخاصة، فيرنمون، ويتحدثون مع الله على أنه أباهم. لم يعد هناك خوف، ولا طقوس معينة تُتَّبع، لا داعي للذبائح. والموت غير موجود في العبادة فيما عدا فريضة العشاء الرباني؛ ليتذكروا ذبيحة ربنا يسوع.

بهذه الطريقة أدخل يسوع تغييرات عميقة في رؤيتنا لله. فقد أصبح الله قريب منا. ولليهود الذين يعرفون إلهًا بعيدًا عنهم جاء المسيح برسالة تقول بأن الله يهتم بعشب الحقل، ويُطعم عصافير السماء، ويحصي شعور رؤوسنا. ولليهود الذين لا يجرؤون أن ينطقوا باسم الله، جاء يسوع بالكلمة الآرامية أبا ABBA. إنها كلمة مألوفة للآراميين للتعبير عن العواطف الأسرية، فكلمة بابا أول كلمة ينطقها الطفل. ولكن قبل المسيح لم يُفكر أحد على الإطلاق بالنطق بكلمة

(أبانا) ليهوه إله الكون العظيم. وبعد المسيح أصبحت كلمة التخاطب المتداولة حتى في التجمعات اليونانية، وهم في ذلك يقلدون المسيح، فاستعاروا الكلمة الأجنبية؛ ليعبروا عن علاقتهم الوثيقة بالآب.

حادثة حدثت عندما كان يسوع معلقاً على الصليب صادقت على الألفة الجديدة بالكنيسة الوليدة. يقول البشير مرقس: أن يسوع عندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة: "انشق حجاب الهيكل إلى نصفين من أعلى إلى أسفل". كان هذا الحجاب بمثابة حاجز لقدس الأقداس حيث حضور الله. وكما كتب الرسول للعبرانيين: إن شق الحجاب يبين بما لا يدع مجالاً للشك ما حققه موت المسيح. لم يعد هناك حاجة إلى ذبيحة، ولم يعد رئيس الكهنة يرتعش، وهو يدخل قدس الأقداس.

ونحن الذين في العصر الحديث قد عشنا في ظل علاقة وثيقة جديدة مع الله لمدة طويلة حتى ان الأمر أصبح عاديًا بالنسبة لنا. فنرنم لله، ونتحادث معه في الصلاة. وفكرة الذبيحة بالنسبة لنا تبدو شيئًا بدائيًا. إننا ننسى بسهولة كم كلف هذا الأمر المسيح لكي يأتي بنا إلى الأقداس؛ لنستمتع بالحضور الدائم في حضرة الله. نحن نعرف الله على أنه أبونا المحب على أساس عمل المسيح.

المحب:

لو تركت ذاتي لتوصلت لفكرة مختلفة تمامًا عن الله. سيكون إلهي جامدًا غير متغير، ولن أتخيله متحركًا ذهابًا وإيابًا. إلهي هذا يتحكم في كل الأشياء بقوته، ويعصف بمعارضتنا بسرعة وحسم. وكما قال ولد مسلم للطبيب النفسي روبرت كولز: "سوف يقول الله لكل إنسان في العالم، أنه عظيم، بل عظيم جدًا، وسيجعل الله كل واحد يؤمن به، ومن يرفضه سيموت. هذا ما سيحدث لو جاء الله إلى هنا".

إن يسوع يكشف لنا عن إله جاء يبحث عنا، إله منحنا الحرية حتى كلفه هذا حياة ابنه. إله حساس وسريع التأثر.

وفوق كل هذا فإن يسوع كشف لنا عن الله الذي هو محبة.

هل يمكن لأي منا أن يدلك الفكرة عن إله يحب ويشتاق أن نحبه؟ إن أولئك الذين نشؤوا على التقاليد المسيحية قد لا يُقدِّرون رسالة المسيح حق قدرها، ولكن في الحقيقة لم يكن الحب هو الطريقة العادية لوصف ما حدث بين البشر وبين إلههم. وصرح أرسطو: "إنه لأمر شاذ لأي فرد أن يدعي أنه يحب الإله زيوس أو أن زيوس يحب أي إنسان". وفي تناقض مذهل لقول أرسطو يؤكد الكتاب المقدس أن "الله محبة"، ويقرر أن السبب الرئيسي لمجيء المسيح إلى الأرض هو الحب: "بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به" (١ يوحنا ٤: ٩).

وكتب سورين كيركجارد: "إن العصفور على الشجرة، والزهرة في الحديقة، والإيل في الصحراء، والسمكة في البحر، والجماهير التي بلا عدد تغني: "الله محبة". وتعَّبر القصص التي ذكرها المسيح عن محبة الله. في إنجيل لوقا أصحاح ١٥ يحكي قصة المرأة التي بحثت طوال الليل حتى وجدت الدرهم المفقود. والراعي الذي يبحث عن الخروف المفقود حتى يجده. وكان كل مثل ينتهي بمشهد فرح. ثم يصل يسوع أخيرًا إلى قمة التأثير العاطفي عندما يحكي قصة الابن الضال الذي طلب ميراثه من أبيه، وبذره في عيش مسرف في كورة بعيدة.

جلس القس هنري نووين في متحف هيرميتاج في مدينة بطرسبورج في روسيا لعدة ساعات، وهو يتأمل لوحة رامبرانت العظيمة "عودة الابن الضال"، وبينما كان يحملق في اللوحة جاءته فكرة جديدة عن المثل: أن يسوع نفسه أصبح مثل الابن الضال من أجلنا: "ترك بيت الآب، وجاء للأرض، وفعل كل هذا لا كابن متمرد على أبيه، ولكن كالابن المطيع. ولقد أرسل لكي يأتي بكل الأبناء الضالين إلى الله. إن يسوع هو الابن الضال الذي تخلى عن كل شيء منحه إياه الآب حتى أصير أنا مثله، وأعود معه لبيت الآب".

وباختصار شديد فإن الكتاب المقدس يُخبرنا عن قصة إله له الرغبة الشديدة لكي يسترد عائلته. لقد أدهش الله البشرية عندما أعلن عن المصالحة بإرساله ابنه في رحلته الطويلة إلى كوكبنا. وكان المشهد الأخير في الكتاب يشبه مثل الابن الضال، وينتهي بفرح شديد إذ نعود أخرى إلى بيت الآب.

وفي مكان آخر تعلق الأناجيل على المدى الذي ذهب إليه الله لكي يحقق خطة إنقاذ البشر إذ يقول: "في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحببنا الله بل أنه هو أحبنا، وأرسل ابنه كفارة لخطايانا". (١ يوحنا ٤: ١٠) "ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه من أجل أحبائه" (يوحنا ١٥: ١٣)، "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد ..." (يوحنا ٣: ١٦).

أتذكر مرة أنني جلست في أحد المطارات منتظراً بنفاذ صبر رحلة طيران تأخرت خمس ساعات. تصادف أنني جلست بجوار امرأة حكيمة كانت مسافرة لنفس المؤتمر الذي سأذهب إليه. وقادتنا فترة التأخير الطويلة إلى أحاديث محزنة عن ذكريات الطفولة ويأسنا الذي صادفناه في الكنيسة وأسئلتنا عن الإيمان. وكنت في ذلك الوقت أكتب كتابي "اليأس مع الله"، وشعرت أنني مثقل بحمل آلام الناس وأحزانهم وشكوكهم وأسئلتهم التي لم أجد إجابة لها. واستمعت إلى السيدة بكل هدوء لمدة طويلة ثم سألتني سؤالاً ظل معي دائمًا". يا فيليب هل سمحت لله أن يحبك؟ إنني أعتقد أنه أمر هام للغاية. وأدركت أنها نبهتني لوجود فجوة في حياتي الروحية. ورغم كل فهمي للإيمان المسيحي، فقد أهملت أهم رسالة. إن قصة يسوع هي قصة الحب. إنها تثير الألم واليأس بالنسبة لله، ولنا نحن أيضًا. ولكن المسيح يجسد وعد الله الذي كان على استعداد لأن يذهب لأبعد مدى، لكي يستردنا إليه. إن من انجازات المسيح أنه جعلنا محبوبين لدى الله.

صورة البشرية

عندما تأخذ ضوء داخل غرفة، يتحول زجاج النافذة إلى مرآة تعكس محتويات الغرفة. إننا في المسيح لا نجد فقط

نافذة منها نطل على الله، بل نجد مرآة نرى فيها أنفسنا أيضًا، مرآة تعكس صورتنا التي كانت في ذهن الله عنا عندما خلقنا فقراء وعراه. إن الإنسان خُلق على صورة الله، وقد كشف المسيح عن الكيفية التي يجب أن تكون عليها هذه الصورة.

قال باسكال: "إن التجسد يبين للإنسان مدى البؤس الذي وصل إليه، عن طريق الدور العظيم الذي احتاجه للفداء"، وبطريقة مثيرة كشف يسوع فشلنا ككائنات بشرية. إننا نحاول أن نبرر أخطاءنا بالقول: "إننا مجرد بشر" إنسانٍ يسكر، وامرأة تزني، وطفل يعذب حيواناً، وبلد يشن حرباً على بلد آخر. لقد وضع المسيح حداً لهذا. قام بالدور الذي يجب أن نفعل مثله، فقد عرفنا الصورة التي يجب أن نكون عليها ولكننا ابتعدنا عنها.

صاح بيلاطس: "هوذا الإنسان". هوذا أفضل مثل للبشرية. لقد كشف المسيح الحقد والشهوة للقوة والعنف الذي أصاب هذا الكوكب كالفيروس. وكان هذا هو قصد التجسد. كان يسوع يعرف ما سيواجهه على هذه الأرض. لقد تقرر موته منذ البداية. لقد أتى ليبدل الأمور المنافية للطبيعة أو العقل التي وصفت في رسالة أفسس: "إنه من أجلكم افتقر، وهو الغني لكي تستغنوا أنتم بفقره" (٢ كو ٨: ٩)، "الذي إذ كان في صورة الله. لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه أخذا صورة عبد صائرا في شبه الناس" (أفسس ٢: ٦، ٧)، "لأنه جعل الذي لم يعرف خطية خطية لأجلنا؛ لنصير نحن بر الله فيه" (٢كورنثوس ٥: ٢١)، "وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام" (٢كورنثوس ٥: ١٥).

حقًا لقد كانت الآلام التي احتملها على الأرض بمثابة نوع من الخبرة التعليمية لله. قد تبدو هذه الكلمات وكأنها نوع من التجديف، ولكنني في ذلك أتبع ما جاء في رسالة العبرانيين: "مع كونه ابناً تعلم الطاعة مما تألم به"، وفي مكان آخر يقول: "إنه تكمل بالآلام"، وأثناء التجسد اختبر الله كيفية أن يكون إنسانًا. وفي خلال ثلاث وثلاثين سنة على الأرض تعلم الابن عن الفقر، والنزاعات العائلية، والرفض

الاجتماعي، والخيانة والألم، ما أثر الصفعات على الوجه؟ وضربات السوط على الظهر؟ والطعنة بالحربة التي تخترق العضلات والعظام؟ لقد تعلم الابن كل ذلك على الأرض.

إن الله لم يسمح أن يترك الأرض في خطاياها ويقول: "هذا لا يهم" كان على ابن الله ان يواجه الشر شخصيًا وبطريقة لم يواجهها من قبل. كان عليه أن يغفر خطايانا بحملها عنا. كان عليه أن يهزم الموت بموته. كان عليه أن يتعلم التعاطف على البشر بأن يصير واحدًا منهم. وهناك طريقة واحدة ليتعلم التعاطف ـــ كما يقول المعنى اليوناني ـــ هي: "أن تشعر أو تتألم مع الآخرين". وبسبب التجسد فإن الله يسمع صلواتنا بطريقة جديدة لأنه عاش على الأرض، وصلى وهو في حالة الضعف الإنساني.

وفي لحظاته الأخيرة قبل موته قال: "يا أبتاه اغفر لهم" لهم جميعًا: الجنود الرومان، والقادة الدينيين، وتلاميذه الذين تركوه، وأنت، وأنا، الذين أنكرناه بطرق عديدة ـــ "اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون". عندما أصبح ابن الله إنسانًا استطاع أن يقول بفهم: "لا يعلمون ماذا يفعلون" لقد عاش بيننا وهو الآن يعرف ذلك.

المجروح الذي يشفي

في سفرياتي للبلاد الأجنبية لاحظت الاختلاف الكبير في الرموز المستخدمة في الديانات الكبيرة. ففي الهند حيث تتعايش معًا أربع ديانات كبيرة تجولت في مدينة بومباي حيث مررت بأماكن للديانات الأربعة. تنتشر معابد الهندوس في كل مكان، وتوجد أيضًا معابد متحركة على عربات، وعلى كل منها صور الآلهة الهندوس. وفي تناقض صارخ لم أجد صورة واحدة في مسجد للمسلمين في وسط المدينة ترتفع فيه مئذنة تنادي بالإله الواحد، الله الذي لا يمكن رسم صورته. ومن نظرتي للمعبد الهندوسي والمسجد الإسلامي المتجاورين فهمت لماذا لا يستطيع كل منهما فهم الآخر. كما أنني زرت معبدًا لبوذا. وبمقارنته

بالشوارع المزدحمة والمملوءة بالضوضاء في الخارج، وجدت ان هذا المعبد يعطي جوًا من الصفاء والهدوء، وفيه يسجد الرهبان ويصلون في الظلام داخل غرفة تنبعث منها البخور وهم يبتسمون معبرين عن مبادئ بوذا التي تقول: أن مفتاح الرضى والقناعة هو في تنمية القوة الداخلية التي تسمح لنا أن نتغلب على معاناة الحياة.

ثم وصلت إلى كنيسة مسيحية، إنها تشبه المسجد الإسلامي باستثناء شيء واحد، إنه فوق الكنيسة يوجد صليب كبير. وفي هذا البلد الأجنبي رأيت الصليب بعيون جديدة كما لو أنه شيء غريب وشاذ. ما الذي جعل المسيحيون يتمسكون بهذا الصليب الذي صلب عليه المسيح كرمز للإيمان؟ لماذا لا نبذل قصارى جهدنا لكي نزيل ذكرى هذا الظلم المخزي؟ كان بإمكاننا أن نركز على القيامة، ونذكر الصليب بطريقة عابرة في التاريخ. لماذا نجعله مركزًا للإيمان؟

بالطبع هناك الحقيقة الواضحة أن يسوع أمرنا أن نتذكر موته عندما نجتمع للعبادة. ولم تكن هناك حاجة لأن يقول: "اصنعوا هذا لذكرى عن أحد الشعانين أو أحد القيامة"، ولكنه بكل وضوح لأنه أرادنا ألا ننسى ما حدث في الجلجثة. ولم ينس المسيحيون ذلك.

يقول جون اب ديك: "لقد أغضب الصليب اليونانيين بهياكلهم الجميلة للآلهة. وأغضب اليهود الذين توقعوا مسيا ملك. ولكنه استجاب لرغبة عميقة في الإنسان. إن المسيح المصلوب كان بمثابة كوبري بين طبيعة الإنسان القاسية والناقصة وحاجتنا إلى الله وإحساسنا البشري ان الله موجود".

لقد سمع الرسول بولس قول الرب: "تكفيك نعمتي؛ لأن قوتي في الضعف تكمل"، ثم توصل بنفسه إلى القول: "حينما أنا ضعيف حينئذ أنا قوي"، وأضاف: "لهذا أسر بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات والضيقات". وكان يشير لشيء غامض يتخطى إيمان البوذيين في كيفية التغلب على المعاناة والصعوبات.

فبولس لا يتحدث عن التخلي والابتعاد بل عن التحول. فالأشياء التي تُشعرنا بعدم كفايتنا هي نفسها التي تولد الرجاء وهي التي يستخدمها الله لإنجاز عمله. ولكي نتأكد من ذلك؛ فلننظر إلى الصليب. إن أكثر انعطاف غير متوقع في التاريخ هو أن ما قصد به الشيطان شرًا، قصد به الله خيراً. إن موت المسيح على الصليب بنى جسرًا على الفجوة التي فصلت بين الله الكامل والبشرية الخاطئة. ففي يوم الجمعة العظيمة هزم الله الخطية والموت. وانتصر على الشيطان، واسترد عائلته. وفي عملية التحول هذه تحمل الله أقسى عمل في التاريخ، وحوله إلى أعظم انتصار. لذلك فلا عجب أن رمز هذا الانتصار وهو الصليب، لن ينسى، ولا عجب أن يسوع أيضًا يأمرنا بألا ننساه. إن الصليب يبعث الأمل والرجاء ويقول أشعياء: "بحبره شفينا"، وليس بمعجزاته. إذا كان الله قد تمكن من أن يحرز مثل هذا الانتصار من بين فكي الهزيمة، فبإمكانه أيضًا أن يأتي بالقوة من لحظة ضعف شديدة. وهذا ما يستطيع الله أن يفعله بالفشل والصعوبات التي أواجهها في حياتي.

لا شيء يستطيع أن يُنهي العلاقة بين الله والبشر. لقد حول الفداء أشنع جريمة إلى قوة شافية. إن الشافي الذي جرح بحسب النبوة عاد في القيامة هذا اليوم يعطي نظرة تمهيدية سريعة في كيفية نظر التاريخ إلى امتياز الأبدية حيث ينظر لكل جرح وكل يأس بنور جديد. إن إيماننا يبدأ حيثما يظهر أنه سينتهي. فبين الصليب والقبر الفارغ يرفرف وعد التاريخ: رجاء للعالم والرجاء لكل واحد منا الذي من يعيش فيه.

قدم المؤلف والمبشر توني كامبولو خدمة عنوانها "إنه يوم الجمعة ولكن يوم الأحد قادم" ويُظهر كامبولا التناقض بين منظر العالم في يوم الجمعة عندما انتصرت قوات الشر على قوات الخير، وعندما هرب التلاميذ في خوف ومات ابن الله على الصليب. وبين ما حدث في أحد القيامة. إن التلاميذ الذين عاشوا كلا اليومين لم يشكوا في الله مرة أخرى. لقد تعلموا أنه عندما يبدو أن الله غائب قد يكون

أقرب إلى الجميع، وعندما يبدو الله ضعيفا فإنه يكون قويًا، وعندما يبدو أنه مات، فإنه يعود للحياة مرة أخرى. لقد تعلموا ألا يبعدوا الله عن تفكيرهم.

تخطى كامبولو يومًا في خدمته، فمع أن اليومين الآخرين قد اكتسبا اسماً في تقويم الكنيسة: يوم الجمع العظيمة وأحد القيامة. ورغم هذا فإننا بإدراك ووعي حقيقي نعيش في يوم السبت، اليوم الذي ليس له اسم في هذه الأحداث. فالذي اختبره التلاميذ على نطاق ضيق—ثلاثة أيام من الحزن على شخص مات على الصليب—نحن نعيشه الآن على نطاق واسع في كل أنحاء العالم. هل يمكننا أن نثق أن الله بإمكانه أن يصنع شيئًا مقدساً وجميلاً وطيبًا من عالم يشمل البوسنة ورواندا وسجون مكتظة بالمساجين في أغنى دولة في العالم؟ إنه يوم السبت على كوكب الأرض. هل سيأتي يوم الأحد يومًا ما؟

هذا اليوم المظلم، يوم الجمعة في الجلجثة يمكن أن نعتبره يومًا عظيمًا لأنه قادنا إلى أحد القيامة. اليوم الذي أعطانا مفتاحًا للغز الكون. لقد فتح القيامة فتحة ضيقة في كون كان يتجه نحو الدمار والفناء، مؤكداً الوعد أن الله في يوم ما سوف يوسع دائرة معجزة القيامة على نطاق الكون كله.

إن لأمر طيب أن نتذكر أنه في هذه الدراما الكونية، أننا نظل أحياء في أيام السبت الخاصة بنا، ذلك اليوم الذي ليس له اسم. أعرف سيدة دفنت جدتها تحت شجرة عمرها ١٥٠ عامًا في مقبرة لكنيسة أسقفية في ريف لويزيانا. وبحسب تعليمات جدتها كتبوا على شاهد قبرها: "إنني منتظرة".

المراجع

الفصل ١

13: Dickens: Charles Dickens, *The Life of Our Lord.* London: Associated Newspapers Ltd, 1934.
15: *Pasolini*: Richard H. Campbell And Michael R. Pitts, *The Bible On Film.* Metuchen, N. J.: The Scarecrow Press, 1981, p. 54.
16: *Milliken Bill Milliken*, So Long, Sweet Jesus. New York: Prometheus Press, n.d.
17: H. G. Wells: Quoted from The Greatest Men in History in Mark Link, S. J., He Is the Still Point of The Turning World. Chicago: Argus Communication, 1971, P. 111.
17: "I Tell You, Whoever": Luke 12: 8.
17: "Do you have eyes": Job 10: 4.
18: Blcke: William Black, "The Everlasting Gospel, "The Portable. New York: The Viking Press, 1968, p. 612.
18: Barth: Karl Barth, The Word of God and the Word of Man. New York: Harper& Row, Publishers, 1957, p. 62.
19: Lakota: Cullen Murphy, :Who Do Men Say That I Am?" The Atlantic Monthly, December 1986, p. 58.
19: Norm Evans: Quoted In "Making It Big," The Reformed Journal, December 1986, P. 4.
19: Friz Peterson: Quoted In The Chicage Tribune, May 24, 1981
20: "scbolar at the University of Chicago": David Tracy, quoted in Murphy, "Who Do Men Say

That I Am?" op cit., p. 38.
20: Phillips: J. B. Phillips, Ring Of Truth. Wheaton, Ill.: Harold Shaw Publishers, 1977, P. 79.
20: "With a loud cry": Mark 15: 37.
21: "Blessed is be": Matthew 11: 6 RSV.
21: MeGrath: Alister McGrath, Understanding Jesus.
Grand Rapids: Zondervan Publishing House, 1987, P. 52.
22: Kasper: Wwalter Kasper, Jesus the Cbrist. New York: Paulist Press, 1977, p. 46.
23: "Get bebind me": Matthew 16: 23.
23: Wink: Walter Wink, Engaging the Powers.
Minneapolis: Fortress Press, 1992, p. 129.
23: Sayers: Dorothy Sayers, Cbistian Letters to a Post Cbistian World. Grand Rapids: William B. Eerdmans Publishing Company, 1969, p. 15.
24: Tucbman: Barbara Tuchman, Practicing History. New York: Alfed A. Knopf, 1981 p. 22.
24: Pascat: Blaise Pascal, Pensees. New York: E. P. Dutton, Inc., 1958, p. 228.
24: Luther: Quoted In Jurgen Moltmann, The Way of Jesus Christ. San Franciaco: Harper-SanFrancisco, 1990, p. 84.

الفصل ٢

30: "salvation from": Luke 1: 71.
30: "sword will pierce": Luke 2: 35.
31: Lewis: C. S. Lewis, "The Grand Miracle," in God in the Dock: Essays on Tbeology and Ethies. Grand Rapids: William B. Eerdmans Publishing Company, 1972, p. 84.
32: Muggeridge: Malcolm Muggeridge, Jesus: the Man Who Lives. New York: Harper& Row, 1975, p. 19.
32: "Iam the Lord,s": Luke1: 38.
33: Ricci: Jonathan D. Spence, The Memory Palace of matteo Ricci. New York: Penguin Books, 1984, p. 245.

33: "This child is destind": Luke 2: 34.
33: Angustus: John Dominic Crossan, The Historical Jesus: The Live of a Mediterranean Jewish Peasant. San Francisco: Harper Collins Publishers, 1991, p. 31.
34: see also p. 57: Herod the Great: Joseph Klausner, Jesus of Nazareth: His Life, Times, and Teaching. London: George Allen & Unwin, Ltd, 1925, p. 146.
34: Auden: The Collected Poetry of W. H. Auden. New York: Random House, 1945, p. 455.
36: Donne: John Donne, "Nativity," The Complete English Poems. New York: Penguin Books, 1971, p. 307.
36: "made himself nothing": Philippians 2: 7
36: "silver as common": I Kings 10: 27.
36: Figgis Neville Figgis, The Gospel and Human Needs. Londo: Longmans, Green, 1909, p. 11.
37: "Ohere and now": W. H. Auden, The Collected Poetry, op cit., pp. 443 – 44.
39: "brought down rulers": Luke 1: 52.
39: Tokes: Laszlo Tokes, The Fall of Tyrants. Wheaton, Ill: Crossway Books, 1990, p. 186.
41: Lubavitcher: David Remnick, "Waiting for the Apocalypse in Crown Heights, "The New Yorer, December 21, 1992, p. 52 ff.
42: "Isn't his mother's name": Matthew 13: 54 – 55
42: "Nazareth": John 1: 46.
42: "demon – possessed": John 10: 20.
42: Chesterton: G. K. Chesterton, Orthodoxy, Garden City, N. Y.: Doubleday/ Image Books, 1959, p. 137.
43: Phillips: J. B. Phillips, New Testament Christianity. London: Hodder & Stoughton, 1958, pp. 27 – 33.
44: Apollo astronauts: Quoted in William M. Justice, Oue Visited Planet. New York: Vantage Press, 1973, p. 167.
45: "He is the image": Colossians 1: 15, 17.

الفصل ٣

50: Buher: Quoted in Geza Vermes, Jesus, the Jew: A Historian's Reading of the Gospels. London: Collins, 1973, p. 9.
51: Moltmann: Jurgen Moltmann, The Way of Jesus Christ, op cit., p. 168
52: "My God, my God": Matthew 27: 46.
52: "Iam not": John 3: 28.
52: "Are you the one": Matthew 11: 3.
53: "rend the heavens": Isaiah 64: 1.
53: "he hath practiced sorcery": Joseph Klausner, Jesus of Nazareth, op cit., p. 27
54: "God did not beget": Jurgen Moltmann, the Crucified God, New York: Haeper & Row, 1974, p. 235.
55: Dodd: C. H. Dodd, The Founder of Christianity. London: The Macmillan Company, 1970, p. 103.
55: Pelikan: Jaroslav Pelikan, Jesus Through the Centuries. New Haven, Conn.: Yale University Press, 1985, p. 20.
56: Bonhoeffer: Dietrich Bonhoeffer, Christ the Center. San Francisco: Harper & Row, Publishers, 1978, p. 61
56: Virgil: Quoted in Jaroslav Pelikan, Jesus Through the Centuries, op cit., p. 35.
57: Barclay: Quoted in Malcolm Muggeridge, Jesus: the Man Who Lives, op cit, p. 74.
57: Antiochus: Donald B. Kraybill, The Upside – Down Kingdom. Scottsdale, Pa.: The Herald Press, 1990, p. 38
57: "Would the Romans": Joseph Klausner, Jesus of Nazareth, op cit., p. 144.
58: Muggeridge: Malcolm Muggeridge, Jesus: the Man Who Lives, op cit., p. 13.
60: "How can the Christ": John 7: 41.
60: "Nazareth": John 1: 46.
60: "Galilee, Galilee, you hate": Vermes, Jesus the

Jew, op cit., p. 53.
60: "Are you from Galilee": John 7: 52.
60: "You ought to leave": John 7: 3.
61: "His high priests": Joseph Klausner, Jesus of Nazareth, op cit., p. 151.
62: Josephus: A. N. Wilson, Jesus. New York: W. W. Norton & Company, 1992, p. xii.
62: "It is better": John 11: 50
64: "If anyone comes": Luke 14: 26
64: "Iam able": Matthew 26: 61.

الفصل ٤

70: "Jesus, full of the Holy Spirit": Luke 4: 1 – 2.
71: Hopkins: The Sermons and Devotional Writings of Gerard Manley Hopkins. London: Oxford University Press, 1959, pp. 180 – 83
71: Luther: Quoted in F. Forrester Church, Enteraining Angels, San Francisco: Harper & Row, Publishers, 1987, p. 54.
72: Muggeridge: Malcolm Muggeridge, Jesus: the Man Who Lives, op cit., p. 52 ff.
73: "Out of my sight": Matthew 16: 23.
73: "Never, Lord": Matthew 16: 22.
73: "Aren't you": Luke 23: 39.
73: "Let him come down": Matthew 27: 42-43.
74: Milton: "Paradise Regained," The Complete Poems of John Milton. New York: Washing-ton Square Press, Inc., 1964, p. 393.
74: Karamazov: Fyodor Dostoevsky, The Brothers Karamazov. Garden City, N. Y.: Nelson Doubleday, Inc., n. d., pp. 229-39.
76n.: Sayers: Dorothy Sayers, The Man Born to Be King. Grand Rapids: William B. Eerdmans Publishing Company, n. d., p. 35.
76: Kierkegaard: Quoted in D. R. Davies, On to Orthodoxy. London: Hodder and Stoughton, 1939, p. 162.
77: MacDonald: George MacDonald, Life Essential, The Publishers, 1974, pp. 24-25.

77: "O Jerusalem": Matthew 23: 37.
78: "I, when I am": John 12: 32-33.
80: "Jesus looked at him": Mark 10: 21.
80: "Because of the increase": Matthew 24: 12.
80: "held it more humane": Milton, "Paradise Regained," op cit., 368.
80: :I have prayed": Luke 22: 32.
80: "You do not": John 6: 67.
80: "Take up your cross": Matthew 16: 24.
81: Thielicke: Helmut Thielicke, Our Heavenly Father. Grand Rapids: Baker Book House, 1974, p. 123.
81: "We do not have": Heberews 4: 15, 2: 18.

الفصل ٥

86: Lentuhis: Sherwood Wirt, Jesus, Man of Joy. Nashville: Thomas Nelson, 1991, p. 28.
86: "a gluttonous man": Luke 7: 34, kjv.
87: "How can the guests": Mark 2: 19.
87: "Just as there were many": Isaiah 52: 14, 53: 2-3.
87: John the Baptist admitted: John 1: 33.
88: "My soul is": Matthew 26: 38.
88: "Your faith": Matthew 9: 22.
88: "atrue Israelite": John 1: 47.
89: Mary Gordon: Alfred Corn, ed., Incarnation: Contemporary Writers on the New Testament. New York: Viking Penguin, 1990, p. 21.
90: Lewis: C. S. Lewis, The Four Loves. London: Geoffrey Bles, 1960, p. 67.
90: "Son, why": Luke 2: 48-49.
90: "Quiet": Mark 4: 39.
91: Maritain: Quoted in John S. Dunne, The Church of the Poor Devil. New York: Macmillan Publishing Co., Inc., 1982, p. 111.
91: "If it is possible": Matthew 26: 39.
91: Crossan: John Dominic Crossan, The Historical Jesus, op cit., p. xi.
91: "Isn't he": Matthew 13: 54-55, paraphrased.

92: "wicked and adulterous": Matthew 12: 39.
92: "Believe me": John 14: 11.
93: Buechner: Frederick Buechner, Peculiar Treasures. San Francisco: Harper & Row, Publishers, 1979, p. 70.
93: "Foxes": Matthew 8: 20.
94: Berryman: John Berryman, "Eleven Addresses to the Lord, "in Love & Fame. New York: Farrar, Straus and Giroux, 1970, p. 92.
94: Pelikan: Jaroslav Pelikan, Jesus Through the Centuries, op cit., p. 13.
95: "full of grace": John 1: 14.
95: "not impose": Joseph Klausner, From Jesus to Paul, quoted in Everett F. Harrison, A Short Life of Christ. Grand Rapids: Wm. B. Eerdmans Publishing Company, 1968, p. 98.
96: "Be perfect": Matthew 5: 48.
96: Trueblood: Elton Trueblood, The Yoke of Christ and Other Sermons. Waco, Tex.: Word Books, 1958, p. 113.
96: "Count the cost": Luke 14: 28, RSV.
96: Neusner: Jacob Neusner, A Rabbi Talks with Jesus. New York: Doubleday, 1993, pp. 24, 29, 31, 53.
96: "he taught": Matthew 7: 29.
96: "You have heard": Matthew 5: 21, et al.
97: "This fellow": Matthew 9: 3.
97: "No one ever": John 7: 46.
97: "Be quiet": Mark 1: 25.
97: "You deaf": Mark 9: 25.
97: "We had hoped": Luke 24: 21.
97: "the whole world": John 12: 19.
98: "Whoever finds": Matthew 10: 39.
98: "You don't know": Matthew 20: 22.
99: "Are you so dull": Mark 7: 18.
99: "How long": Matthew 17: 17.
99: "that they might": Mark 3: 14.
100: "At that time": Luk 10: 21.

الفصل ٦

105: "Blessed are...": All Beatitudes taken from Matthew 5.
109: "The spirit of self-sacrifice": Quoted in Alister Hardy, The Biology of God. New York: Taplinger Publishing Company, 1975, p. 146.
111: Lewis: C. S. Lewis, The Weight of Glory. Grand Rapids: William B. Eerdmans Publishing Company, 1965, pp. 1-2.
113: Phillips: J. B. Phillips, Good News, London: Geoffrey Bles, 1964, pp. 33-4.
113n.: Kasper: Walter Kasper, Jesus the Christ, op cit., p. 84.
115: Hellwig: Monika Hellwig, "Good News to the Poor: Do They Understand It Better?" in Tracing the Spirit, James E. Hug, ed. Mahwah, N. J.: Paulist Press, 1983, p. 145.
118: Mauriac: Francois Mauriac, What I Believe. New York: Farrar, Straus, Straus and Company, 1963, pp. 47-56.
120: "Adam is a 25-year-old": Henri Nouwen, "Adam's Peace, "in World Vision Magazine, August-September 1988, pp. 4-7.
122: "Christianity has always insisted": Martin Luther King Jr. Quoted in David J. Garrow, Bearing the Cross. New York: William Morrow and Company, Inc., 1986, p. 532.
122: "to awaken a sense": Ibid, p. 81.
125: "Whoever wants": Matthew 16: 25, et al.
125: "life to the full": John 10: 10.
125: "in his joy": Matthew 13: 44.

الفصل ٧

129: "Be perfect": Matthew 5: 48.
129: "I tell you, not seven": Matthew 18: 22.
129: "In everything": Matthew 7: 12.
130: Owens: Virginia Stem Owens, "God and Man

at Texas A&M, "in The Reformed Journal, November 1987, pp. 3-4.
131: "Do not think": Matthew 5: 17, 20.
132: "You shall not misuse": Exodus 20: 7.
132: bleeding Pharisees: Mary Stewart Van Leeuwen, "Why Christians Should Take the Men's Movement Seriously, "in Radix, Vol. 21, no. 3, p. 6.
133: "I tell you ...": All such statements taken from Sermon on the Mount, Matthew 5-7.
133: Updike: John Updike, "Even the Bible Is Soft on Sex, "in The New York Times Book Review, June 20, 1993, p. 3.
134: "Give to Caesar": Matthew 22: 21.
136n.: Muggeridge: Malcolm Muggeridge, "Books", in Esquire, April 1972, p. 39.
137: Tolstoy: See William L. Shirer, Love and Hatred: The Stormy Marriage of Levand Sonya Tolstoy. New York: Simon & Schuster, 1994.
138: "There is so little genuine warmth": From Sonya Tolstoy's diary, January 26, 1895.
139: "What about you": Quoted in A. N. Wilson, The Lion and the Honeycomb: The Religious Writings of Tolstoy. San Francisco: Harper & Row, Publishers, pp. 147-8.
140: Wilson: Ibid, p. 17.
140: Dostoevsky: See Joseph Frank: Dostoevsky. The Years of Ordeal, 1850 - 1859. Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1983.
141: "We love because": 1 John 4: 19.
142: "Where sin increased": Romans 5: 20.
142: "There is now no": Romans 8: 1.
143: "Be perfect": Matthew 5: 48.
143: "Love the Lord": Matthew 22: 37.
143: "Father, forgive": Luke 23: 34.

الفصل ٨

150: "Do you see": Luke 7: 44-47.
151: "the poor, the crippled": Luke 14: 21.

151: "For the Son": Luke 19: 10.
151: "It is not": Matthew 9: 12.
152: "If any one of you": John 8: 7-11.
152: Lewis: C. S. Lewis, The Problem of Pain. New York: The Macrmillan Company, 1962, p. 98.
152: Kaminer: Wendy Kaminer, from By the Book: America's Self-Help Habit, quoted in "Saving Therapy: Exploring the Religious Self-Help Literature, "Theology Today, October 1991, p. 301.
153: "No madman": Hans Kung, On Being a Christian. Garden City, N. Y.: Doubleday & Company, Inc., 1976, p. 235.
153: "Blessed art thou": Marcus J. Borg, Jesus, A New Vision. San Francisco: Harper & Row, 1987, 133-34.
154: Wink: Wink, Engaging the Powers, op cit., p. 129.
154: "There is neither": Galatians 3: 28.
154n.: Sayer: Dorothy L. Sayers, Are Women Human. Downers Grove, Ill.: Inter Varsity Press, 1971, p. 47.
154: Wink: Wink, Engaging the Powers, op cit., p. 130.
155: "God, have mercy": Luke 18: 13-14.
155: Wilson: A. N. Wilson, Jesus, op cit., p. 30.
156: "Son, remember": Luke 16: 25.
156n.: Constantine, early Christians: See Robin Lane Fox, Pagans and Christians. New York: Alfred A. Knopf, 1989.
157: Tbird World base communities: See Robert McAfee Brown, Unexpected New: Reading the Bible with Third World Eyes, Philadelphia: The Westminster Press, 1984.
157: "he has anointed": Isaiah 61: 1.
158: Endo: See Shusaku Endo, A Life of Jesus. New York: Paulist Press, 1973.
160: "O Jerusalem": Matthew 23: 37.
160: "offered up loud": Hebrews 5: 7.

161: "My God": Matthew 27: 46.

الفصل ٩

167: Miracle of water into wine: John 2: 1-11.
168: Lewis: C. S. Lewis, "Miracles," in God in the Dock, op cit., p. 29.
169: "There is no death": Footnote to John 9: 2 in The NIV Study Bible. Grand Rapids: Zondervan Publishing House, 1985, p. 1614.
170: Miracle of healed blindness: John 9: 1-41.
171: Koop: From Personal interview.
172: Miracle of healed leprosy: Matthew 8: 1-4, Mark 1: 40-41, Luke 5: 12-14.
173n.: "Holy Disease": Patrick Feeny, The Fight Against Leprosy. New York: American Leprosy Mission, 1964, pp. 25, 32.
173: Teresa: From television interview.
173: Miracle of bealed paralysis: Matthew 9: 1-8, Mark 2: 1-12, Luke 5: 17-26.
174n.: "Any disabled person": Donald Senior, C. P. With New Eyes," in Stauros Notebook, Vol. 9, no. 2, p. 1.
176: Miracle of feeding five thousand: Matthew 14: 13-21, Mark 6: 30-44, Luke 9: 10-17, John 6: 5-71.
177: Capon: Robert Farrar Capon, Parables of the Kingdom. Grand Rapids: Zondervan Publishing House, 1985, p. 27.
177: "A wicked and adulterous": Matthew 12: 39.
178: "be would not entrust": John 2: 24.
178: Miracle of raising Lazarus: John 11: 1-54.
181: "If they do not listen": Luke 16: 31.
181: "not one (sparrow)": Matthew 10: 29.
181: Askew: Eddie Askew, Disguises of Love. London: The Leprosy Mission International, 1983, p. 50.
181: "I do believe": Mark 9: 24.
182: John the Baptist Matthew 11: 1-7.
183: Moltmann: Jurgen Moltmann, The Way of

Jesus Christ, op cit., p. 99.

الفصل ١٠

189: "Blessed is the king": Luke 19: 38.
189: "I tell you": Luke 19: 40.
189: "Look how": John 12: 19.
191: "I confer on you": Luke 22: 29.
191: "I have overcome": John 16: 33.
191: "Jesus knew": John 13: 3-4.
191: Peck: M. Scott Peck, The Different Drum. New York: Touchstone\ Simon & Schuster, 1988, p. 293.
192: "the greatest": Luke 22: 26.
192: "stared at one another": John 13: 22.
192: "Surely not I?": Mark 14: 19.
193: "I don't know": Matthew 26: 74.
193: "Satan entered": John 13: 27.
194: "Father, forgive": Luke 23: 34.
194: Gethsemane: Matthew 26: 36-56, Mark 14: 32-52, Luke 22: 39-53.
195: Yoder: John Howard Yoder, The Politics of Jesus. Grand Rapids: William B. Eerdmans Publishing Company, 1972, pp. 55-56, 61.
196: "Did not the Christ": Luke 24: 26.
197n.: Klausner: Joseph Klausner, Jesus of Nazareth, op cit., p. 348.
198: "Icharge you...": Matthew 26: 63-65.
198: "Are you the king": Luke 23: 3.
199: Barth: Karl Barth, The Word of God and the Word of Man, op cit., p. 82.
200: Cicero: Quoted in Walter Kasper, Jesus the Christ, op cit., p. 113.
200: "anyone who is hung": Deuteronomy 21: 23.
201: "I thirst": John 19: 28, KJV.
201: "Father, into": Luke 23: 45.
201: "It is finished": John 19: 30.
201: "My God, my God": Matthew 27: 46, Mark 15: 33.
201: Lewis: C. S. Lewis, Letters to Malcolm: Chiefly

on Prayer. London: Geoffrey Bles, 1964, p. 65.
202: "a curse for us": Galatians 3: 13.
202: "God made him": 2Corinthians 5: 21.
2012: Sayers: Sayers, The Man Born to Be King, op cit., p. 5.
202n.: Constantine: Michael Grant, Constantine the Great. New York: Charles Scribner's Son, 1994, pp. 149, 222.
203: Lewis: Letters to Malcolm: Chiefly on Prayer, op, cit., p. 113.
203: "Having disarmed": Colossians 2: 15.
203: "Surely this man": Mark 15: 39.
203: "remember me": Luke 23: 42.
204: Justin Martyr: Hans Kung, On Being a Cbristian, op cit, p. 339.
204: Peck: M. Scott Peck, People of the Lie. New York: Simon and Schuster, 1983, p. 269.
205: Solle: Dorothy Solle, Of War and Love. Maryknoll, N. Y.: Orbis Books, 1984, p. 97.

الفصل ١١

210: May: Rollo May, My Quest for Beauty. Dallas: Saybrook Publishing Ccompany, 1985, p. 60.
211: "And if Christ": 1 Corinthians 15: 14.
212: "nonsense": Luke 24: 11.
212: "some doubted": Matthew 28: 17.
213: "afraid yet": Matthew 28: 8.
213: "trembling and bewildered": Mark 16: 8.
213: Gospel of Peter: Quoted in Frederick Buechner, The Faces of Jesus. San Francisco: Harper & Row Publishers, 1989, p. 218.
214: "His disciples came": Matthew 28: 13.
214: "If they do not listen": Luke 16: 31.
214: "He is not bere": Cited in Hans Kung, On Being a Christian, op cit, p. 365.
214: Buechner: Frederick Buechner, Whistling in the Dark. San Francisco: Harper & Row Publishers, 1988, p. 42.
214: Emmaus story: Luke 24: 13-49.

216: "Because you have seen": John 20: 29.
217: Dodd: C. H. Dodd, The Founder of Christianity, op cit., p. 163.
217: Updike: John Updike, "Seven Stanzas at Easter, "in Collected Poems 1953 - 1993. New York: Alfred A. Knopf, 1993, p. 20. Used by permission.
218n.: Tolkien: J. R. R. Tolkien, "On Fairy Tales, "quoted in Robert McAfee Brown, Persuade Us to Rejoice. Louisville, Ky.: Westminster/ John Knox Press, 1992, p. 145.
218: Sayers: Dorothy L. Sayers, The Mind of the Maker. London: Methuen & Co. Ltd., 1959, p. 67.

الفصل ١٢

226: Buechner: Frederick Buechner, The Magnificent Defeat. New York: The Seabury Press, 1979, p. 86.
226: Wink: Walter Wink, Engaging the Powers, op cit., p. 143.
226: "I have brought you glory...": John 17: 4-5.
227: "Men of Galilee": Acts 1: 11.
227: "I am sending": Matthew 10: 16.
227: Endo: Shusaku Endo, Silence. New York: Taplinger Puplishing Company, 1979, p. 203.
227: "Brother will betray": Matthew 10: 21-22.
228: "But I tell you": John 16: 7.
228: "As you sent": John 17: 18.
228: Hopkins: "Inversnaid, "in Gerard Manley Hopkins, Poems and Prose. Baltimore, Md.: Penguin Books, 1953, p. 51.
228: "Unless a kernel": John 12: 24.
229: "Lord, are you at this time": Acts 1: 6.
229: Lewis: C. S. Lewis, The Weight of Glory, op cit., p. 15.
230: "He who listens": Luke 10: 16.
231: "When the Son": Matthew 25: 31-46.
232: "Men of Galilee": Acts 1: 11.

232: Edwards: Gerald R. McDermott, "What Jonathan Edwards Can Teach Us About Politics," Christianity Today, July 18, 1994, p. 35.
234: Kung: Hans Kung, On Being a Christian, op cit., p. 132.
234: Dillard: Alfred Corn, Incarnation, op cit., p. 36.
234: Buechner: Ibid, p. 123.
234: Augustine: Quoted in Paul Johnson, A History of Christianity. New York: Atheneum, 1976, p. 115.
235: "You did not choose": John 15: 16.
235n.: Williams: Charles Williams, He Came Down from Heaven. London: William Heinemann Ltd., 1938, p. 108.
235: "Showed them the full": John 13: 10
236: "We have this treasure": 2 Corinthians 4: 7.
236: O'Connor: Flannery O'Connor, The Habit of Being.

الفصل ١٣

241: "The kingdom of God": Matthew 12: 28.
241: Barday: Quoted in Malcolm Muggeridge, Jesus: the Man Who Lives, op cit., p. 74.
241: "The kingdom of beaven": Matthew 3: 2.
241: "For I tell you": Luke 10: 24.
241: "New one greater": Matthew 12: 42.
244: "that fox": Luke 13: 32.
244: "So that we may not offend": Matthew 17: 27.
244: "Love your enemies": Matthew 5: 44.
247: "All men will know": John 13: 35.
247: "For God so Loved": John 3: 16.
247: "My kingdom is not": John 18: 36.
248: "The kingdom of God does not come": Luke 17: 20.
248: "Give to Caesar": Matthew 22: 21.
248: "Durant: Will Durant, The Story of Civilization Part 111: Caesar and Christ. New York: Simon & Schuster, 1944, p. 652.

249: Legislative aide in China: Karen M. Feaver, "Chinese Lessons," Christianity Today, May 16, 1994, p. 33.
249: "If my people": 2 Chronicles 7: 14.
250: Barth: Karl Barth, from Church Dogmatics, quoted in Stanley Hauerwas and William H. Willimon, Resident Aliens. Nashville: Abingdon Press, 1989, p. 83.
250: Buber: Quoted in Jurgen Moltmann, The Way of Jesus Christ, op cit., p. 28.
251: "Your kingdom come": Matthew 6: 10.
251: "In this world": John 16: 33.
251: "You will bear of": Matthew 24: 6.
251: Lewis: C. S, Lewis, Mere Cbristianity, New York: The Macmillan Company,1960, p.65.
252: "Lord, are you at this time": Acts 1:6.
252: "This same Jesus": Acts 1:11.
252: "every knee should how": Philippians 2:10-11.

الفصل ١٤

257: Peck: M. Scott Peck, Further Along the Road Less Traveled, New York: Simon & Schuster, 1993, p. 160.
259: "Unless your righteousness": Matthew 5: 20.
261: "I am the way": John 14: 6.
261: "I am sending": Matthew 23: 34.
262: "I and the Father": John 10: 30.
262: "Before Abraham": John 8: 58.
262: "Show us": John 14: 8.
262: "Anyone who has seen": John 14: 9.
262: "That which was": 1 John 1: 1.
262: "was like the sun": Revelation 1: 16.
263: "I am the way": John 14: 6.
263: Lewis: C. S. Lewis, Miracles. New York: The Macmillan Company, 1947, p. 113.
263: Lewis: Mere Christianity op cit., p. 56.
264: "I go to prepare": John 14: 2, KJV.
264: Carter: Quoted in Gordon Bridger, A Day That Changed the World, Downers Grove, Ill.: Inter

Varsity Press, 1975, p. 56.
264n.: Buechner: Frederick Buechner, Wisbful Thinking. San Francisco: Harper & Row Puplishers, p. 17.
265: "image of the invisible": Colossians 1: 15.
265: "For God was pleased": Colossians 1: 19.
266: "The curtain": Mark 15: 38.
267: Coles: Robert Coles, The Spiritual Life of Children, Boston: Houghton Mifflin Company, 1990, p. 231.
267: Aristotle: Aristotle, Magna Moralia, Quoted in Diogenes Allen, Love. Cambridge, Mass.: Cowley Publications, 1987, p. 115.
267: "God is love": 1 John 4: 9.
268: Kierkegaard: Quoted in Karl Barth, The Word of God and the Word of Man, p. 84.
268: Nouwen: Henri J. M. Nouwen, The Return of the Prodigal Son. New York: Image Books/ Doubleday, 1994, p. 55.
268: "This is love": 1 John 4: 10.
268: "Greater love": John 15: 13.
269: "For God so loved": John 3: 16.
269: Price: Quoted in Alfred Corn, Incarnation, op cit., p. 72.
270: Pascal: Blaise Pascal, Pensées, op cit., p. 143.
270: "Behold the man": John 19: 5.
270: "though he was rich": 2 Corinthians 8: 9, KJV.
270: "Who being in very nature": Philippians 2: 6-7.
270: "God made him": 2 Corinthians 5: 21.
270: "And he died for all": 2 Corinthians 5: 15.
270: "Although he was a son": Hebrews 5: 8.
271: "Father, forgive them": Luke 23: 34.
272: Goethe: Quoted in Walter Kasper, Jesus the Christ, op cit., p. 182.
272: Dostoevsky: Quoted in Hans Küng, On Being a Christian, op cit., p. 142.
273: Updike: Alfred Corn, Incarnation, op cit., p. 10.
274: Maltmann: Jürgen Moltmann, The Way of

Jesus Christ, op cit., p. 322.

آخرون

In addition to the specific citations above, I must express gratitude to the following authors for helping me understand Jesus better:

Anderson, Sir Norman. Jesus Christ: the Witness of History. Downers Grove, Ill.: Inter Varsity Press, 1985.

Baillie, John. The Place of Jesus Christ in Modern Christianity. Edinburgh: T&T Clark, 1929.

Bainton, Roland H. Behold the Christ. New York: Harper & Row, 1974.

Baker, John Austin. The Foolishness of God. Atlanta: John Knox Press, 1970.

Barclay, William. Jesus As They Saw Him. Grand Rapids: William B. Eerdmans Publishing Company, 1962.

Barton, Bruce. The Man Nobody Knows. New York: Macmillan Publishing Company, 1987.

Batey, Richard. Jesus and the Poor. San Francisco: Harper & Row, Publishers, 1972.

Berkhof, Hendrik. Christ and the Powers. Scottsdale, Pa.: Herald Press, 1977.

Bright, John. The Kingdom of God. Nashville: Abingdon, 1980.

Brown, Colin. Miracles and the Critical Mind. Grand Rapids: William B. Eerdmans Publishing Company, 1984.

Bruce, F. F. Jesus and Christian Origins Outside the New Testament. Grand Rapids: William B. Eerdmans Publishing Company, 1974.

Bruce, F. F. What the Bible Teaches About What Jesus Did. Wheaton, Ill.: Tyndale House Publishers, 1979.

Capon, Robert Farrar. Hunting the Divine Fox. New York: The Seabury Press, 1974.

Cullman, Oscar. Jesus and the Revolutionaries. New York: Haeper & Row, Publishers, 1970.

Ellul, Jacques. The Subversion of Christianity. Grand Rapids: William B. Eerdmans Publishing Company, 1986.

Falk, Harvey. Jesus the Pharisee: A New Look at the Jewishness of Jesus. New York: Paulist Press, 1985.

Fretheim, Terence E. The Suffering of God. Philadelphia: Fortress Press, 1984.

Guardini, Romano. The Lord. Chicago: Regnery Gateway, Inc., 1954.

Gutherie, Donald. A Shorter Life of Christ. Grand Rapids: Zondervan Publishing, 1970.

Hellwig, Monika. Jesus, The Compassion of God. Wilmington, Del.: Michael Glazier, Inc., 1983.

Hengel, Martin. The Charismatic Leader and His Followers. New York: Crossroad, 1981.

Kierkegaard, Soren, Training in Christianity. Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1947.

Ladd, George Eldon. The Gospel of the Kingdom, Grand Rapids: William B. Eerdmans Publishing Company, 1959.

Macquarrie, John. The Humility of God. Philadelphia: The Westminster Press, 1978.

Macquarrie, John. Jesus Christ in Modern Thought. Philadelphia: Trinity Press International, 1990.

Mason, Steve. Josephus and the New Testament. Peabody, Mass.: Hendrickson Pubilshers, 1992.

McGrath, Alister. Understanding Jesus. Grand Rapids: Zondervan Publishing House, 1988.

Meier, John P. A Marginal Jew. New York: Doubleday, 1991.

Moltmann, Jurgen. The Trinity and the Kingdom. San Francisco: Harper & Row Publishers, 1981.

Morison, Frank. Who Moved the Stone? London: Faber and Faber Limited, 1944.

Niebuhr, H. Richard. Christ and Culture. New York: Harper & Brothers Publishers, 1956.

Oppenheimer, Helen. Incarnation and Immanence.

London: Hodder and Stoughton, 1973.

Pfeiffer, Charles. Between the Testaments. Grand Rapids: Baker Book House, 1959.

Stott, John. Christian Counter-Culture: The Message of the Sermon on the Mount. Downers Grove, Ill.: Inter Varsity Press, 1978.

van Buren, Paul M. A Theology of the Jewish-Christian Reality: Part ILL, Christ in Context. San Francisco: Harper & Row, 1988.

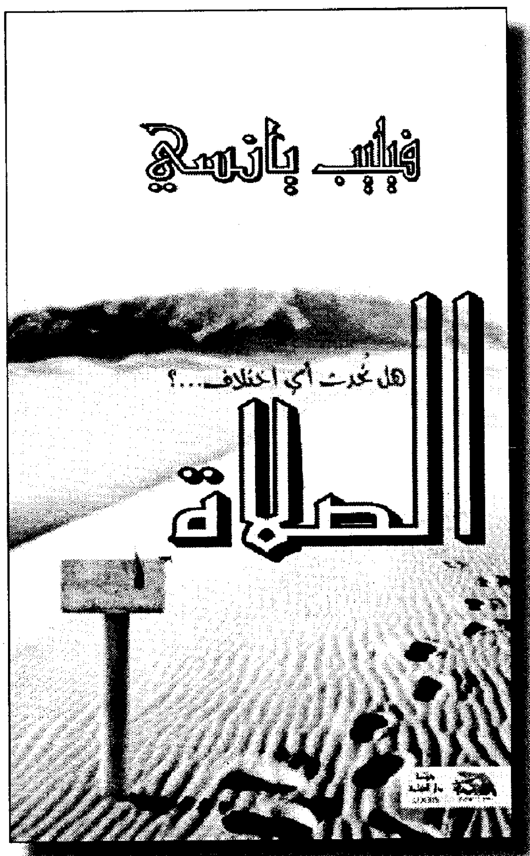
Willis, Wendell, ed. The Kingdom of God in 20th-Century Interpretation. Peabody, Mass.: Hendrickson Publishers, 1987.

Wright, N. T. Who Was Jesus? Grand Rapids: William B. Eerdmans Publishing Company, 1992.

Ziolkowski, Theodore. Fictional Transfigurations of Jesus. Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1972.

كتب أخرى لـ فيليب يانسي

من إصدارات "مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع"



نُرحب بآرائك ومقترحاتك.. رجاءً لا تتردد في الكتابة إلينا.. فهذا يُسعدنا



١٦ شارع محمود بسيوني - من ميدان الشهيد عبد المنعم رياض- الدور السابع- شقة ٢١- وسط البلد - القاهرة
مصر

٠٢٠٢٢٥٧٩٨٤١٤ ٠٢٠١٢٧٧٩٢٨٩٨١
٠٢٠١٢٨٦٥٤٨٣٨٨ ٠٢٠١٢٨٢٤٥٦٦٤٤

www.el-kalema.com
info@el-kalema.com
sales@el-kalema.com

يسوع
الذي لم أكن أعرفه

لا يوجد كاتب في عالم الكنيسة الإنجيلية، أعجب به وأقدره أكثر من يانسي.

بيللي جراهام

لقد تأثرت كثيراً فيما كنت أقرأ هذا الكتاب. خصوصاً بالكم الهائل من الكتب والمراجع التي قرأها الكاتب. والأفلام التي شاهدها حتى يستطيع أن يدرس ويفهم شخصية المسيح بأكثر تدقيق. فكان نتاج هذه الدراسة نظره جديدة ومختلفة لشخصية المسيح عن تلك التي رسمت في أذهاننا منذ الطفولة. كما درس الكاتب بعمق تعاليم المسيح، وخصوصا الموعظة على الجبل. فقدم لنا بعدا جديدا عن الحياة التي يجب أن نعيشها. حياه محورها "أن من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها". أنصح بقراءته. فهو كتاب رائع يقودنا فيه الكاتب "لحياه أفضل" محورها محبة أعمق للرب يسوع والحياة بموجب مبادئه.

رامز عطالله — مدير دار الكتاب المقدس- مصر

من يا ترى هذا الإنسان الغريب الذي شطر التاريخ إلى شطرين : ما قبل الميلاد وما بعد الميلاد؟...
هذا هو السؤال الذي طرحه على نفسه فليب يانسي في بداية مسيرته الروحية بقوله: "إن الميلاد كان بالغ الأهمية لدرجة أنه قسم التاريخ إلي جزئين ... إن كل شيء يحدث على هذا الكوكب يمكن تقسيمه إلي قبل المسيح وبعد المسيح " ... كيف أن هذا النجار البسيط الذي عاش ثلاثين سنة في قرية بسيطة ولم تتجاوز مدة رسالته ثلاث سنوات .. كيف أن هذا الإنسان الحافي الرجلين الذي لم يملك قصورا ولا جيوشا و لا قدرة ولا سلطة إلا تلك القدرة الفوقية التي كانت تملئه وتملأ كل من يسمعه ويتبعه ... وتلك السلطة الروحية التي جعلته يطئ تحت قدميه قوى الشر والجحيم ويجذب إلى ذاته الشعوب والجماهير .. من ضعفاء وأقوياء .. وكبار وصغار .. وبسطاء وعلماء ؟ ...
هذا هو السؤال الملح المضني الذي طرحه فليب يانسي على نفسه والذي قلب حياته رأسا على عقب وجعله يكتب هذه الشهادة النابضة بالصدق والحب والحياة.

الأب هنري بولاد اليسوعي



مكتبة
دار الكلمة
LOGOS
لدينا حلم
٠٢ ٢٥٧٩٨٤١٤
٠٢٠١٨٢٤٥٦٦٤٤
٠٢٠١٨٦٥٤٨٣٨٨
www.el-kalema.com



ISBN 978-977-384-205-5 25 L.E
يسوع الذي لم [978-977-384-205-5]